



المملكة العربية السعودية  
وزارة التعليم العالي  
جامعة أم القرى  
كلية الدعوة وأصول الدين  
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

# مقرر الثقافة الإسلامية (٤٠١)

# القسم الأول

## ( المجتمع المسلم بين المثالية والانحراف )

وَأَمَّا نَبِيُّكُمْ فَالْحَقُّ

الفصل الأول: المجتمع الإسلامي والمجتمعات المغايرة.

الفصل الثاني: الانحراف في المنهج.

الفصل الثالث: الانحراف في المفاهيم.

# الفصل الأول

## ( المجتمع الإسلامي والمجتمعات المغايرة )

وَأَمَّا بَيْنَنَا وَمَنْ بَيْنَهُمْ  
فَبَيْنَهُمْ حُزْنٌ كَثِيرٌ

المبحث الأول: المجتمع المثالي للأمة المسلمة.

المبحث الثاني: الجاهلية وحال العرب قبل الإسلام.

المبحث الثالث: أساس بناء المجتمع المسلم.

المبحث الرابع: مقومات بناء الأمة الإسلامية.

## المبحث الأول: المجتمع المثالي للأمة المسلمة:

إنَّ أيَّ منهج للحياة مهما كان نصيبه من المثالية والصحة النظرية سيبقى مجرد خيال وحلم تنقطع الآمال دون تحققه في الواقع ما لم يكن له نموذج واقعي يشهد بصحته ونجاحه في تحقيق الحياة الطيبة التي تأملها المجتمعات البشرية وتسعى جاهدة لتحصيلها، ويكون هذا النموذج التطبيقي بعد ذلك مقياساً لسائر التطبيقات الأخرى لهذا المنهج.

ومن هنا كان من خصائص المنهج الإسلامي للحياة الطيبة واقعيته ومراعاته للطبيعة البشرية على مستوى الفرد والجماعة، وبعده عن الإيغال في المثالية العالية للكمال البشري، وإعطاؤه مثالا بل أمثلة واضحة نقية للتطبيق الصحيح لهذا المنهج، وذلك ما تمثل في الجيل الذي رباه النبي ﷺ، وامتد أثره في القرون (الأجيال) الإسلامية المفضلة التي أشار إليها الحديث النبوي الشريف: ( خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم )<sup>(١)</sup>، وهي الأجيال التي تعارف المسلمون على تسميتها بـ (السلف الصالح)، والمتمثلة في جيل أصحاب النبي ﷺ، وجيل تلاميذهم التابعين، وجيل أتباع التابعين، ثم من جاء من بعدهم من العلماء والعباد والقادة وغيرهم من أهل الاقتداء ملتزما بمنهجهم في فهم الإسلام وتطبيقه.

فالصورة المثالية للمجتمع الإسلامي هي تلك الصورة التي تحققت في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين عقيدة وعبادة وأخلاقاً وشريعة، والتي تمثلت في التزامهم الكامل بالكتاب والسنة، فلن نحتدي لصورة مثالية لتدين الفرد والجماعة أفضل مما تحقق للنبي ﷺ وأصحابه، وما لم يكن عندهم ديناً لا يكون اليوم عندنا ديناً، وذلك لأن النبي ﷺ جاء ليبلغ ديناً ويربي أمة، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْعَنُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رَسُولَهُ، وَاللَّهُ يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)؛ ولذا أمرنا الله أن نقتدي بنبيه الكريم، ونتبع هدي أصحابه الصادقين الذي رباهم النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا

(١) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم (٢٥٠٩)، ومسلم حديث رقم (٢٥٣٣).

عَلَيْهِ مَا حَمَلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿ (النور: ٥٤)، فضمن الهداية لمن أطاعه ﷺ، وقال تعالى: ﴿ وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠)، وعن العزباض بن سارية قال: "وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودِعَ فِيمَاذَا تَعَهَّدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرِ احْتِلَافًا كَثِيرًا، وَأَيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالتَّوَجُّدِ" (١). وقد قال النبي ﷺ: ( فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ) (٢).

ومن هنا كان من الضروري أن تكون مثالية الجيل الأول من المسلمين محل اتفاق بين أهل القبلة، وأن يكون ذلك الجيل مقياساً للفهم الصحيح للإسلام، ومرجعاً عند التنازع في فهم أصل من أصول الإسلام أو نص من نصوصه، كما ينبغي أن يكون الواقع العملي لذلك الجيل مرجعاً لجميع المسلمين في التطبيق الصحيح للإسلام، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ لَوْلَا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٣٧)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء: ١١٥)، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩)، وغيرها من أدلة كثيرة.

وبهذا يُعلم أن أي قدح في ذلك الجيل الفريد، أو تشكيك في أهليته ليكون قدوة لأجيال المسلمين في فهم الإسلام وتطبيقه، هو في الحقيقة طعن في صميم الإسلام، وقدح في نجاح التربية النبوية لذلك الجيل، بل رد للشهادة الإلهية الكريمة لذلك الجيل بالصدق والفلاح كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ

(١) رواه الترمذي حديث رقم ٢٦٧، وقال هذا حديث صحيح، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم حديث رقم ٤٢٢٠.

وَأَنْبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا ﴿ (الفتح: ١٨)، وقوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿ (الفتح: ٢٩).

وأمام هذه التركيبة الإلهية العامة الشاملة لهذا الجيل نجد أن ما قد يُنسب إليه من هيناتٍ يُظن أنها تتعارض مع هذه التركيبة لا يخلو من أحد حالين:

إما أن تكون افتراءات أراد بها الحاقدون على الإسلام النيل من ذلك الجيل تذرعا للنيل من الإسلام نفسه، وهذه تكثر في المرويات التاريخية غير الموثقة التي امتلأت بها كتب الحكايات الأدبية والشعبوية والقصص والأخبار عند الفرق التي لا يشترط مؤلفوها - أو لا يحسنون أو لا يحرصون - الصحة والثبوت فيما ينقلون، ويعتمدون - إذا افترضنا حسن نيتهم - في نقد هذه المرويات إما على فطنة القارئ وذكائه ومعرفته بما سبق عند الله لهذا الجيل من الكرامة والرضوان، وإما على النظر في أسانيد هذه الأخبار - إن وجدت - واعتبار حالها من حال نقلتها.

وإما أن تكون زلات فردية محتملة اقتضتها الطبيعة البشرية، فعادت التوبة منها منقبة لصاحبها، فهي على الحال التي تكرر الثناء الإلهي على أصحابها كثيرا في نحو قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ (التوبة: ١١٧ - ١١٨).

ولا يخرج عن هذه الطبيعة البشرية ما قد يحصل بين المؤمنين من الخصومات التي قد تصل إلى حد الاقتتال - وهو أشد ما تمسك به الخائضون في نقد جيل الصحابة - الذي بين الله تعالى سلفا سبيل معالجته بقوله: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: ٩ - ١٠)، فلم يجعل مجرد الاقتتال مانعا من وصفهم بالإيمان والأخوة<sup>(١)</sup>.

ومن ظن أن من شرط المثالية والإمامة في الجيل الأول السلامة التامة والعصمة الشاملة فإنه يفترض مجتمعا ملائكيا على غير التركيبة البشرية والجيلية الآدمية، فلا يصلح قدوة لمن لا يشاركه في فطرته وخلقته.

وحتى الأنبياء عليهم السلام وهم صفوة الخلق قد قص الله علينا في كتابه الكثير من استغفارهم وتوباتهم، فقال لنبينا محمد ﷺ: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (الفتح: ٢)، وقال عن آدم ﷺ: ﴿ فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّجِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧)، وقال عن موسى ﷺ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (القصص: ١٦)، وقال عن داود ﷺ: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (ص: ٢٤)، وقال عن سليمان ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (ص: ٣٤ - ٣٥)، فبأي حق بعد ذلك يُتذرع إلى الطعن في جيل الصحابة لمجرد فتنة سعى فيها أهل الشقاق والنفاق من غيرهم حتى أدت إلى اقتتلهم، مع ما حصل بعد ذلك منهم من الندم والتألم لما جرى واستغفار بعضهم لبعض! <sup>(٢)</sup>.

ومما سبق تتبين أهمية دراسة ذلك الجيل الخيّر، دراسة تحليلية متزنة موثقة، تجلّي المقومات التي أهلتها لأن يوجه له الخطاب الإلهي الكريم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وتكشف سر استحقاقه للوعد القرآني: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(١) انظر: عن فتنة الاقتتال بين الصحابة والرد على من تذرع بها للطعن فيهم منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٣٩٤/٤ وما بعدها.

(٢) للاستزادة في موضوع الدفاع عن جيل الصحابة رضوان الله عليهم أحيل القارئ الكريم على المؤلفات التالية: "صب العذاب على من سب الأصحاب" لمحمود شكري الألوسي [١٣٤٢هـ-]، حواشي محب الدين الخطيب على القسم المتعلق بتحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ من كتاب "العواصم من القواصم" لأبي بكر بن العربي المالكي [٥٤٣هـ-]، "فصل الخطاب في مواقف الأصحاب" لمحمد صالح الغرسي، "حقبه من التاريخ" لعثمان الخميس.

لِيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿ (النور: ٥٥)، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿ (الحديد: ١٠)، وقوله تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ (النساء: ٩٥) ، فهذه الآيات كلها قطعاً في الصحابة قرر الله فيها: ﴿ وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ ووعده الله لا يخلف كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٦)؛ فإن من حقائق التاريخ المستعصية على التجاهل والكنمان أن المسلمين الأوائل استلموا قيادة العالم فكريا وعسكريا وسياسيا أحقابا من الزمن، لا لمجرد دراسات فكرية، أو انتصارات عسكرية، أو دهاء سياسي، بل لأمر من وراء ذلك كله، أخرجهم من ظلمات الجهل والخرافة والذل والتبعية لأعدائهم، إلى نور العلم والإيمان والتوحيد والعزة والكرامة، وحررهم من استرقاق الشهوات والنزوات التي طالما استعبدت أما وشعوبا، فحق على من خلف تلك الأجيال في حمل رسالة الإسلام أن يستطلع ذلك السر، ويستخير ذلك الأمر، طمعا في تحقيق آخر للوعد الإلهي القرآني متى ما تحققت شروطه.

## المبحث الثاني: الجاهلية وحال العرب قبل الإسلام:

### المطلب الأول: حقيقة الجاهلية:

معرفة حقيقة الجاهلية التي هدمها الإسلام من الأهمية بمكان لمعرفة حقيقة نعمة الإسلام كما قال عمر رضي الله عنه: ( لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية)؛ لأن الإسلام هو الوجه المقابل تماماً للجاهلية، وقد سمى الله في كتابه تلك الحياة المخالفة للإسلام بالجاهلية، فقال تعالى: ( أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿ (المائدة: ٥٠)، وقال تعالى: ﴿ وَقُرْآنَ فِي يُوتُوكُنَّ وَلَا تَبْرَحِ نَبُوحُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وقال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ﴾ (الفتح: ٢٦). وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: ( لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ



حَدِيثِ عَهْدِ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَمْرَتْ بِالْبَيْتِ فَهَدِمَ فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ وَأَلْزَمْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا فَبَلَّغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ (١).

والجاهلية وإن عرف العلماء أيامها كما قال الكرمانى أيام الجاهلية هي: " مدة الفترة التي كانت بين عيسى ورسول الله عليهما الصلاة والسلام، وسميت بها لكثرة جهالاتهم"، إلا أنها ليست محصورة في وقت محدد، إنما هي مبادئ مناقضة للإسلام حيث ما توفرت سمي ذلك المجتمع بالمجتمع الجاهلي، وإن اختلفت المظاهر من زمان إلى زمان.

فالجاهلية إذن ليست منحصرة فيما كان قبل بعثة النبي ﷺ بل قد توجد في مصر من الأمصار، أو توجد في شخص من الأشخاص ولو بعد البعثة، ولكن بعد بعثة الرسول ﷺ: " فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم، فإنه يكون في جاهلية، وإن كان في دار الإسلام. فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ، فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة.

والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من المسلمين " (٢)؛ ولذا إذا فعل المسلم بعض ما يخالف الإسلام من الأعمال كان على أعمال الجاهلية، وقد ثبت أن هذه الأمة تفعل أموراً من أمور الجاهلية هي من الكفر العملي الذي لا تخرج عن الملة كحديث: (أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ) (٣).

ومن هنا نبين المبادئ التي تقوم عليها الجاهلية ثم نتحدث عن بعض مظاهر الجاهلية الأولى في إجابة عن سؤالين: ما المبادئ التي تقوم عليها الجاهلية في كل زمان؟ وما أبرز مظاهر الجاهلية الأولى؟

(١) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ١٥٨٦، ومسلم حديث رقم ٣٣٠٨.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٧٨، ٧٩.

(٣) رواه مسلم حديث رقم ٢٢٠٣.

### المطلب الثاني: المبادئ التي تقوم عليها الجاهلية:

الجاهلية في كل زمان تتفق على مبادئ واحدة وإن اختلفت المظاهر، ومن هنا فهناك فرق بين جوهر الجاهلية ومظاهر الجاهلية، فمن مظاهر الجاهلية الأولى: عبادة الأوثان، وواد البنات، وشرب الخمر، ولعب الميسر، والتفاخر بالأنساب ونحو ذلك، وقد توجد جاهلية اليوم بمظاهر مختلفة لكنها في جوهرها وأصولها تتفق تماماً مع الجاهلية الأولى، فالجوهر المشترك بين الجاهليات جميعها على مر التاريخ يتلخص في أمرين هما:

#### أولاً: الجهل بالإلهية:

فأهل الجاهلية عبر التاريخ لم يفرّدوا الله ﷻ بالعبودية، ولذا كانت قضية الدعوة إلى التوحيد الخاص هي دعوة جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، قال تعالى عن دعوة نوح ﷺ إلى قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٣)، وقال تعالى عن دعوة هود ﷺ: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ٦٥)، وقال تعالى عن دعوة صالح ﷺ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ٧٣)، وقال تعالى عن دعوة شعيب ﷺ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ٨٥)، وقال تعالى عن دعوة إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٦)، وقال تعالى عن دعوة عيسى ﷺ: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢)، وقال تعالى عن دعوة محمد ﷺ: ﴿ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ ٢ كَرَّ أَهْلَكُنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَىٰ حِينٍ مِّنَاصٍ ٣ وَعِجْبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ ٤ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ٥ أَجْعَلِ الْأَلهَةَ إِلَهًا وَجِدًا إِن هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٦﴾ (ص: ١ - ٥)، وقال تعالى عن دعوة جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ (النحل: ٣٦)، وذلك لأن الجاهلية في كل زمان قائمة على عبودية غير الله؛ ولذا عندما طلب قوم موسى ﷺ أن يجعل لهم إلهاً من دون الله وصفهم بالجهل كما قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي

إِسْرَاءَ يَلُ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطَّلُ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ (الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠)، وكذلك وصفهم هود النبي ﷺ بالجهل في قوله تعالى: ﴿وَأذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا نَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفِئْنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرْتِكُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴿٢٣﴾ (الأحقاف: ٢١ - ٢٣).

### ثانياً: إتباع غير ما أنزل الله:

وكذلك من مبادئ الجاهلية إتباع غير ما أنزل الله إما بسبب الجهل بالحق الذي أنزله الله وعدم معرفته، أو بالعدول عنه إلى الآراء والأهواء وإتباع الآباء والعادات والتقاليد ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤١﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤٩﴾ (المائدة: ٤٩ - ٥٠)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَئِكَ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ وَمِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ (الزخرف: ٢٣ - ٢٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفِينَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْلَا قَوْلُ آبَائِنَا لَفِئَتٌ لَكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ سَبْعٍ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ (البقرة: ١٧٠)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْلَا قَوْلُ آبَائِنَا لَفِئَتٌ لَكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ سَبْعٍ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ (البقرة: ١٧٠)، وقال تعالى: ﴿لَقَمَانَ: ٢١﴾ (لقمان: ٢١)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ (النساء: ٦٠ - ٦١)، ولذلك تاهوا في أودية الجهالة، وعلى طريقته كل من سلك مسلكهم في أي عصر كان.

وكل الأمور التي وقعوا فيها ناجمة عن انحرافهم في هذين الجوهرين من عبادة الأوثان أو الجن أو الملائكة أو الشمس أو القمر ونحو ذلك من صور العبودية المنحرفة على مر العصور، كما أن تركهم لما أنزل الله كان سبباً لكل انحراف اجتماعي أو أخلاقي، ولذا نجد مظاهر الجاهلية عبر

التاريخ تنوعت في قوم لوط وشعيب وصالح وغيرها لكن الجوهر واحد، وهي في الحقيقة جاهلية ما دامت لا تعرف الله ولا تتبع منهجه.

فالجاهلية التي يصفها الله في كتابه هي عبودية الخلق للخلق دون إفراد الله بالوحدانية مع اتباع غير ما أنزل من الأهواء والعادات والتقاليد ونحو ذلك، ومن هنا فإن الجاهلية ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع، هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام في كل الصور التي تبعد الفرد أو الجماعة عن منهج الله في العقيدة والعبادة والسلوك والسياسة والاقتصاد والعقائد والحياة الاجتماعية، ولو كان ذلك في أمر جزئي؛ كما في الحديث الشريف: أن الرسول ﷺ قال لأبي ذر - وقد عيّر رجلاً بأمه -: « إنك امرؤ فيك جاهلية ». أي فيك روح الجاهلية وطيشها، وهو الفخر بالحسب والنسب لما غيره بأمه " يا ابن السوداء " .

### المطلب الثالث: من مظاهر الجاهلية الأولى:

أطلق القرآن على الفترة السابقة لبعثة النبي ﷺ بالجاهلية الأولى، وهي فترة كانت الإنسانية تعيش عهداً مظلمة بائسة، وهي فترة قد تمتد إلى مائتي عام قبل البعثة وأكثر، لأن ما وراء ذلك من الزمن يشوبه الغموض ولم يصل إلينا في التاريخ أو الشعر الجاهلي ما يرتكز عليه، فإليك بعض تلك الصور الجاهلية التي صورها القرآن الكريم، وتحدثت السيرة كثيراً عن معالمها، حتى نعرف عظمة نعمة الإسلام الذي رضيه الله ديناً للناس إلى يوم الدين، ولن يقبل ديناً غيره، ولن تسعد البشرية يوماً إن تحاكت إلى سواه، إليك بعض تلك المظاهر الجاهلية.

#### ١ / عبودية غير الله:

لقد تحولوا من عبادة الله ووحدانته التي تركهم عليها خليل الرحمن إبراهيم ﷺ إلى عبادة الأوثان، حتى أصبح حول البيت العتيق أزيد من " ٣٦٠ صنماً، بقصد أن تقرهم إلى الله زلفى كما زعموا، وتكون لهم شفعاء عند الله مع إقرارهم بالربوبية لله سبحانه وتعالى، بأنه وحده الخالق الرازق المحي المميت المدبر للأمر، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تُنْقِنُونَ ﴾ (يونس: ٣١)، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِهُوا اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿ (يونس: ١٨) ، وقال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (الزمر: ٣) ، فعبدوا الأصنام والأحجار والأشجار والجن والشمس والقمر والكواكب، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتَوْلَاءِ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (سبأ: ٤٠ - ٤١) ، ومن تلك الأصنام المشهورة: (هبل) الذي كان في جوف الكعبة، و(العزى) التي كانت في وادي نخلة لقريش وكنانة، و(اللات) التي كانت لثقيف، فقال تعالى مندداً بهذه الأصنام التي عبدت من دونه وهي لا تملك لنفسها فضلاً لغيرها موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فقال تعالى: ﴿ أَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴾ (النجم: ١٩ - ٢٣) ، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٣) . بل كانت آلهة قائمة على الهوى قال تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴾ (الفرقان: ٤٣) قال ابن كثير . رحمه الله . في تفسير هذه الآية ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أي مهما استحسنت من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه إلى أن قال: قال ابن عباس كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول" (١).

وهذا كان هو الغالب على حالهم ولم يكن يعرف التوحيد إلا طائفة محددة كورقة ابن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل لا أثر لها في الواقع ممن بقوا على بقايا الحنيفة السمحة من دين إبراهيم الخليل ﷺ ، ولذا عاش ذلك المجتمع بعد فساد المعتقد كل أنواع الفساد والانحرافات الأخرى، لأن فساد المعتقد يتبعه كل فساد آخر.

## ٢ / الشك في البعث بعد الموت:

ومن مظاهر الجاهلية الأولى كذلك الشك في أمر البعث كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس: ٧٨)

(١) تفسير ابن كثير ٦ / ١١٣ .

٧٨ - ٧٩)، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْمَارًا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿المؤمنون: ٨١ - ٨٣﴾، وقال تعالى: ﴿ بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَيْتًا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿النمل: ٦٦ - ٧٢﴾، والأدلة على ذلك كثيرة.

### ٣ / الانحراف الأخلاقي:

العرب على ما كانوا عليه من بعض الصفات الكريمة من شجاعة ونجدة وكرم ونصرة مظلوم إلا أن بعض الأخلاق السيئة غطت على كثير من جوانب حياتهم بصورة جعلتها حياة بائسة، من ذلك: كانت الخمر تشرب كالماء، والميسر تعج به المجتمعات، والدماء كانت تسفك لأتفه الأسباب، والزنا كانت له رايات بمكة، وسي النساء وسلب الأموال فاشي، بل وصل بهم الحال إلى وأد البنات وقتل الأولاد خشية الإنفاق وخوف الفقر، والقوي أكل والضعيف مأكول، مع تكبر وأعراض وعناد، فقد وصف جعفر بن أبي طالب الأخلاق الجاهلية أمام النجاشي فقال: "أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف" (١).

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه قوله: ( أمران في الجاهلية أحدهما يبكي والآخر يضحكني ، أما الذي يبكي فقد ذهب بآبنة لي لوأدها فكنت أحفر لها الحفرة وتنفض التراب عن لحيتي وهي لا تدري ماذا أريد لها فإذا تذكرت ذلك بكيت، والأخرى كنت أصنع إلهًا من التمر أضعه عند رأسي يجرسني ليلا فإذا أصبحت معاني أكلته فإذا تذكرت ذلك ضحكت من نفسي" (٢).

### ٤ / ظلم المرأة واضطهادها أو إطلاق العنان لها وتبرجها:

(١) ابن هشام ٣٥٨/١.

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٩ / ٨٠.

كانت المرأة في الجاهلية مهدورة الحقوق والكرامة ينظر إليها بمنظار النقص والكراهة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل: ٥٨ - ٥٩)، ولذا كانت المرأة تحرم نصيبها من الميراث، بل كانت عند بعض العرب تعد جزءاً من الميراث، وكان ابن الرجل يرث أرملة أبيه بعد وفاته، وذلك بعد أن يأتي الوارث فيلقي ثوبه على زوجة أبيه ثم يقول ورثتها كما ورثت مال أبي، فإذا أراد أن يتزوجها تزوجها بدون مهر، أو زوجها لمن شاء وتسلم مهرها، وتعزل بعد طلاقها وهو منعها الزواج حتى يأخذ منها ما يشاء، وقد كان التعدد بلا عدد، والمرأة تلاقى من زوجها نشوزاً وإعراضاً، و يساء عشرتها وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة حتى ترد إليه مهرها فحرم الإسلام هذه الصور الجاهلية الظالمة فقل تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَآءِ تَلْبَسُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴿١٩﴾﴾ (النساء: ١٩).

كما كانت الجاهلية من وجه آخر تطلق العنان للمرأة فتخرج من غير حاجة، وتخرج سافرة متبرجة، مزاحمة للرجال في شتى ميادين الحياة من غير حشمة ولا ضوابط ترعى الشرف وتحقق الطهر والعفاف؛ فجاء قوله تعالى لنساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع لهن: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب: ٣٣)، فأمر الله المرأة بالقرار في البيت لتقوم بدورها الأساسي، وإن دعت الحاجة للخروج تخرج وفق الضوابط المانعة من محركات الشهوة، ومداخل الفتنة، فلا خضوع بالقول، ولا خلوة، ولا اختلاط، ولا تبرج، ولا طيب ولا بخور ولو كان ذلك الخروج إلى المسجد.

## ٥/ حمية الجاهلية:

كانت الجاهلية الأولى قائمة على الأنفة والتكبر والغرور والبطر والتعنت والتعالي بغير حق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَىٰكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذَّكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الأنبياء: ٣٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ (الصافات: ٣٥ - ٣٦)، إضافة إلى

التقيد بالحمية الباطلة التي لا تقوم على دين وخلق قويم، وإنما تقوم على رابط القبيلة التي تقتضي أن يُنصر الفرد من قبل أفراد قبيلته ظالماً أو مظلوماً، نصره عصبية دون الاحتكام إلى عقل مستنير ولا هدى أو بصيرة، وهذا المبدأ الذي كانوا يسرون عليه قد عبر عنه دريد بن الصمة بقوله:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ومن هنا كان التفاخر بالأحساب من أبرز صفات الجاهلية، وقد كانت كل قبيلة لها اعتزاز بنسبها وقوتها، فهم خير الناس، وقبيلتهم خير قبيلة، وآباؤهم أشرف آباء وأمهاتهم أكرم أمهات، ولعل هذا ما يفسر لنا تلك المنافرات التي امتلأت بها أخبار العصر الجاهلي، وذلك الفخر الذي تدوي أصداؤه في قصائد شعرائه؛ ولذا قال عليه السلام: «أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونها: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والناحية -أو قال: النائحة- إذا لم تتب قبل موتها» وقد سبق تخريجه، قال ابن تيمية -رحمه الله-: إن تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل.. ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحداً بنسبه ولا يذم أحداً بنسبه، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى، ويذم بالكفر والفسوق والعصيان، ثم استشهد بالحديث الشريف: «أربع من أمر الجاهلية»، وقد سبق ذكره فجعل الفخر بالأحساب من أمور الجاهلية»<sup>(١)</sup>.

وقد تسببت تلك الحمية الجاهلية إلى تفرق نتجت بسببه حروب دامية سفكت فيها الكثير من الدماء.. حتى كأن إراقة الدماء أصبحت سنة من سنتهم، فهم دائماً قاتلون مقتولون لا يفرغون من دم إلا إلى دم. وكانت الحروب تبدأ صغيرة ضعيفة ثم تقوى ويصطلي الجميع بناورها، بل يترامون فيها ترامي الفراش، إن القتال في الجاهلية يكاد لا يهدأ، فالأرواح تُزهق والنساء ترمل، والبيوت تخرب، والثأر يزيد الحروب اشتعالاً، في أرض لا تعرف الهدوء، ووسط صحراء قل فيها الرحماء، قال تعالى ممتناً عليهم: ﴿وَأذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١ / ١٦٤.



قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (آل عمران: ١٠٣).

### ٦/ نفسي الربا:

كما كانت الجاهلية تعيش وضعاً سياسياً متدهوراً، كانت تعيش كذلك وضعاً اقتصادياً سيئاً للغاية، تمثل ذلك في نفسي الربا حتى أصبح أصل المعاملة فأطلق عليه النبي ﷺ ربا الجاهلية، وهو صورة من الأثرة والجشع وسوء استغلال حاجة الآخرين، وانعدام المروءة وسيطرة الماديات على العقول والأنفس، مع انعدام للمعروف بين الناس، حيث يعطي المدين مالاً لدائته زائداً على قدر الدين لأجل الانتظار، فإذا حلّ الأجل ولم يدفع زاد في الدين، يقولون: إِمَّا أَنْ تَقْضِيَ وَإِمَّا أَنْ تُرْبِي.

فجاء الإسلام فحرم أصل الربا وأعلن حربه عليه، ونفر منه تنفيراً شديداً؛ ولذلك سماه ربا الجاهلية، من قبل أن تدرك الأمم مخاطره، وما يمكن أن يسببه من كوارث اقتصادية تؤثر على النشاطات النافعة في الحياة من صناعة وزراعة وتجارة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩)، وقد جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: لعن رسول الله ﷺ " أَكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدِيَهُ، وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ " (١).

وما كانت حرب الإسلام للربا بهذه الصورة الصارخة إلا لما له من آثار سيئة على المجتمعات، فهو قائم على استغلال حاجات الناس، ومن أسباب تضخم المال بطرق غير مشروعة؛ لأنه تضخم على حساب سلب مال الفقير وضمه إلى كنوز الغني، كما هو أداة هدامة للنشاط، والعمل الشريف، واستثمار الأرض واستخراج طيباتها.. في صور مفسدة للحياة البشرية، محقة لكل بركة وخير، ولذا حذر منه النبي ﷺ في وداعه لأمته في خطبة الوداع فقال:

(١) رواه مسلم حديث رقم ٤١٧٧.

( إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلَا كُنْ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضْعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَيْتِي سَعْدٍ فَقَتَلْتَهُ هَذَا لِرَبِّ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبَا أَضْعُ رِبَانًا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ )<sup>(١)</sup>.

### المبحث الثالث: أساس بناء المجتمع الإسلامي:

لقد خلق الله تعالى الإنسان مدنيا اجتماعيا ألّوفا لبني جنسه<sup>(٢)</sup>، فلا بد له في وضعه الطبيعي من الانضواء تحت تجمع يلاقي مصالحه، ويحقق له أكبر قدر ممكن من مقومات العيش الرغيد، إلا أن ملامح هذا التجمع تتغير تبعا لاختلاف التصورات التي على أساسها تكون التجمعات البشرية، ابتداء من أصغر وحدات هذا التجمع وهي الأسرة، وانتهاء بأكبرها وهي الدولة.

ولما كان لهذه الفطرة الإلهية في الإنسان أكبر الأثر في قيامه بوظيفة العبودية التي خلقه الله من أجلها، جعل له الإسلام منهاجا محدد الملامح لعلاقته بمجتمعه، يترتب على الالتزام به والسير عليه تحقيق الحكمة التي خلق من أجلها.

وإذا كانت الحكمة الإلهية لخلق الإنسان هي العبودية لخالقه كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، فإن هذه العبودية لا تقتصر على العلاقة الفردية بين العبد وخالقه، بل هي تتمثل كذلك في أنواع من العبوديات يؤدّيها الناس لخالقهم حال اجتماعهم، كما يؤدون شعائرهم حال انفرادهم.

وليس المقصود هنا بهذه العبوديات الاجتماعية الشعائر التي تؤدّي في جماعة، كصلاة الجمعة والحج ونحوها من الشعائر على قداستها وأهميتها البالغة، وإنما المقصود هنا القيام بتلك الشرائع الربانية التي من شأنها أن تبسط العدل والأمن في الأرض، وترفع الظلم والبغي والعدوان، والتي ينتظمها الفهم العام الشامل لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المنوّه بها في قوله

(١) رواه مسلم حديث رقم ٣٠٠٩.

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون ٤١.

تعالى: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فكما أن الله تعالى إذ أمر بعبادته بيّن صفة هذه العبادة في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وبين أنه لا يقبل عبادة على غير الصفة التي بيّن، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى: ٢١)، وكما في قوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) <sup>(١)</sup>، كذلك فإنه لم يترك الناس هملا في شؤون اجتماعهم، بل بين لهم ما يؤدون به حقه عليهم في هذا الحال، وحقوقهم فيما بينهم، ويعمرون به الأرض على ما يوافق وظيفة العبودية التي خلقهم لها، وإن كانت العبودية في هذا الجانب غير مقيدة بصفة محددة كحال الشعائر، بقدر تقييدها بمقاصد عامة ومصالح معتبرة، وضوابط كلية تناسب وجماعية التكليف.

لقد جعل الإسلام أساس الرباط بين أتباعه هو رباط الانتماء لهذا الدين، وهو ما يعني بالدرجة الأولى الالتقاء على أصوله الكبرى القطعية من العقائد الغيبية المتمثلة في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، والشعائر العملية المتمثلة في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، وعنوان هذه الأصول كلها كلمة "لا إله إلا الله"، فمن قالها مدركا لمعناها ملتزما بمقتضاها فهو في عداد المجتمع المسلم المرتبط برابطة الأخوة الإيمانية التي تعلقو على كل رابطة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، وكما قال رسول الله ﷺ: (المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) <sup>(٢)</sup>، وعن حميد قال: سَأَلَ مَيْمُونُ بَنُ سَيَّاهٍ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: يَا أَبَا حَمْرَةَ مَا يُحْرِمُ دَمَ الْعَبْدِ وَمَالَهُ؟ فَقَالَ: (مَنْ شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا وَصَلَّى صَلَاتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَهُوَ الْمُسْلِمُ لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ وَعَلَيْهِ) <sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٢٢٥٠، ومسلم حديث رقم ١٧١٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٢٤٤٢، ومسلم حديث رقم ٦٧٠٦.

(٣) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٣٩٣.

وللمسلم بذلك على إخوانه حقوق هذه الرابطة من الحب والولاء والنصح والنصرة في الحق، ولهم عليه مثل الذي له عليهم، كما قال سبحانه: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١).

وهذا الرابط خاص بالمؤمنين بالإسلام الذي هو شريعة محمد خاتم الأنبياء والرسل صلوات وسلامه عليهم أجمعين، لا يشمل المعرضين عن أتباعه سواء من المنتمين إلى الشرائع المنسوخة المحرفة، فضلا عن أتباع الديانات الوثنية الوضعية، أو من غيرهم، كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٧٣)، وفي الحديث: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، يردّ مشدّهم على مضغفهم، ومتسرعهم على قاعدتهم، لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده) (١).

وهذه الخصوصية لا تعني مطلقا استباحة البغي والظلم والعدوان على غير المسلم، بل إن له حقوقا ضمنها الإسلام حتى في حال الحرب من شأنها أن تحقق العدالة والرحمة العامة الشاملة للعالمين، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعَدُّوا إِلَيْكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠)، وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٤) وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ (النحل: ١٢٦)، وقوله تعالى: ﴿ وَيُطِيعُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان: ٨).

ولا تنفصم هذه الرابطة العقدية إلا بالإخلال بتلك الأصول الكبرى المعلومة من الدين بالضرورة على وجه لا يتصور معه بقاء مصداقية الانتماء للإسلام، وهو ما سماه القرآن ردة في نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٧)، وذلك يكون على صور

(١) رواه أبو داود ٢٧٥١ برقم، والنسائي برقم ٤٧٣٥، وابن ماجه برقم ٢٦٨٣، ٢٦٨٤، ٢٦٨٥، وأحمد في مسنده ١٢٢/١، ٢١١/٢، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" برقم ٢٢٠٨.

عدة سماها العلماء "نواقض الإسلام" و "قواطع الإسلام" وشرحوها باستفاضة في كتب العقائد، وفي أبواب الردة من كتب الفقه.

ومن قصر في شيء من حقوق هذه الرابطة العقدية بأن زاغ في شيء من العقيدة والشريعة عن كتاب الله وسنة نبيه وما أجمع عليه المسلمون الأوائل من أصول الدين العلمية والعملية لم يفقد رابطة الأخوة الإيمانية إلا أن يقع في كفرٍ صريحٍ بواحٍ عندنا فيه من الله برهان، كعبادة غير الله تعالى، أو الاستهزاء بشيء من دينه، أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة، لكنه لا يكون في مؤاخاته كمن سلم من هذا التقصير، فالمستقيم على طريقة السلف الصالح أولى منه، وهو أولى من الكافر الأصلي، كما أن الكافر الكتابي أقرب من الكافر الملحد أو الوثني، وهذا من حيث الجملة، كما أن هناك اعتبارات أخرى في التفريق بينهم فالداعي إلى بدعة ليس كغير الداعي، والكافر المقاتل ليس كالمسلم وهكذا.

وقد كان من الحكمة الإلهية أن جعل كثيرا من شعائر الإسلام العظام ذات صبغة جماعية تأكيدا على هذه الرابطة، كما في القبلة وصلوات الجمعة والجماعة والأعياد ورمضان والحج والجهاد؛ فإن لهذه الشعائر الجماعية أثرا بالغا في إبقاء الشعور بالارتباط العقدي حيا بين المسلمين.

وإذا كانت العلاقة العقدية الإيمانية هي الأساس الذي يقوم عليه بناء المجتمع المسلم، وإذا كان تحققها شرطا لأهلية الأمة المسلمة لحمل رسالة الإسلام للعالمين، وإذا كانت الهوية العقدية وحدها هي العنوان الذي يسوّغ لهم منصب القيادة والريادة بين الأمم، فإنه من الضرورة القصوى أن نعلم أن هذه الهوية لا مفعول لها ما لم تكن باقية على صفائها ونقاها كما أنزلها رب العالمين على خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم، سالمة من جنائية التبديل والتحريف والتزييف تحت أي ذريعة من تأويل أو توفيق، وأن السر في استحقاق هذه الهوية أن تكون عنوان الأمة الأوحده هو ربانيتها الخالصة من شوائب الابتداع والزيادة والنقصان.

وهذا يعني أنه لا دور في تكوين هذه الهوية لميراث الآباء أو المتبوعين، واجتهادات الغالين أو المفرطين، والعصبية لغير ميراث سيد المرسلين، فضلا عن أن هذه الجنائيات والشوائب والعصبيات من شأنها أن تشتت الأمة، وتفتت مرجعيتها الأصلية في الكتاب والسنة إلى مرجعيات لا حصر لها، كل منها يُزعم أنها أهلٌ لالتفاف الأمة حولها.

كما أن هذه الهوية الربانية الخالصة هي وحدها التي تحوّل الأمة طرح ثقافة عالمية غير محسوبة على قومية أو عصبية أو إقليمية أو مصالح معينة، وإنما هي الفطرة الإلهية النقية الصافية، وخالصة ميراث الأنبياء والمرسلين جميعاً من لدن آدم ونوح إلى خاتمهم عليهم الصلاة والسلام، كما قال سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦) فَإِنَّمَا آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنَتْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبَغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿ (البقرة: ١٣٦ - ١٣٨) .

وأما نظرة الإسلام إلى الروابط الأخرى التي يلتقي عليها البشر في تجمعاتهم فهي جامعة بين الرحمة والحق وبين الحكمة والعدل، فالرابطة التي يترتب عليها مصالح معتبرة للناس ولم تتضمن ظلماً وعدواناً واجتماعاً على الباطل لا يلغيها الإسلام، بل يهذبها ويوجهها للخير، والرابطة الفاسدة من أصلها، المبنية على عصبية باطلة، أو قيم فاسدة، أو مصالح غير عادلة ينعم بها أناس على حساب آخرين، لا اعتبار لها في الإسلام، بل هي مصنفة في خصال الجاهلية التي جاء الإسلام لمحوها وشفاء الناس منها.

وقد بُعث النبي ﷺ في بلاد العرب والرابطة الأولى لتجمعاتهم العصبية القبلية، المبنية على قرابة النسب والرحم والمصالح المشتركة لأبناء القبيلة من القوة والكثرة، في مجتمع يعتبر الاستيلاء على مال الغير بالقوة من طرق الكسب المشروعة، فهذب الإسلام هذه العلاقة بأن أصل في نفوس الناس مبدأ العدل والمساواة، وأمات العصبية القبلية التي تجعل الفضل في مجرد الانتماء إلى القبيلة<sup>(١)</sup>، واستثمر هذه العلاقة النسبية الفطرية بين الأقارب في الخير، وسخرها في الحق، فكان يجعل العرفاء على القبائل<sup>(٢)</sup>، ويعقد الألوية في غزواته قبيلة قبيلة<sup>(٣)</sup>؛ لما في ذلك من الحث على التنافس بين القبائل في نصرته الله ورسوله، فلم يكن من هم النبي ﷺ أن يلغي هذه الرابطة بالمرّة، وإنما كان همه أن يهذب هذه الرابطة الطبيعية ويوجهها إلى الوجهة الصحيحة<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر في هذا الآثار التي أوردها أصحاب التفسير المأثور كابن جرير وابن كثير والسيوطي في الدر المنثور عند تفسيرهم لقوله تعالى {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات ١٣].

(٢) انظر: صحيح البخاري، حديث ٦٧٥٥، وبوب عليه البخاري: باب العرفاء للناس.

(٣) انظر: صحيح البخاري، حديث ٤٠٣٠.

(٤) انظر: "زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن القيم ٣/٥٩٥ وما بعدها.

إن من يقدم نفسه للعالم اليوم من المسلمين بهُوية قومية حتى ولو كانت القومية التي منها نبى الأمة عليه الصلاة والسلام لَيَفُوتَ على نفسه رصيذا ضخما من مبررات القيادة والريادة لأمم الأرض، فضلا عن تفريطه في الأمانة التي تحمّلها بانتمائه للإسلام، وسيبقى بهذه الهوية القومية المحدودة أو تلك نظيرا أصغر أو مساويا في أحسن حالاته لقوميات لا حصر لها، كل يدعي لنفسه أنه على طريقة مثلى، وثقافة فضلى، فبأي حق يتحول إلى طريقة قوم آخرين!.

أما من لا يرى أصلا تقديم نفسه للعالم، ويعتبر ذلك عبئا ثقيلا، من الذكاء طرحه، ومن الحزم الإعراض عنه، ويرضى بأي موضع بين أُمم الأرض ما دام يحقق مصلحته الدنيوية، ويحصل به شهوته ولذته ومتعته البهيمية، فواضح أن الخطاب لا يشملها؛ فإن هذه الرؤية غير متصورة من مسلم صادق يعرف نعمة الله عليه في هذا الدين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣).

إن التزام المسلم بهويته العقدية لا يعني تنكّره لانتماءاته الطبيعية الأخرى، فهو ابن أسرته البارّ، وهو فرد خير محسن في قبيلته وقريته وحيّه، وهو عضو منتج فعال في مجتمعه ووطنه، وهو في ذلك كله يستلهم استقامته وخيريته وإيجابيته من عقيدته، فهو يتعامل مع الله وباللّه في ذلك كله، قد ربح دينه، ولم يخسر دنياه، فإذا جمع شيء من هذه الانتماءات بدافع شهوة أو عصبية كبّحه بالانتماء الأعظم، وأجمه بلجام الإيمان، كما حصل مع الأوس والخزرج لما حرّش بينهم رجل يهودي حتى كادوا يقتتلوا، فأدركهم النبي ﷺ وزجرهم ووعظهم وذكرهم بقول الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣) (١).

وإذا كان المسلمون في تاريخهم الطويل قد عرفوا أنواعا من الانقسامات والانتماءات السياسية والإقليمية، التي بلغت أوجها في هذا الزمان الذي قد تقسمتهم فيه الأوطان، وصنفتهم الحدود إلى جنسيات منتمية إلى وحدات سياسية، ودول ودويلات تتفاوت في إمكاناتها، في واقع يطول شرح الظروف المؤدية إليه، منها ما يرجع إلى الاستعمار، وحركات الاستقلال في القرن الماضي، ومنها ما يرجع إلى طبيعة الأقاليم الجغرافية، وتركيباتها السكانية،

(١) انظر القصة في تفسير ابن كثير ٣٩٠/١.

ومنها ما هو امتداد تاريخي طبيعي لكيانات قديمة، حتى صارت الانتماءات الوطنية هي السمة العامة في واقع المسلمين اليوم فإن الإسلام يبقى هو الرابط الرئيس الذي يجمع كل هذه الكيانات والانتماءات، وتبقى الرابطة الإيمانية هي الجامعة لكل تلك الانتماءات.

والإسلام يمتلك من مقومات التغيير إلى الأصلح وإعادة البناء ما هو كفيلاً بتجاوز أي واقع قد يكون غير ملائم لعقيدته أو شريعته، وريثما يتحقق ذلك على السنة الإلهية المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، فإن الله جعل للمسلمين فسحة في دينهم، فلهم في التعاون على البر والتقوى، والتناصر على الحق والعدل، والتأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكافل والتعاون الاقتصادي والسياسي والعسكري بين دولهم وأوطانهم، ما يحققون به بعض ما فاتهم إذ لم يكونوا دولة واحدة، من القوة والمهابة والثروة.

وقد قال نبينا ﷺ: ( المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً )<sup>(١)</sup>، وقال: ( المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله )<sup>(٢)</sup>، فالواجب على المسلمين في علاقاتهم السياسية بين دولهم من التآخي والتآزر والتكافل والتعاون والتناصر في الحق والعدل كالواجب عليهم في علاقاتهم الفردية، وحقوق الأخوة الإيمانية تشمل الحاليين.

أما إذا طغت الصبغة الوطنية والنصرة الإقليمية على رباط العقيدة الإيمانية، بحيث تقدم استحقاقاتها والتزاماتها أي كانت على حقوق الأخوة العقدية تجاه كل مسلم، فإنها تعود في ميزان الشرع ضرباً من دعاوى الجاهلية.

### المبحث الرابع: مقومات بناء الأمة الإسلامية:

إذا تبين مما سبق أن الأساس العقدي هو الرابط الرئيسي والمقدم للتجمع الإسلامي وأن ما سواه من الروابط خاضعة له مضبوطة به فإن لهذا الرابط استحقاقات عقدية على المجتمع المسلم تشكل قوام الصبغة الإلهية التي رتب الله عليها خيرية الأمة المسلمة، على أنه سيلاحظ أنها ليست جميعاً قضايا نظرية بحتة كما هو المعتاد في غالب الدراسات العقدية المتأخرة عن عصر السلف، بل منها قضايا عملية تجسد الأثر العقدي الصادق لرابطة الأخوة الإيمانية، وترجم

(١) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٤٦٧ ومسلم برقم ٢٥٨٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٤٦٧ ومسلم برقم ٢٥٨٥.



المبدأ الراسخ للسلف في تفسير حقيقة الإيمان بما يجمع العلم والعمل<sup>(١)</sup>، وفيما يلي عرض لأهم هذه المقومات، وبعض ما قد تواجهه من التحديات المعاصرة داخل المجتمع المسلم وخارجه.

### المطلب الأول: الإيمان الصحيح الراسخ:

سبق أن أشرنا إلى أن الأساس الذي قام عليه التجمع الإسلامي هو رباط العقيدة، وقد صار من البدهيات لدى كل دارس للثقافة الإسلامية الأصيلة أن العقيدة الإسلامية ليست مجرد معارف ومعلومات يتصورها المسلم ويصدق بها وحسب، بل هي إيمان راسخ في القلب، يتجلى في التزام عملي بالجوارح، وأن الإيمان لا يصح إلا باليقين المنافي للشك والريب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الحجرات: ١٥)، وإذا كان هذا شرطاً لصحة إيمان الفرد المسلم فإنه كذلك من أعظم مقومات خيرية الأمة المسلمة بين الأمم؛ وذلك أن حمل رسالة الإسلام والعمل من أجل الدين القويم ما هو إلا فرع عن اعتقاد راسخ بربانيته وعصمته وأحقيته بالإتباع بين المناهج الوضعية، وانفراده بالصلاح والإصلاح لكل زمان ومكان، ومناسبته لكل عصر ومصر؛ حيث إن واضعه وشارعه هو خالق الخلق جل وعلا وهو أعلم بما يُصلح خلقه قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤).

ومن هنا كانت البداية الأولى في الإصلاح النبوي هو تصحيح العقيدة في الله كما جاء في صحيح البخاري في سؤال هرقل لأبي سفيان فقال له: ( فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ قَالَ يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ) (٢).

(١) يعتقد أهل السنة والجماعة أن الحقيقة الشرعية للإيمان تتجاوز الحقيقة اللغوية، فتشمل الجانب العملي من الدين كما تشمل الجانب الاعتقادي، فالإيمان عندهم تصديق بالقلب وباللسان وبالجوارح، يزيد وينقص ويتجزأ ويتبعض، خلافاً للمرجئة الذين آخروا العمل عن حقيقة الإيمان ومسامه هروبا من مذهب الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة بناء على زوال كل الإيمان بزوال بعضه لا اعتقادهم أنه لا يتجزأ ولا يتبعض، وغفل المرجئة الذين وافقوا الخوارج على فكرة عدم تبعض الإيمان عن أن مذهب الخوارج ليس بلازم لمذهب السلف، وأن تأخيرهم العمل عن مسمى الإيمان أدى إلى التقليل من أهمية الالتزام العملي بالدين، فضلا عن مخالفته لحقائق المصطلحات الشرعية المأخوذة من نصوص الكتاب والسنة. انظر تفصيلاً أكثر في مجموع فتاوى ابن تيمية ٦٤٢/٧ وما بعدها، وشرح العقيدة الطحاوية ٣٥٥/١ وما بعدها.

(٢) حديث رقم ٢٩٤١.

وهي من أكثر الموضوعات وروداً في القرآن، ولا يمكن إقامة بناء الإسلام في العبادة أو الأخلاق أو السياسة أو الاقتصاد دون تجلية موضوع العقيدة، وترسيخ قيم الألوهية في قلوب المؤمنين، حتى يكون الله تعالى حاضراً في قلوبهم في كل لحظة يراقبونه ويتقون به في كل تصرفاتهم، ويستعينون به في كل أحوالهم، ويتطلعون إليه بالرجاء والخشية، وذلك هو الطريق الذي أصلح به الأنبياء النفوس البشرية، وهدموا به الحياة الجاهلية، ولذا عني القرآن بتعريف المؤمنين بربهم بكل صفاته، وعمق في قلوبهم عظمتهم من خلال ما عرض من عظيم صفاته، وآياته في الكون الخاضع لعظمتهم، بما تحدث القرآن عنه من سننه في أخذ الظالمين في الأرض، مع بيان قدرته المطلقة في الكون الخاضع لعظمتهم .

المسلم في عهد النبي ﷺ منذ اللحظة الأولى التي يعلن فيها شهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) يصبح انتماءه لدينه، ويتبرأ بعدها من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى الله، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفصامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، فتتحول حياته كلها لتستقيم على منهج الله في كل شيء: في الاعتقاد، والعبادة، والأخلاق، وفي الحكم، وفي سياسة المال، وفي سياسة المجتمع... ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بخدافيرها فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَمْرًا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٤٠).

ويصبح الانتماء للتوحيد هو القاسم المشترك الوحيد لأمة متكاملة كبرى، ولا شيء غيره، فهو أساس الانتماء، ورابطة الولاء... وإذا ما نحينا الإسلام بعقيدته جانباً فمن المستحيل أن نجد قاسماً مشتركاً آخر نتفق عليه وتلتقي عنده الأمة الإسلامية، فلا الأرض ولا اللغة ولا التاريخ يمكن أن يكونوا القاسم المشترك لأمتنا، وذلك لأن الأرض واللغة والتاريخ تعتبر امتداداً للإسلام.

إن العناية بصفاء التوحيد، ونقاء العقيدة، مع انتزاع رواسب الجاهلية في عبودية غير الله كان من أهم مقومات الإصلاح النبوي، وما تزال هي الطريق الوحيد لكل تربية جادة لا تريد العبث

واللهو والتسول على فتات الشرق والغرب، باسم الإسلام، وضغوط العصر الحاضر ومدنيته المادية.. وذلك للآتي:

أولاً: لأن أساس الإصلاح يقوم بصلاح المعتقد: لأن من عرف الله بذاته وصفاته سهل أخذه بشريعته، ولذا المشركون لما جهلوا قدر الله جهلوا قدر شرعه، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر: ٦٧).

ثانياً: لأن الله لا يقبل الأعمال بفساد المعتقد: قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١٦)، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢)، وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُذْيَةٍ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبٌ ﴾ (الأنبياء: ٩٤)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (طه: ١١٢)، وقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٥)، وعن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافع قال: ( لا ينفعه إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ) (١).

ثالثاً: لأن منهج جميع المرسلين قائم على هذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ ابْعُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (النحل: ٣٦).

ولذلك كانت الأنبياء والرسول عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم أول ما يبدؤون من الدعوة إنما هو توحيد الله عز وجل فلم يكونوا يعالجون بادئ الأمر المشاكل الأخلاقية ولا الاقتصادية وغير ذلك مما افتتن بمعالجته كثير من الدعاة اليوم مع الغفلة عن المشكلة الأساسية وهي انحراف الكثير من المسلمين اليوم وما قبل عن العقيدة الصحيحة.

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٥٤٠.

فالإيمان الصحيح الراسخ هو الذي يثمر أمة تغير وجه الأرض من الشر إلى الخير ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن الشرك إلى الوحدانية ومن الظلم إلى العدل ، ومن الفواحش واتباع الشهوات إلى العفاف والطهارة والزكاء؛ ليس تعصبا لمذهب موروث عن الآباء، أو لفرقة ذات تاريخ مشترك، أو لطائفة تربطها مصالح فئوية، أو غير ذلك من التجمعات ذات العنوان الديني المجرد من أهم مرتكزات الاعتقاد، ألا وهو الدليل والحجة والبرهان؛ فإن مجرد التعصب لفكرة معينة، والتشبث بها حتى التضحية في سبيلها بالنفس والنفيس قد يحصل من صاحب النحلة الباطلة، وليس هذا مقصودنا ومرادنا هنا، وإنما نريد صحة الإيمان ورسوخ اليقين المبني على آيات بينات كالشمس في رابعة النهار، وكالبدر ليس دونه سحاب، المبني على أدلة الوحي المحفوظ المعصوم، والمؤيد بالعقل الصريح، والحس السليم، والفطرة المستقيمة، فهذا هو اليقين الذي يرفع صاحبه عن حال من أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الزخرف: ٢٣، ٢٤).

أما مجرد التمسك بالموروث لا لشيء إلا لكونه موروثا عن الآباء فهذا في متناول الجميع مهما تناقضوا في آرائهم واختلفوا فيما يظنون أنه الحق، وليس هذا من الخيرية في شيء، وبهذا نعلم أن سبيل الخلاص لأمة الإسلام من اختلافاتها العقدية الكبرى إنما هو بنبذ التعصب الأعمى لكل ما هو موروث عن غير خاتم الأنبياء عليه وآله الصلاة والسلام، ومراجعة كل رأي ومقولة بعرضها على الوحيين، واستبعاد كل ما هو أجنبي غريب عما كان عليه المسلمون الأوائل من مصادر معرفة العقيدة والشريعة.

وقد نوه القرآن بهذه السمة في الأنبياء وأتباعهم فيما قص علينا من خبرهم وخبر أعدائهم قال تعالى: ﴿الْمُرْيَاتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٌ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِيْ أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَانْتُونَا بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصُدِرَكَ عَلَى مَاءٍ أَدِيمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١٢-٩). (إبراهيم: ٩-١٢).

### المطلب الثاني: التمسك بالوحي الإلهي ( الكتاب والسنة ) علماً وعملاً:

قال تعالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الزخرف: ٤٣)، وقال ﷺ: " تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ " (١)، فإن محور الإيمان برسالة الإسلام الاعتقاد اليقيني الجازم بأن محمداً ﷺ لم يأت بشيء من الدين من عند نفسه فضلاً عن غيره من الجن والإنس، وإنما هو كما وصفه ربه: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٤، ٣)، واللازم البدهي المباشر لهذا الاعتقاد اليقيني أن يكون الميراث العلمي للرسول مصدراً يقينياً ملزماً لأتباعه في جميع أمورهم الدينية والدينيوية، العلمية والعملية، ولا يتصور في مسلم يوقن بالرسالة المحمدية أن يعرض عن شيء من هذا الميراث وهو يعلم أنه من الهدى النبوي، ولذا كان الإعراض عن حكم الله ورسوله من سمات المنافقين الظاهرة، كما قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِفَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (النور: ٤٧-٥٢).

إن معنى شهادة المسلم بأن محمداً رسول الله أن يكون الرسول مصدراً يقينياً لجميع التصورات لديه عن عالم الغيب وحقائق الكون والالتزام بما جاء عن الرسول ﷺ من صفات المهتدين قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النور: ٥٤)، فلا يلتفت إلى غيره إذا خالفه، بل يجزم بأن أي تصور مخالف لما جاء به فهو كاذب خاطئ مبني على الهوى قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(١) رواه مالك في الموطأ حديث رقم ١٥٤٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٠٨٣٣، والحاكم في المستدرک حديث رقم ٩٤، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(القصص: ٥٠)، فإذا علم المسلم مثلاً أن الرسول أخبر بأن صاحب التصرف المطلق في المخلوقات هو الله وحده، وأن المطلع على الغيب هو الله وحده، وأن المعبود بحق هو الله وحده، لم يسعه بعد ذلك أن يكون له الخيرة في اعتقاد متصرف في الكون مع الله، أو مطلع على الغيب سوى الله، أو مستحق للعبادة من دون الله.

كما تعني هذه الشهادة العظيمة الالتزام التام بالأحكام التي جاء بها الرسول، وألا يكون الالتزام بها وقفاً على شيء سوى ثبوتها عن الرسول وصحة فهمها، فلا يتوقف قبولها على قناعات المفكرين، أو تصويت المجالس، فإذا علم المسلم مثلاً أن المعاملات الربوية وأن تعاطي الخمر والمتاجرة بها وأن كشف العورات محرمات في شريعة الرسول لم يسعه بعد ذلك أن يتنصل من الالتزام بهذه الأحكام تحت أي ذريعة ما دام قادراً، وإلا كان متناقضاً مع الشهادة التي يعلن بها انتماءه للإسلام قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

ولا يكفي في تحقيق الشهادة بالرسالة مجرد قبول ما جاء به الرسول والإعراض عما خالفه من التصورات والتشريعات الدينية حتى يضم إلى ذلك الاكتفاء بهذا المصدر، والإعراض عن أي زيادة من المصادر الأخرى وضعية كانت أو منسوخة، حتى لو لم تكن مخالفة؛ لأن من المقاصد الشرعية الكبرى التي نادى عليها نصوص الوحيين النظر إلى الشريعة بعين الكمال<sup>(١)</sup>، مع الرضا والاستسلام، رضاً بلا تردد، وتسليم بلا كراهة، وإتباع بلا مخالفة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣).

والله تعالى كما لا يقبل دينا إلا إذا كان خالصاً لوجهه كما قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر: ٣)، كذلك لا يقبل دينا إلا إذا كان وفق الشرع الموحى إلى رسوله كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي ٣١٠/٢.

شُرِكُوا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴿ (الشورى: ٢١) ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ  
الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وعلى هذا نادى الرسول ﷺ على منبره بقوله: (خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي  
محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة) (١).

ولما رأى النبي ﷺ في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة من التوراة قال له:  
(أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم  
بجح فتكذبوا به، أو يخبروكم بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو كان موسى حيا ما وسعه  
إلا أن يتبعني) (٢).

أما التصورات غير المخالفة وغير الموافقة في المصادر الأخرى فليس على المسلم من حَجْر  
ولا حرج أن يطلع عليها ويعتبر بها، غير أنها تبقى بعيدا عن معتقده الذي يدين الله به، فلا  
يترتب على قبولها أو ردها زيادة إيمان أو نقصانه، وقد قال النبي ﷺ في شأن أخبار بني  
إسرائيل: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) (٣) (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم) (٤).

وهكذا التشريعات الدينية المحدثه سواء كانت عبادات أو أحكاما فإنها مردودة بحكم  
صاحب الشريعة: (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد) (٥).

أما التنظيمات المدنية، واللوائح الإلزامية المتعلقة بمصالح الناس الدنيوية فالباب فيها مفتوح  
لأصحاب العلم والخبرة والأمانة أن يحدثوا فيها ما يرونه أقرب إلى تحقيق مصالح الناس في حدود  
ما تسمح به الشريعة الإسلامية في رعايتها للمصالح العامة، ووفق قواعدها وأصولها العامة، كما  
دل على هذا قول النبي ﷺ: ( أنتم أعلم بأمر دنياكم)، وقوله: ( إنما أنا بشر فإذا أمرتكم بشيء  
من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر) (٦)، مع أن الأصل في كل ما  
جاء عنه عليه الصلاة والسلام من أمور الدين والدنيا أنه وحي إلا إذا اقترن بقوله ما يدل على

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٨٦٧.

(٢) رواه أحمد ٣٤٩/٢٣ برقم ١٥١٥٦، وضعف محققوه إسناده.

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٣١.

(٤) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٤٢١٥.

(٥) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٢٥٥٠، ومسلم حديث رقم ١٧١٨.

(٦) صحيح مسلم برقم ٢٣٦١-٢٣٦٣.

أنه رأي أو ظن من عنده هو الذي يقال فيه: (أنتم أدرى بشئون دنياكم)، وما لم يقترن بذلك فالأصل أنه وحي من الله، وعلى هذا جرى فعل السلف رضوان الله عليهم.

وقد استدل قوم بهذه الروايات على أن الرسول ليس معصوماً من الخطأ في أمور الدنيا، وليس واجباً إتباعه وتصديقه فيها. بل قالوا يعرض ما يقول على ميزان النقد كسائر الناس، فإن جاء موافقاً قبل وإلا رد عليه. فردوا لذلك أحاديث صحيحة في البخاري وغيره، وتناسوا أن من أمور الدنيا أبواب المعاملات، والعقوبات، والحروب، والمواعظ، والطب، وأخبار الأمم الماضية والآتية، وأن الأمور الدنيويات قسمان: وحي من الله كحديث الذباب وأحاديث الدجال، وسجود الشمس تحت العرش. واجتهاد رأي (الأول) معصوم فيه ولا ريب (والثاني) هو الذي يجوز فيه الخطأ، كما جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّكُمْ تَحْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ فَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا)<sup>(١)</sup>.

وهنالكَ أمور سكنت عنها الشريعة فتح فيها العلماء باب الاجتهاد كحكم بين متخاصمين؛ ولهذا جعل علماء الشريعة من مصادر التشريع الفرعية في الإسلام "المصالح المرسله"<sup>(٢)</sup> وهي الأحكام المتعلقة بمصالح الناس مما يستجد في حياتهم ولم يأت التنصيص عليها في الكتاب أو السنة، فأرسلت - أي لم تقيّد بحكم معين - لاختلاف وجوه المصالح بحسب ما يستجد من أحوال الناس، وإن كانت قد قيدت بأصول وقواعد عامة لا تخرج عن دائرتها.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما استحدثه السلف بعد النبي ﷺ من جمع القرآن ونسخ المصاحف وتخزيها وشكلها ونقطها، واتخاذ السجن والدواوين (المصالح والوزارات) ونحوها من الأمور غير التعبدية التي لم تكن في عهد النبي ﷺ ولم ينص عليها الوحي، لكنها تندرج تحت عمومات النصوص ومقاصد الشريعة، فلا تتصادم معها بحال<sup>(٣)</sup>.

### المطلب الثالث: التخلق بكمكارم الأخلاق:

من أعظم مميزات الإسلام العناية الكبيرة بجانب الأخلاق الذي لا يوجد عمل واحد ينفك عنه، أو قائم على أساس غير خلقي، ولذا كان من أوائل الأمور التي دعا إليها النبي ﷺ العناية

(١) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٢٦٨٠، ومسلم حديث رقم ٤٥٧٠.

(٢) انظر: مثلاً روضة الناظر لابن قدامة ١٤٨-١٥٠.

(٣) انظر: الاعتصام للشاطبي ١٨٠/١ وما بعدها.



بهذا الجانب، كما جاء في قول جعفر بن أبي طالب للنجاشي، فقال له: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلوة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك... (١).

وقد جاء عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة أنجفل الناس قبله. وقيل قد قدم رسول الله ﷺ، قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله. ثلاثا. فجئت في الناس لأنظر. فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: (يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) (٢).

وقد اتسع الكلام في الأخلاق قديما وحديثا، وتناولتها الفلاسفات والمناهج التربوية المتنوعة تأصيلا وتفصيلا، محاولة تحديد طبيعتها وأسسها ومعاييرها ومصادرها ووسائل الإلزام بها والتربية عليها (٣).

وجاء الإسلام ليرفع من شأن الأخلاق إلى الغاية، فجعل استكمال مكارم الأخلاق وتتميم صالحها المقصد الكلي للرسالة المحمدية الخاتمة، كما دل على ذلك الحديث الشريف: (إنما

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم ١٧٤٠.

(٢) رواه الترمذي وغيره حديث رقم ٢٤٨٥، وقال حديث صحيح.

(٣) راجع في هذا "مقدمة في علم الأخلاق" للدكتور محمود زقزوق، ٤٧ وما بعدها، "كلمات في الأخلاق الإسلامية" للدكتور كمال عيسى، ١٣٧ وما بعدها.

بعثت لأتمم صالح الأخلاق (١) وفي رواية: مكارم الأخلاق (٢)، وبين ﷺ أن حُسن الخلق من أعظم ما ينافس به العبد العباد الصائمين القائمين، فقال ﷺ: (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) (٣)، وربط ﷺ الخيرية بحسن الخلق فقال: (إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً) (٤).

وقد سبق الكلام بتوسع في هذا العنصر في المستوى الأول بما يغني عن الإطالة فيه.

### المطلب الرابع: المجاهدة في سبيل الله لإعلاء كلمة الله :

التضحيات في سبيل المبادئ تأتي على قدر قناعة العقول بها، وتشرب النفوس لها، ومحبتها لواقعيتها، وإذا كان هذا مشاهداً حتى عند أتباع المبادئ الوضعية، والمناهج الأرضية، والمصالح الدنيوية، والارتباطات العرقية، بل حتى المذاهب المنحرفة، والعصبية الجاهلية، فكيف به عند أتباع الأنبياء والمرسلين، الذين بنوا مبادئهم على يقينيات الوحي الإلهي المصوم المؤيد بالفطرة والعقل السليم، الممتزجة بوجدانيات الحب والخوف والرجاء، وعواطف المجاهدة والمصابرة والافتداء بأطهر الخلق وأتقاهم وأنقاهم وأكملهم إنسانية، حتى استعدبوا العذاب، واستلناوا أقسا الشدائد في سبيل رضا محبوبهم.

فلا عجب إذن إن رأينا سلف هذه الأمة من القرون الحيرة المفضلة كأتباع الأنبياء وحواريهم من الأمم السابقة يسجلون أنبل المواقف ويعرضون على رؤوس الأشهاد أبهى صور التضحية والفداء في سبيل الحق الذي دانوا به، قال تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ (آل عمران: ١٤٦ ، ١٤٧) مستلهمين قول ربهم: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قَاتِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨).

(١) رواه أحمد ٣٨١/٢، وقال ابن عبد البر: (هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعاً) انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي ١/١٨٠.

(٢) رواها البزار، انظر: مجمع الزوائد: ١٥/٩.

(٣) رواه أبو داود ٤٧٩٨، وهو في صحيح الجامع للألباني برقم ١٩٣٢.

(٤) رواه البخاري في صحيحه حديث ٣٣٦٦، ومسلم حديث رقم ٢٣٢١.

وإذا كانت التضحية بالنفس في ساحات الجهاد من أعظم مظاهر التضحية فإن التضحية بالراحة والمال وتحمل أنواع المشاق النفسية والجسدية في سبيل رفعة الإسلام ونشر رسالته لا تقل عنها عظمة وثقلا في الميزان الإلهي، وخذ مثلا على ذلك المعاناة الهائلة التي تحملها علماء الإسلام قديما وحديثا وعلى رأسهم المحدثون في سبيل حفظ الشريعة ونقلها ونشرها وبيانها والذب عنها وتبليغها، على قلة ما يملكون وعسر ما يواجهون، في صبر عجيب وجلد مذهل، كل ذلك إيمانا واحتسابا، لا يبتغون عليه أجرا ولا راتبا، سوى الوعد الإلهي الكريم: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١).

ومن أمثلة العبر الرائعة في جدية حمل هذا الدين والتضحية في سبيله ما رواه ابن جرير بسنده عن أبي إسحاق السبيعي قال: لما نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦) قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (إن من أمتي لرجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي) (١).

ومن هنا ربي الإسلام ذلك الجيل الفريد على تحمل مسؤولية الإسلام مع نبيه ومن بعده نشرًا لقيمه في الأرض ودفاعاً عنه بالنفس والمال وغيرها، لان الإسلام جعل أهله أصحاب رسالة قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨)، فجعل الله سبيل نبيه والمؤمنين الدعوة إلى الله على بصيرة في صورة لازمة دائمة قبل التمكين وبعده، ولذا قال تعالى في وصف الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وبذلك جعلهم شهداء في أرضه، والقائمين على دينه من بعده؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)، والمكلف من بعد نبيه في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فقال: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فجعل لا يحمل قيمه ولا يدافع عنها باللسان واللسان والمال والقلم وغيرها غير مؤهل لحمل رسالة الإسلام.

(١) جامع البيان (٢٠٧/٧).

## المطلب الخامس: الوحدة وترك التنازع والاختلاف:

الوحدة بين المسلمين فريضة إلهية مؤكدة، يدل عليها قوله تعالى: ﴿وَأَعَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنفَشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُنِينَ مَرْمُوضٍ﴾ (الصف: ٤)، وقوله ﷺ: (مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (١).

وهي وثيقة الصلة بصحة المعتقد وسلامة المنهج وبقائه على صفائه كما أنزله الله (٢)، لذلك جاءت البراءة من أهل الفرقة والاختلاف في القرآن على هذا الأساس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

وهي كذلك ضرورة عصرية لحصول الأمة الإسلامية على حقوقها ومحافظة على كيانها أمام التكتلات الدولية العسكرية والاقتصادية.

وهذا تاريخ المسلمين يشهد بأن الأمة ما فقدت شيئا من عزتها وهيبتها وأوطانها وثرواتها إلا وكان التشتت والتشرد من أعظم أسباب ذلك، ولا يزال خبر الفردوس المفقود (الأندلس) وما أدى إلى فقدانه من تنازع ملوك الطوائف أمام صولات الصليبيين شاهدا على ذلك (٣)، وهكذا اغتصاب اليهود فلسطين ما كان له أن يكون لولا فرقة المسلمين وانقساماتهم وخذلان بعضهم لبعض (٤)، فما بال أمة تملك من مقومات الوحدة والتعاون ما لا تملكه غيرها من الأمم غدت لقمة سائغة سهلة لأعدائها؟!.

إن الاتحادات الوطنية والاقتصادية والتكتلات والتحالفات السياسية التي نجحت فيها بعض الدول والقارات وجنت ثمارها ازدهارا اقتصاديا وهيبة عسكرية واستقرارا أمنيا واجتماعيا لم تكن بمعجزات إلهية، ولا وصفات سحرية، ولا طفرات سريعة في برهة من الزمن، وإنما كانت

(١) رواه مسلم برقم ٢٥٨٦.

(٢) انظر: الوحدة الإسلامية للإمام أبي زهرة ص ٢٤٦.

(٣) انظر: حاضر العالم الإسلامي للدكتور علي جريشة ص ٩٩-١٠٨.

(٤) ولا يعني هذا غياب العوامل الأخرى التي في مقدمتها التآمر العالمي. انظر حاضر العالم الإسلامي للدكتور جميل المصري ص ٣٠٥ وما بعدها.

نتيجة إرادة صادقة من القيادات، تترجمها جهود حثيثة وتنازلات ثمينة عن المصالح الشخصية أو الإقليمية الضيقة لحساب المصلحة الاتحادية العليا، كما كانت نتيجة وعي متكامل من الشعوب، وإلحاح مستمر من المفكرين على ضرورة تحقيق هذا المطلب، حتى غدت الوحدة والاتحاد ثقافة عامة تترى عليها الأجيال فتتشبث بها وتؤمن بضرورتها لنيل مكانة كريمة بين الأمم<sup>(١)</sup>.

وأمة الإسلام مطالبة شرعا وعقلا أن تأخذ بهذه الأسباب وزيادة، فيجب على ولاة أمور المسلمين صدقُ الإرادة وتقديم التضحيات وإعطاء قضية الوحدة الإسلامية حقها من العناية والاهتمام، والنظر إليها على أنها ضرورة دينية ودنيوية، وأنها الملاذ الإلهي من سيطرة قوى الظلم والابتزاز، وتسلب المعتدين الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، كما يجب على دعاة الإسلام وعلمائه ومفكريه بذل النصيحة للولاة في هذه القضية باستمرار، والحذر والتحذير من إغفالها، وتنبية المسلمين دائما إلى ضرورتها، وأنها مطلب شرعي أكيد، وضرورة دنيوية حتمية في الذب عن حياض الأمة ودينها ومقدساتها وثوراتها، والسعي الحثيث في سد كل باب للفرقة والتناحر وتفريق الصف الإسلامي، والمبادرة الدائمة المستمرة لإصلاح ذات بين المسلمين كلما نشأ خلاف أو ثارت حرب داخلية، وتذكيرهم وبذل النصح لهم بما أوجب الله تعالى عليهم من جمع الكلمة والاعتصام بحبل الله جميعا ونبذ الفرقة والخلاف.

عن أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ. ثم قال: أي يوم هذا؟ قالوا يوم حرام. ثم قال: أي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. ثم قال: أي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، قال: ليبلغ الشاهد الغائب<sup>(٢)</sup>.

### المطلب السادس: تحقيق قيم العدل بين الناس:

(١) انظر عن هذه التكتلات العالمية وتمزق العالم الإسلامي بينها المرجع السابق ص ١٤١ وما بعدها.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ٤١١/٥، وأكثر ألفاظه في الصحيحين.

من أعظم ما دعا إليه الإسلام وربى عليه النبي ﷺ أصحابه العدل فيما بينهم، والعدل مع الناس كافة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّانِعُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

والإسلام حث على العدل حتى مع الخصوم والمفارقين للحق، لأن الله يحب القول والعمل بعلم وعدل، ويكره القول والعمل بجهل وظلم، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨)، قال ابن عاشور: "فإن العدل في الحكم وأداء الشهادة بالحق هو قوام صلاح المجتمع الإسلامي والانحراف عن ذلك ولو قيد أمثلة يجر إلى فساد متسلسل"<sup>(١)</sup>، وقد ضرب أصحاب النبي ﷺ أروع الأمثال في العدل فيما بينهم ومع أعدائهم، ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه الرسول ﷺ على أهل خيبر يخرص عليهم ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال: والله لقد جفتكم من أحب الخلق إليّ ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حيي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض<sup>(٢)</sup>.

وقد كان إقامة القسط في الأرض ومحاربة الجهل والظلم والفساد من أعظم ما دعا إليه الإسلام، وذلك لأن سبب الانحراف عن الحق والإصرار على الأخطاء إما الجهل وإما الظلم، فالجهل علاجه العلم، والظلم علاجه العدل والإنصاف والقسط.

ويكتسب هذا العنصر من مقومات خيرية الأمة أهميته الخاصة في عصرنا هذا من جهة أن هذه الخصلة من أكبر الدعاوى التي يتشدق الغرب بأنها صارت سمة لمجتمعاتهم، وأنها من عناصر القوة والاستقرار لديهم، وذلك ما يجعل لثقافتهم بريقا يبهر المفلسين من الثقافة الربانية

(١) التحرير والتنوير ١٠٣٨/١ .

(٢) رواه وأبو داود حديث رقم ٣٤١٠، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح حديث رقم ٢٩١٠.

الأصيلة، ويحملهم على اللهث وراء سراب الثقافة الغربية الخادع، ظنا منهم أن مجرد الاصطباغ بهذه الثقافة سيولد لهم هذا المطلب الإنساني الضروري.

ومع أننا لا ننكر مصداقية هذه الدعوى إلى حد كبير على المستوى الداخلي في المجتمعات الغربية وأنها من أقوى أسباب هجرة المستضعفين والمقهورين إلى تلك المجتمعات ولجوئهم إلى الضمانات والحقوق التي تكفلها لهم قوانينهم الوضعية، إلا أن هذه المصداقية للعدالة في الثقافة الغربية لا تلبث أن تنحسر على المستوى العالمي أمام الخيارات الصعبة بين المصالح القومية للغرب وبين تحقيق العدالة في الأزمات الدولية، فما من أزمة عالمية أو إقليمية شارك الغرب في صنعها أو تدخل في حلها إلا كانت مصالحه وأمنه القومي هي القيمة المطلقة في توجيه سياساته تجاهها، ثم تتولى الآلة الإعلامية الغربية الضخمة تغليف ذلك بدعوى تحقيق العدالة ونشر الحرية ونصرة المظلومين والمضطهدين والمستضعفين، مع أن الأمر في حقيقته غالبا ما يؤول إلى التضحية بهذه القيم في سبيل ضمان مصالحهم، وهذا هو الفارق الأعظم الذي ينبغي أن يدركه كل مخدوع بالثقافة الغربية بين العدالة باعتبارها قيمة ربانية ثابتة مرتبطة بالمعتقد، وبين العدالة باعتبارها قيمة نسبية تابعة للمصلحة القومية العليا.

ومن الظلم البين وقصور النظر الاكتفاء بمقارنة ساذجة بين واقع المجتمعات الغربية المتمتعة بسيادة القانون على جميع طبقات المجتمع، وعدالة توزيع الثروات، وكفالة الحقوق والضمانات والحريات، وبين واقع المجتمعات الشرقية التي تغلب عليها معاناة الاستبداد والظلم والقهر والفساد المالي والإداري، ثم سحب ذلك على الثقافة الإسلامية باتهامها بأنها تمهد لذلك.

ومن باب إعلاء الإسلام من قيمة العدل حرم الرب سبحانه وتعالى الظلم على نفسه، فكيف بالخلق، كما في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا)<sup>(١)</sup>، ويأمر بتحقيق العدل مع جميع الناس حتى غير المسلمين كما سبق بيان ذلك، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ (النساء: ٥٨).

فالعدل في الإسلام قبل أن يكون مقتضى العقل والمروءة والإنسانية، هو عقيدة يعتقدها الإنسان في خالقه جل وعلا، وعبادة يتقرب بها المسلم لربه، ويقوم به لله حتى مع المخالفين

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٧٧.

الذين انعقدت أسباب بغضهم بحق، وهم أقرب ما يكونون عرضة للظلم والانتقام بغير حق، والتشفي حال التمكن منهم بمقتضى الغريزة البشرية، فيجعل الإسلام توقي المسلم من ذلك في حقيقته توقيا لعذاب الله تعالى وحذرا من حسابه وجزائه، لأنه بمقتضى عقيدته يتعامل مع الخالق قبل أن يتعامل مع المخلوق.

وإذا كان العدل فريضة على المسلم في خاصة نفسه وفي تعامله مع الناس على اختلاف طبقاتهم فإنه كذلك فريضة على الدولة الإسلامية في جميع سياساتها الداخلية والخارجية، ولا محل في المنهج الرباني الإسلامي لسياسة النفاق والكيل بمكيالين حسبما تقتضيه المصلحة العليا كما في المناهج الجاهلية، بل المصلحة العليا في التصور الإسلامي في تحقيق العدالة المطلقة، والصدق والتضحية في سبيل ذلك هي عين الحكمة والحكمة السياسية، ولا تسقط هذه الفريضة الإلهية حتى حال العجز؛ إذ تحقيق العدل هو المبرر الأعظم لتولي قيادة الناس والفصل بينهم. أما تأكيد الإسلام على مبدأ الطاعة لولاة الأمر فهو عين الحكمة والمصلحة؛ فإنه لم يُلزم بذلك لأناس بأعيانهم على وجه مطلق<sup>(١)</sup>، بل جعله لمن انعقدت له الولاية الشرعية من أهل الحل والعقد، وهم وجوه الناس وقادة المجتمع من العلماء والفقهاء والخبراء والوجهاء والأعيان وزعماء القبائل وشيوخهم وعرفائهم في كل مجتمع وإقليم، حسب أعرافهم وثقافتهم المحلية المتلائمة مع الشرع، فهؤلاء إذا بايعوا من يرضونه لدينهم ودينهم على إقامة شرع الله انعقدت له الولاية الشرعية، ووجبت طاعته على من بايعه ومن تبعهم من أهل ذلك الإقليم المنتفع بهذه الولاية.

وجعل الإسلام هذه الطاعة مقيدة بالمعروف، كما قال ﷺ: (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يُؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)<sup>(٢)</sup>، وقال ﷺ: "إنما الطاعة في المعروف"<sup>(٣)</sup>.

(١) انفرد الإمامية بين طوائف الأمة بدعوى أن الإمامة منصب إلهي معصوم كالنبوة يتطلب تعيينا بالوحي، وتأولوا لذلك على منهج باطني آيات من القرآن، وساقوا أخبارا مكذوبة نسبوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، واحتجوا عقلا بأن الحكمة الإلهية تقتضي عدم ترك الأمة في شأن الإمامة فريضة للنزاعات والأطماع، وانقلبت هذه الحجة على ما يعتقد معظمهم من غيبة الإمام! وترك الأمة في بلائها أكثر من ألف عام، ثم تدارك بعضهم هذه الورطة بنظرية ولاية الفقيه، ومما ألفه علماءهم في شأن الإمامة "منهاج الكرامة في إثبات الإمامة" لابن المطهر الحلي، وقد نقضه شيخ الإسلام ابن تيمية بكتابه المشهور "منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية".

(٢) صحيح البخاري ٦٧٢٥، وصحيح مسلم ١٨٣٩.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٧١٤٥، ومسلم حديث رقم ٤٨٧١.



ولا يخفى على أي عاقل أن هذه الطاعة ضرورة بدهية لانتظام أمر الحكم، واستقامة المصالح المناطة به، فإذا ما أخل المبايع له بعقد البيعة بأن أعرض عن تحكيم الشريعة الإسلامية أو مال إلى الجور مثلا كان لأهل الحل والعقد استبداله بخير منه، فإن تعذر ذلك لم يجز الخروج عليه إلا بشرط إعلانه الكفر الأكبر الصريح<sup>(١)</sup>، وانتفاء الوقوع في مفسدة أعظم من بقاءه، كأن تقع فتنة بين المسلمين تُزهق فيها الأرواح وتُتلف الأموال، فتحریم الخروج على أئمة الجور إذاً ليس لأجلهم، وإنما لأجل المفسدة الغالبة المترتبة على ذلك، وهذا ما أكده الواقع في التاريخ الإسلامي، فإنه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (قل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير)<sup>(٢)</sup>، ولهذا قال السلف: "ستون سنة من إمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا سلطان".

### المطلب السابع: التراحم والتكافل الاجتماعي :

إن الإسلام اهتم بصورة كبيرة بالتراحم والتكافل بين أفرادها ، حتى أصبح الواحد يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه كما قال النبي ﷺ: " لا يؤمن أحدكم حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه " <sup>(٣)</sup> وأصبح المجتمع كما وصفه النبي ﷺ بالجسد الواحد والبنیان المرصوص كما جاء في الحديث: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى " <sup>(٤)</sup>.

والمراد بالتكافل<sup>(٥)</sup> هنا أن المجتمع المسلم المحقق لروابط الأخوة الإيمانية يكفل بعضه بعضا، فيعطف القوي على الضعيف، ويواسي الغني الفقير، ويعلم العالم الجاهل، ويحنو الكبير على الصغير، ويُرعى فيه حق المحرومين من ذوي الاحتياجات الخاصة من المرضى والمعاقين والمسنين ونحوهم، كل ذلك إيمانا بالله وطلبا للأجر والثوبة، واعتقادا بأن الله جل وعلا ما أعطى فريقا وحرّم آخر إلا ابتلاء وامتحانا، وأنه لو شاء لأفقر الأغنياء وأمراض الأوصياء وأضعف الأقوياء وغيّر النعم. وإذا كان هذا الاعتقاد هو الباعث الأعظم للتكافل بين المسلمين فإنه لا يلغي ولا

(١) انظر صحيح البخاري حديث رقم ٦٦٤٧، وصحيح مسلم حديث رقم ١٧٠٩.

(٢) منهاج السنة ٥/٥٢٨، وانظر ما بعدها حيث ذكر وقائع تاريخية تثبت ذلك.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ١٣، وصحيح مسلم حديث رقم ١٧٩.

(٤) صحيح مسلم حديث رقم ٦٧٥١.

(٥) والتكافل تفاعل من الكفالة، وهي الحفظ والرعاية والضمان انظر: لسان العرب ١١/٥٨٨.

يعارض الباعث الإنساني المبني على الجبلة البشرية الداعية إلى التعاطف بين بني الإنسان؛ فإنه من الفطرة الصحيحة التي فطر الله الناس عليها.

والملاحظ في هذا الزمان تفوق الغرب الظاهر في هذا المجال على سائر أمم الأرض، تنظيماً والتزاماً، على وجه يثير الإعجاب، فإذا كان الدافع الإنساني سر هذا التفوق الغربي، فما بالك بأمة تجمع إلى هذا الدافع الإنساني عقيدة تجعل التعامل مع الخلق تعاملًا مع الخالق جل وعلا، وتملك منهجا ربانيا فريدا في الرعاية الاجتماعية من شأنه أن يملأ المجتمع رحمة وعطفا وحنانا ورفقا، لو أنها التزمت به تربية وتشريعا وسلوكا<sup>(١)</sup>.

وقد جعل الإسلام للتكافل تشريعات وأحكام جعلته في بعض الأحيان فريضة لازمة، وفي بعضها قرينة مرغوب فيها من ذلك:

أ / إيتاء الزكاة: الذي جعل ثالثَ أركان الإسلام، وجعل قرين الصلاة في القرآن، وقائل الصحابة رضوان الله عليهم من امتنع عنه بعد موت النبي ﷺ، معتبرين ذلك من حق "لا إله إلا الله" الذي لا يستقيم إسلام أحد بدونه<sup>(٢)</sup>، فهل هذا إلا مفخرة من مفاخر الإسلام ومزية من مزاياه؛ أن يكون للفقير والمسكين والضعيف والمحتاج حق واجب في مال الغني القادر، لا مئة له فيه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج: ٢٤، ٢٥)، ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور: ٣٣)، هذا سوى الكفارات والصدقات النافلة، التي جاء الترغيب الشديد فيها، والوعد الإلهي الكريم بجزيل الثواب لباذليها، كما قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ...﴾ (الآيات: ٢٦١-٢٧٥ من سورة البقرة).

ب / إطعام الطعام: الذي جاء التأكيد عليه في أكثر من آية، قال تعالى في ذكر صفات الأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿١﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِرًا﴾ (الإنسان: ٩، ١٠)، بل أبلغ من هذا أن عدم الحض على طعام المسكين يعد في التصور الإسلامي جريمة تُقرن بعدم الإيمان بالله تعالى في سببية استحقاق العذاب والنكال في الجحيم،

(١) للاستزادة في هذا الموضوع راجع كتاب "التكافل الاجتماعي في الإسلام" للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.

(٢) انظر صحيح البخاري حديث رقم ١٣٣٥، وصحيح مسلم حديث رقم ٢٠.

كما في قوله تعالى: ﴿ خذوه فغلوه ﴿٣٠﴾ ثم الجحيم صلوه ﴿٣١﴾ ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴿٣٢﴾ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴿٣٣﴾ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ (الحاقة: ٣٠-٣٤)، وقوله: ﴿ ولا تحضون على طعام المسكين ﴾ (الفجر: ١٨)، وفي هذا تأكيد عجيب على مدى ارتباط الجانب العقدي في الإسلام بالجانب العملي، وأن التمايز بينهما إنما يكون في التصور الذهني<sup>(١)</sup>.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ( من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برئ من الله تعالى وبرئ الله تعالى منه، وأما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى )<sup>(٢)</sup>.

ج/ كفالة اليتيم: وقد أكد عليها القرآن أيضا في غير ما آية، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ (الضحى: ٩)، وقوله: ﴿ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَىٰ بِالْقِسْطِ ﴾ (النساء: ١٢٧)، وقال: ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ (الفجر: ١٧)، وسبق قوله ﷺ: ( أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا شكأ إلى النبي ﷺ قسوة قلبه فقال: ( امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين )<sup>(٣)</sup>. وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: ( من مسح رأس يتيماً أو يتيمة لم يمسه إلا لله كان له بكل شعرة مرّت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيماً عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين ) وقرن بين إصبعيه<sup>(٤)</sup>.

د/ نصرة المظلوم: قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ (النساء: ٧٥)، وقال ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه - أو تمنعه - من الظلم؛ فإن ذلك نصره<sup>(٥)</sup>.

(١) ولذلك كان إدخال الجانب العملي في مسمى الإيمان الشرعي هو التعبير الصادق للتصور الإسلامي كما هو مذهب السلف رحمهم الله، وانظر ما سبق ص ٢٣.

(٢) رواه أحمد في مسنده حديث رقم ٤٨٨٠، وضعف محققوه إسناده ٤٨٤/٨، وذكر الحافظ ابن حجر أن لمتنه شواهد تدل على صحته، انظر القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد ص ٢٠.

(٣) مسند أحمد ٥٥٨/١٤ وضعف محققوه إسناده، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٠/٨): رجاله رجال الصحيح.

(٤) رواه أحمد في المسند حديث رقم ٢٢٣٣٨، وقال في المجمع (١٦٠/٨): فيه علي بن زيد الألهاني وهو ضعيف.

(٥) رواه البخاري برقم ٢٣١١، ومسلم برقم ٢٥٨٤.

وقال النبي ﷺ عن حلف المطيبين الذي تعاقدت فيه قبائل قريش في الجاهلية على نصره المظلوم ورد الفضول على أهلها: ( شهدت غلاما مع عمومي حلف المطيبين فما يسرني أن لي حُمُرُ النعم وأني أنكته )<sup>(١)</sup>.

هـ/ إعانة الضعيف وإغاثة الملهوف وتعليم الجاهل: قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (المائدة: ٢)، وعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله: أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله، قال قلت أي الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا، قال قلت فإن لم أفعل، قال: تعين صناعا أو تصنع لأخرق.. الحديث<sup>(٢)</sup>. وعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: على كل مسلم صدقة. فقالوا يا نبي الله فمن لم يجد، قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق. قالوا فإن لم يجد، قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا فإن لم يجد، قال: فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة<sup>(٣)</sup>. وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال أمرنا النبي ﷺ بسبع: بعبادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسم<sup>(٤)</sup>.

و/ الشفاعة الحسنة: قال تعالى: ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ (النساء: ٨٥)، وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طُلبت إليه حاجة قال: ( اشفَعوا تَوْجروا ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء )<sup>(٥)</sup>.

ز/ تزويج الأيامى: قال تعالى: ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعَ عِلْمُهُ ﴾ (النور: ٣٢)، وعن سهل بن سعد الساعدي قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله جئت أهب لك نفسي. قال: فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعد النظر فيها وصوبه ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست، فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها،

(١) رواه أحمد برقم ١٦٥٥، وهو في صحيح الجامع للألباني برقم ٣٧١٧.

(٢) رواه البخاري حديث رقم ٢٣٨٢، ومسلم حديث رقم ٨٤.

(٣) رواه البخاري برقم ١٣٧٦، ومسلم برقم ١٠٠٨.

(٤) رواه البخاري برقم ٥٨٨١.

(٥) رواه البخاري برقم ١٣٦٥.

فقال: وهل عندك من شيء؟ قال: لا والله يا رسول الله، فقال: اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً، فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: انظر ولو خاتماً من حديد، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد ولكن هذا إزاري - قال سهل ما له رداء - فلها نصفه، فقال رسول الله ﷺ: ما تصنع بإزارك؟ إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك شيء، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ مولياً، فأمر به فدُعي، فلما جاء قال: ماذا معك من القرآن؟ قال معي سورة كذا وسورة كذا، عدّها، فقال: تقرؤون عن ظهر قلبك؟ قال: نعم، قال: اذهب فقد ملكتُكها بما معك من القرآن<sup>(١)</sup>.

فهذه نماذج أردنا بها التأكيد على عناية الإسلام الفائقة بالتكافل الاجتماعي واشتمال شريعته الربانية على ما هو كفيل عند التطبيق بتحقيق التوازن بين طبقات المجتمع، وسد الثغرات الناجمة عن التفاوت الفطري بين الناس في مقدرتهم على الكسب وتدبير شؤون حياتهم. وقد تطور هذا التكافل في عصرنا الحاضر حتى أخذ شكل مؤسسات ومنظمات وجمعيات خيرية تطوعية متنوعة في تخصصاتها كالتي تهتم بكفالة الأيتام، أو تزوج الشباب، أو إطعام الفقراء وإغاثة المنكوبين في الزلازل والفيضانات والسيول، أو مساعدة المعاقين أو مرضى الكلى، أو التي تهتم بمحاربة المخدرات، ومكافحة التدخين، أو مساعدة الأسر الفقيرة على الإنتاج، إضافة إلى مؤسسات تهتم بالجانب الدعوى والعلمي والبحثي، أسهمت بصورة فاعلة في الرقي بهذه المجتمعات وتنميتها وتطويرها والحفاظ على أمنها وسلامتها من الانحراف والفساد، حتى أصبحت تصنف بالقطاع الثالث بعد الدولة والقطاع الخاص من خلال مجموعات طيبة من شباب الأمة مقتنعين بأهمية العمل التطوعي بل نابع ذلك عندهم عن عقيدة تأمرهم بالبر والإحسان وتحثهم على الصدقة لكل المحتاجين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْإِحْسَانِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٤)؛ ولذا لم تتوقف مسيرة العمل الخيري الإنساني في تاريخ أمتنا الطويل على الرغم من محاولات الأعداء المستمرة للنيل منه، بل سجلت من خلاله صور مشرقة للإنسانية عن عظمة هذا الدين.

(١) رواه البخاري برقم ٤٧٩٩.

ولئن كانت المجتمعات الغربية قد أبدعت من أنظمة الضمان الاجتماعي ما يُحسب لها فإن الإسلام يجعله مجالات التكافل الاجتماعي شرائع ملزمة، وشعائر تعبدية، وقربات يرجو بها المسلم الأجر والثواب من خالقه قبل أن تكون عاطفة إنسانية فطرية، إن الإسلام بذلك ليعطي الحل الأمثل لمشكلات الحياة المادية المعاصرة، التي رسخت الأثرة والأنانية والقطيعة والجفاء بين الناس، حتى ظهرت الطبقة الكريهة، والتميز العنصري المقيت، ونزعت الرحمة من قلوب كثير من الناس حتى أصبحوا كالوحوش في الغاب، يأكل القوي الضعيف بلا شفقة ولا رحمة، ولا يفوت فرصة للنيل من أخيه الإنسان إلا اهتبلها لأكل ماله واغتصاب حقه، فأين هذا من حال تلاميذ التربية النبوية الذين وصفهم العزيز الحكيم بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩).

# الفصل الثاني

## ( الانحراف في المنهج )

وَأَمَّا الْبُيُوتُ فَالْبُيُوتُ

المبحث الأول: أخذ الدين من غير مصادره المعتمدة.

المبحث الثاني: الانحراف بالمصادر المعتمدة فهماً واستدلالاً.

## تهيد:

منهج دراسة الثقافة الإسلامية هو الطريقة التي يتبعها الناس لمعرفة دينهم وتقرير أصوله ومسائله ودلائله<sup>(١)</sup>، وذلك يشتمل على جانبين: جانب المصادر التي يستقي منها الناس معتقداتهم ومبادئهم وأفكارهم حول الحقائق الغيبية للكون وخالفه، والإنسان والحياة، والجانب الآخر هو أسلوب تعاملهم مع هذه المصادر ليفهموا منها رأياً معيناً؛ فإن اتفاقهم على مصدر معين لا يعني ضرورة اتفاقهم على الآراء المستخرجة منه؛ لاختلاف طرائق الفهم عند الناس.

ولما كان تنوع الآراء والمذاهب والمعتقدات الدينية تابعا لاختلاف المناهج المتبعة في معرفة الدين وتنوع مصادرها وطريقة فهمها كان من الضرورة القصوى لمبتغي الإصلاح والتصحيح العقدي البدء بهذه القضية، وإلا سيذهب جهده سدى في التوفيق بين آراء متناقضة ومذاهب متشعبة لم تتفرع عن طريق واحد في الأصل، وهذه هي العلة التي لم يفتن لها المجتهدون في سبيل التقريب بين أصحاب المذاهب والديانات، حتى أدت إلى ضياع جهودهم<sup>(٢)</sup>.

لقد كانت قضية منهج تلقي المعتقدات الدينية والاستدلال عليها واضحة تماما في دعوة الأنبياء والمرسلين، فالدين مبني أساسا على الإيمان بالغيب، وهذه القضية لا مجال فيها لأخذ

(١) عن مصطلح المنهج وأهميته في العلوم انظر: "منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة" لعثمان علي حسن: ١٩١-٢١.

(٢) انظر أمثلة على ذلك في "مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة" للدكتور ناصر القفاري: ١٤٨/٢ وما بعدها، وعن دعوة التقريب بين الأديان وأثارها انظر "الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان" للدكتور بكر أبو زيد: ١٧-٣٤.



العلم المفصل وتلقيه إلا عن الأنبياء والرسل وعند أتباعهم من الدعاة المصلحين، واعتماد ما يوحى إليهم من مرسلهم جل وعلا، سواء كان ذلك في معرفة الله تعالى تفصيلاً، أو معرفة ما غاب عنا من حقائق الكون وسر وجود الإنسان، وما يتبع ذلك من مصيره بعد انقضاء الحياة الدنيوية، أو ما يجب على الإنسان أدائه ليحقق حكمة وجوده فينال السعادة والراحة والطمأنينة، أما العقل البشري الذي توهم الكفار استغناءهم به عن الوحي الإلهي فإنه يقف في مجال معرفة الغيب عند حدود المعرفة المجملة بأن لهذا الكون خالقاً، ولهذا الوجود حكمة، ولا يتجاوز ذلك إلى تفصيل معرفة هذا الخالق ولا إلى تفاصيل حكمة الوجود<sup>(١)</sup>، كما أن نظريته التشريعية قاصرة وليست عادلة.

وقد تجلّت قضية تحديد منهج تلقي العقائد الغيبية بجانبه في الرسالة الخاتمة بغاية من الصرامة، كما يظهر في التأكيدات القرآنية المتتابعة على وجوب الإيمان بالله ورسوله وما جاء في الوحي الإلهي إليهم، والتحذير من الكذب على الله والافتراء على رسوله والزيغ عن آياته، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٩)، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٧٠، ١٧١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر: ٤١).

كما جاء الدم لمن تفرقوا واختلّفوا حول ما جاءت به الرسل، أو دانوا بغير ما أذن به الله وأوحاه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِيٰ إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ

(١) انظر: "الرد على المنطقيين" لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤٧٣.

وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَعَلَيْهِمْ... إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى: ١٣-٢١).

وجاءت السنة المشرفة بمثل ما جاء به القرآن من الأمر بأخذ الدين من الوحي المبين، والاكْتفاء به عن غيره، والتحذير من الزيادة فيه والنقصان، أو التبديل والابتداع، فعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا خطب يقول: (أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة) (١).

وعن العرياض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله قال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي؛ فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ) (٢).

ومنع النبي ﷺ أتباعه عن سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدين لتفريطهم في حفظ كتابهم من التحريف وصيانة دينهم من الابتداع فقال: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا؛ فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق؛ فإنه لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني) (٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرأونه لم يُشَبَّ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: هو من عند الله ليشترتوا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم (٤).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٨٦٧.

(٢) رواه الترمذي في سننه، برقم ٢٦٧٦، وقال: حديث حسن صحيح، وهو في صحيح الجامع للألباني ٤٩٩/١ برقم ٢٥٤٩.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٣٣٨/٣، والدارمي (١/١١٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/٥) وغيرهم قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٨٤/١٣) "رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري ورجاله موثقون إلا ابن ماجه ضعيفاً" لكن الحديث له شواهد كثيرة لذلك حسنه الألباني في إرواء الغليل حديث رقم ١٥٨٩ (٦/٣٤).

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم ٢٥٣٩.

ورؤي عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أمرت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً. قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ وقال: (والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين) (١).

وهكذا فإن السلف رحمهم الله تعالى من الصحابة والتابعين وأتباعهم من أئمة الفقه والدين مجمعون على وجوب إتباع الكتاب والسنة، والاستغناء بهما في فهم أصول الدين وفروعه عما سواهما من المصادر، وكانت سيرتهم العملية شاهدة على حزمهم البالغ في التصدي بالرد والإنكار لكل بدعة تنشأ وكل بادرة انحراف في تلقي الدين وفهمه عما كان عليه الحال في العهد النبوي (٢).

إذا تقرر هذا فإن الانحراف قد دخل على منهج تلقي العقائد لدى بعض المسلمين من جانبين: الأول أخذ الدين من غير مصادره المعتمدة، الثاني الانحراف بالمصادر المعتمدة. ولنسلط الضوء فيما يلي على كل من هذين الجانبين في مبحث مستقل.

### المبحث الأول: أخذ الدين من غير مصادره المعتمدة:

المصادر المعتمدة من رب العالمين للدين الإسلامي هي الكتاب والسنة والإجماع، ووهي متوافقة مع الفطرة المستقيمة، والعقل السليم، وقد تواترت الدلائل على ذلك وتتابعت بحيث صار الرجوع إلى هذه المصادر والاعتماد عليها في تلقي العقيدة الصحيحة وشرائع الإسلام معلوماً من الدين بالضرورة، وهي محل اتفاق بين المسلمين (٣)، على اختلاف واسع بينهم في تقدير مدى الاعتماد على هذه المصادر وطريقة فهم الدين منها، على نحو ما يأتي الحديث عنه في المبحث الثاني.

(١) رواه أحمد في مسنده ٢٦٥/٤، وهو شاهد للحديث المذكور أعلاه.

(٢) انظر: "موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع" للدكتور إبراهيم الرحيلي ١/٨٠-٨٦.

(٣) لم ألتفت هنا إلى طائفة القرآنيين الذين يبنون السنة النبوية؛ باعتبارها طائفة غالية خارجة عن دائرة الإسلام بإجماع العلماء؛ ولو أنهم يأخذون بالقرآن حقاً للزمهم الأخذ بالسنة؛ لأن الله تعالى قد أمر بطاعة الرسول ﷺ في أكثر من سبعين موضعاً من القرآن. انظر عنهم "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" لخادم حسين إلهي بخش، مكتبة الصديق، الطائف.

وعلى هذا فكل ما ناقض تلك المصادر أو زاحمها فهو مصدر غير صالح لأخذ الدين منه؛ لأنه لا يجوز أخذ الدين من مصدر غير معتمد. وفيما يلي إشارة إلى المصادر غير المعتمدة التي كثر دخول الانحراف على عقائد المسلمين من المطالب التالية.

### المطلب الأول: الاعتماد على العقل وتقديمه على النقل :

للعقل دوره الأساس للوصول إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (طه: ١٢٨)، وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ (الفجر: ٥)، وهو الغريزة الفطرية التي ميّز الله بها العقلاء عن البهائم، وهو مناط التكليف في الشريعة الإسلامية؛ فالإسلام رعى دور العقل ومكائنه، ولم يرد في القرآن الكريم آية تدم العقل أو تزدره، ولكن وضعه في حدود إمكاناته وقدراته، وقد ضل قوم عند ما حكموا العقل وقدموه على الشرع. والمسلم الموقن يجعل معتقده المبني على الوحي المعصوم بشقيه الكتاب والسنة عمدة وأصلا يزن به الأفكار، ويرد لأجله النظريات والأفهام حال معارضتها له، ويجزم أن العقل الصريح لا يمكن أبدا أن يناقض الوحي المبين، كيف وقد حكم العقل حكما يقينيا قاطعا بصحة الوحي وعصمته، وأنه صادر من خالق العقل، ومعلمه أحكامه الأولية ومبادئه الفطرية؟!.

ولكن من لا يقدرّون الوحي حق قدره يقبلون القضية، فيجعلون العقل عمدة، والوحي تابعا لا متبوعا، فلا تُقبل أحكامه العقديّة إلا بعد تزكية العقل لها، وإذنه بها، فيصير الوحي على ذلك فضلة لا حاجة للناس به في معرفة عقائدهم، فحال هؤلاء - كما يقول أبو المظفر السمعاني<sup>(١)</sup> - كمن يقول: أشهد أن عقلي رسول الله!. ولهؤلاء حجة مشهورة في مسلكهم هذا، وهي أنهم يقولون: إن العقل هو أصل معرفتنا بالوحي، ولا يجوز تقديم الفرع على الأصل؛ وإلا لزم القدح في الأصل، فينهدم الأصل والفرع جميعا<sup>(٢)</sup>.

والحق أن هذا الكلام فيه مغالطة بينة؛ وذلك أن العقل عندما شهد بصحة الوحي شهد مع ذلك بعصمته، وأنه يمتنع عليه الخطأ، في حين أن العقل لم يشهد بعصمة نفسه مطلقا في جميع

(١) انظر: "الانتصار لأصحاب الحديث" لأبي المظفر السمعاني ص ٧٨، وأبو المظفر اسمه منصور بن محمد بن عبد الجبار، من أئمة الشافعية، توفي سنة ٤٨٩، انظر "طبقات الشافعية الكبرى" لابن السبكي: ٣٣٥/٥.

(٢) انظر: "التفسير الكبير" للفخر الرازي: ٥٢/٢.

أحكامه، ولا الوحي أعطى العقل هذه التزكية المطلقة، فلو قبلنا بتقديم العقل على الوحي لكان ذلك في حقيقته حكماً بتخطئة الوحي، فيعود هذا بالنقض على حكم العقل السابق بعصمة الوحي<sup>(١)</sup>. والمثل الذي يقرب ذلك: لو أن مُستفتياً سأل عامياً عن أعلم أهل بلده ليستفتيه، فذهب العامي به إليه، وقال له: هذا أعلم أهل بلدنا فاسأله، فلما سأل العالم وأجابه اعترض هذا العامي على الفتيا، فأعرض عنه المستفتي لكونه عامياً جاهلاً، فقال له هذا العامي: كيف تُعرض عن قولي وتُقدّم عليه كلام المفتي وأنا الذي دللتك عليه، ولولا أنا لم تعلم أنه مفتٍ؟!، فيقول له المستفتي حينئذ: أخذي بدلاتك عليه وتزكيتك إياه لا يلزم منه أن أقبل باقي أحكامك، كما أن تقديمي لكلام المفتي العالم على قولك لا يلزم منه القدح في دلاتك عليه وتزكيتك إياه<sup>(٢)</sup>.

فتبين أن الذي يعرف للوحي قدره يدرأ تعارضه مع صريح العقل أصلاً، ولا يجوز التعارض إلا بين وحي صريح وعقل غير صريح، أو بين عقل صريح ووحي مزعوم أو غير صريح، فيقدم حينها الصريح مطلقاً لا لكونه مجرد حكم عقلي، بل لصراحته وقطعيته وعدم صراحة المعارض له<sup>(٣)</sup>، وما عارض الوحي فهي ليست دلالة عقلية وإن زعم أصحابها ذلك، وإنما هي من جملة الأهواء قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠)، فهما طريقان لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله والرسول ﷺ باتباع الوحي، وإما اتباع الهوى وإن سماه أصحابه عقلاً أو كشافاً أو غير ذلك.

وهكذا فإن مقتضى الإيمان بالرسول عليهم السلام الاستيقان من أنهم لا يأتون أبداً بما يمنعه صريح العقل ويحكم بانتفائه، وإن كانوا كثيراً ما يأتون بما يعجز العقل عن معرفته ويختار له ويتعجب منه، من آيات الله التي لا تنقضي عجائبها<sup>(٤)</sup>، فالحق المقطوع به يقيناً هو ما جاء به الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٧٠).

(١) انظر: "درء تعارض العقل والنقل" لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧٠/١، ١٧١.

(٢) انظر المرجع نفسه: ١٣٨/١، ١٣٩.

(٣) انظر المرجع نفسه: ٧٩/١.

(٤) انظر المرجع نفسه: ١٤٨/١.

وبنظرة سريعة في الكتب العقديّة للمذاهب التي تقدّم العقل على النقل يدرك الباحث هذه الحقيقة<sup>(١)</sup>، فالمتفلسفة<sup>(٢)</sup> يناقض بعضهم بعضاً، والمتكلمون<sup>(٣)</sup> يناقضون المتفلسفة<sup>(٤)</sup>، ثم يناقض بعضهم بعضاً، فالمعتزلة<sup>(٥)</sup> منهم بين أئمتهم من المناقضات ما سطوروا به المجلدات<sup>(٦)</sup>، والأشعرية<sup>(٧)</sup> يناقضون المعتزلة في كثير من عقليّاتهم، مع اشتراكهم معهم في الثقة البالغة في العقل وتقديمه على النقل وسلوك طريق التأويل، ثم الأشعرية لهم أطوار يخالف فيها المتأخرون ما قرره المتقدمون<sup>(٨)</sup>، ومن هنا كان من الضروري استبعاد العقل من منصب القيادة المطلقة في معرفة أمور الغيب والعقائد، وتسليمها للوحي المعصوم الذي حكم العقل الصريح بصحته وعصمته، كما أنه من الضروري التمسك بالعقل الصريح خادماً للوحي المبين، وشاهداً على صحته، ومكذّباً ما يناقضه من الأوهام والخرافات<sup>(٩)</sup>.

### المطلب الثاني: اعتماد النقل غير الصحيح:

أهل السنة لا يعتمدون في عقيدتهم ودينهم إلا ما صح نقله عن النبي ﷺ؛ ولذا وضعوا قواعد في علم مصطلح الحديث تضبط من خلالها الروايات المنقولة، وقد انحرفت طوائف وفرق بسبب ما اعتمدوه من روايات غير صحيحة.

(١) قارن مثلاً بين كتب المعتزلة كـ"المغني في أبواب العدل والتوحيد" و"شرح الأصول الخمسة" للقاضي عبد الجبار المعتزلي وبين كتب الماتريديّة والأشعرية كـ"التوحيد" لأبي منصور الماتريدي و"الإرشاد" و"الشامل" للجويني و"نهاية العقول في دراية الأصول" للفخر الرازي، وانظر في ذلك مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥٦-٥١/٦.

(٢) طائفة من المنتسبين إلى الإسلام تبنت آراء فلاسفة اليونان وخصوصاً أرسطوطاليس وأدخلتها على بعض المسلمين بنوب إسلامي، من أشهرهم الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، انظر عنهم "الملل والنحل" للشهرستاني ١٥٨/٢ وما بعدها، "إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان" لابن القيم ٢٦٦/٢-٢٦٨.

(٣) هم المشتغلون بعلم الكلام، وهو علم يطلب به إثبات العقائد الإسلامية بالطرق العقلية دون الالتزام بالوحي وفهم السلف له، ومن أشهرهم المعتزلة والأشاعرة، انظر عنهم "أبجد العلوم" لصديق حسن خان ١١٠/٢-١١٢.

(٤) من أشهر ما ألف في ذلك "تهافت الفلاسفة" لأبي حامد الغزالي، وقد رد عليه الفيلسوف ابن رشد بكتاب سماه "تهافت التهافت"، كما ألف الشهرستاني "مصارعة الفلاسفة" وأجابه الطوسي بكتاب سماه "مصارعة المصارع".

(٥) مدرسة كلامية يجمعهم القول بالأصول الخمسة: التوحيد، العدل، المنزلة بين المنزلتين، الوعد والوعيد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قرروا هذه الأصول على خلاف منهج السلف، انظر عن أصولهم "شرح الأصول الخمسة" للقاضي عبد الجبار.

(٦) انظر عن آراء أئمتهم: "مقالات الإسلاميين" لأبي الحسن الأشعري ١٥٥/١ وما بعدها.

(٧) أتباع أبي الحسن الأشعري [٣٣٠]، وقد كان معتزلياً ثم تحول إلى عقيدة ابن كلاب ثم رجع إجمالاً إلى طريقة الإمام أحمد بن حنبل، ثم تطور المذهب من بعده على يد أبي المعالي الجويني [٤٥٠] والفخر الرازي [٦٠٦]، انظر "الفوائد المجتمعة في بيان الفرق الضالة والمبتدعة" لإسماعيل اليازجي ص ٣٣، ٣٤.

(٨) انظر عن تطور المذهب الأشعري "موقف ابن تيمية من الأشاعرة" للدكتور عبد الرحمن المحمود ص ٥٠٩ وما بعدها.

(٩) انظر ما يأتي عن تقديم العقل على النقل ص ٢٣.

ونحن نقصد هنا بالنقل ما نُقل إلينا من نصوص الوحي المعصوم، ونقصد بغير الصحيح منه ما لم تثبت صحة نقله عن مصدره حسب القواعد المقررة في علم مصطلح الحديث وفي علم التاريخ، وهي قواعد مستندة في الأصل إلى بدهيات فطرية وعقلية وحسية يُعرف بها صدق الأخبار من كذبها<sup>(١)</sup>.

وسواء جزمنا بكذب المنقول أو توقفنا في صحته فإنه لا يصح الاعتماد عليه في معرفة الاعتقاد الصحيح، أما ما دون الاعتماد كالاختبار والاعتضاد فالخطب فيه أيسر، فيجوز فيه استعمال ما لم يحتمل الكذب من الأخبار، مع التزام الإشارة إلى عدم صلاحيته للاعتماد، وعلى هذا جرى عمل السلف كما هو معلوم من التفاسير المأثورة، وكتب العقائد المسندة<sup>(٢)</sup>، فهم قد يروون فيها ما لم يبلغ درجة الاحتجاج، ويلتزمون بذكر أسانيد لها ليتبين حالها من روايتها، وهذا على سبيل الاعتضاد لا الاعتماد، وإلا فليس هنالك عقيدة سلفية مقررة تعتمد أو تنبى على روايات ضعيفة.

وعلى هذا فكل ما يتداوله أصحاب المذاهب التي تعتمد في عقائدها على المرويات دون أن يثبتوا صحة نقله عن النبي المعصوم فإنه يعد مصدرا من مصادر الانحراف العقدي.

ومن أوضح الأمثلة على هذا النوع من الانحراف الأحاديث، والآثار التي شُحنت بها كتب التراث لدى بعض الطوائف كالصوفية<sup>(٣)</sup> والشيعية<sup>(٤)</sup> وبعض المنتسبين إلى السنة<sup>(٥)</sup> وغيرهم دون أن تتوفر فيها أدنى الشروط المعتمدة لتوثيق المرويات، مع ما فيها من مناقضة لصريح القرآن

(١) وتسمى علم رواية الحديث، انظر عنه "مفتاح السعادة ومصباح السيادة" لأحمد بن مصطفى: ٥٢/٢، ٥٣.

(٢) مثل كتاب "السنة" لعبد الله بن أحمد، و "الشريعة" للأجزي، و "شرح أصول الاعتقاد" للآكائي، والإبانة لابن بطة.

(٣) مثل كتب الحكيم الترمذي وأبي القاسم القشيري وأبي حامد الغزالي وخصوصا كتابه "إحياء علوم الدين"؛ فهو على شهرته مشحون بالأحاديث الموضوعية والضعيفة، وقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٥٥/٦): وكلامه - أي الغزالي - في الإحياء غالبه جيد، لكن فيه مواد فاسدة: مادة فلسفية، ومادة كلامية، ومادة من ترهات الصوفية، ومادة من الأحاديث الموضوعية. اهـ. وقد عبر أبو حامد عن قلة درايته بعلم الحديث بقوله عن نفسه في آخر رسالته "قانون التأويل": (وبضاعتي في الحديث مزجاة)، وقد سرد ابن السبكي أحاديث الإحياء التي لم يجد لها إسنادا في ترجمة الغزالي من "طبقات الشافعية الكبرى": ٢٨٧/٦، وحكم العراقي على أحاديث الإحياء في كتابه "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار" المطبوع بهامشه.

(٤) مثل كتاب الأصول من الكافي للكليني الذي يعده الشيعة أصح كتب الروايات، والعجيب أن معاصري الشيعة ينوّهون بعدم وجود كتاب خاص بصحيح الأحاديث لديهم، وأن هذا من المرونة في مذهبهم والبعد عن الجمود؛ ليترك المجال بزعمهم للمجتهدين في كل عصر ليحددوا المرويات الصالحة، فإذا طولبوا بتمييز ما يرونه ثابتا عن أئمتهم مما هو منحول عليهم نكلوا!، مع أن عقائدهم المنحرفة مبنية على هذه المرويات المكذوبة عن آل البيت أو غيرهم.

(٥) من أمثلة كتب العقائد المسندة المشتملة على بعض الموضوعات كتاب "العظمة" لأبي الشيخ الأصبهاني.

الكريم والسنة النبوية الصحيحة الثابتة والعقل الصريح، مثل ما لدى الإمامية<sup>(١)</sup> من أكاذيب وافتراءات على النبي الكريم وآل بيته الطاهرين حول الإمامة والموقف من الصحابة<sup>(٢)</sup>، ومثل ما لدى المتصوفة من مرويات مفتراة حول حقائق التوحيد والولاية والكرامات<sup>(٣)</sup>، ومثل بعض المرويات الإسرائيلية الواردة في بعض كتب التفسير<sup>(٤)</sup>.

### المطلب الثالث: التقليد المجرد من الدليل:

أكثر بني آدم يقلدون في عقائدهم المختلفة من يتوهمون فيه العصمة من الخطأ، أو من يغلب على ظنهم أنه أقرب إلى الصواب، دون أن يكون لهم جهد عقلي في التأكد من صحة ما عليه من يقلدوهم، وإنما يسلمون بالأمر الواقع، وهو أنهم ولدوا في أحضان هذه الطائفة أو تلك، فيتمسكون بما يغدّيهم عليه أهلوههم ومربوهم سواء كان حقا موافقا للفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها، أو كان باطلا مخالفا للفطرة والوحي والعقل الصريح، كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف: ( ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه )<sup>(٥)</sup>، يعني يفسدان فطرته بتلقينه عقيدة فاسدة أو محرفة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يقل: يؤسلمانه؛ لأن الإسلام هو الفطرة<sup>(٦)</sup>.

ومما يدل على أن هذا حال أكثر بني آدم أنك تجد أتباع المذاهب والديانات يولدون وينشأون ويعيشون ويموتون على حال أسلافهم في الدين، سواء في ذلك علماءهم وعامتهم، ويندر أن تجد من يتحول عن دينه أو مذهبه من تلقاء نفسه، حتى يأتي من يحوله إما بالدعوة والإقناع، وإما بالقهر والإرغام.

(١) هم كل من عدا الزيدية من طوائف الشيعة، نُسبوا إلى الإمامة لاعتقادهم أنها منصب إلهي جاء النص عليه في حق عليّ وذريته. انظر عن فرقهم: "الفرق بين الفرق" لعبدالقاهر البغدادي ص ١٧ وما بعدها.

(٢) انظر مثلا "الأصول من الكافي" للكليني ١/١٧٧ وما بعدها.

(٣) انظر مثلا ما أورده ابن الجوزي في كتاب الموضوعات ٣/١٤٨-١٥٢ من أحاديث موضوعة عن صفة الأولياء وعددهم.

(٤) انظر: "الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير" للدكتور محمد أبوشهبة ص ٢٥٦-٣٠٥.

(٥) رواه البخاري ١/٤٥٦، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي...، حديث رقم ١٢٩٢، ومسلم ٤/٢٠٤٧، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث رقم ٢٦٥٨.

(٦) انظر: "درء تعارض العقل والنقل" لشيخ الإسلام ابن تيمية ٨/٤٤٤.



وطائفة من بني آدم ممن أعطوا مزيداً من الذكاء والفتنة يلحظون أن مجرد انتمائهم إلى طائفة معينة لا يستوجب كونها على الحق الذي لا يجوز خلافه، وإلا تعدد الحق وتناقض بعدد الطوائف ومذاهبها، وذلك ما تأباه الفطرة ويرفضه العقل السليم.

فقسم من هذه الطائفة يعزّ عليه الاعتراف بضلال طائفته، وتسفيه ما كان عليه الآباء والأجداد، فيستنجد بالتأويلات المتكلفة لتسويغ عقائده الباطلة ومحاولة التوفيق بينها وبين الوحي والعقل، ويستخدم المهارة الجدلية في إقناع بني طائفته بأنهم على شيء، وهذا حال المتعصبين من علماء الديانات المحرفة والمذاهب الفاسدة، وحال هؤلاء كحال من قال الله تعالى عنهم: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولُو عِثْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الزخرف: ٢١-٢٤).

وقسم آخر من هذه الطائفة يستهجن غش الناس في عقائدهم بمثل هذه التلفيقات، لكنه يجعل قضية الاعتقاد برمتها من باب الموروث الثقافي الذي يتنوع بتعدد الأمم والشعوب، ويجب احترامه لمجرد كونه موروثاً، تبعاً لاحترام الأمة التي تدين به، بغض النظر عن كونه حقاً أو باطلاً، موافقاً للأدلة الصحيحة أو مناقضاً لها، وهذه نظرة الليبراليين<sup>(١)</sup> والعلمانيين<sup>(٢)</sup> الذين يجعلون الدين من أساسه أمراً هامشياً في الحياة، لا يتجاوز التفاعل الشخصي بين الإنسان ومعتقدده.

وقسم ثالث ألهمه الله تعالى الصواب، فراح ينشد الحق موقناً بأنه محصور فيما جاء به الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرِّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ (النساء: ١٧٠)، فاستمسك بالكتاب والسنة مقتدياً بفهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباعهم من أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الذين زكاهم الله تعالى وشهد لهم النبي ﷺ بالفضل والخيرية، ففهموا مراد الله ومراد رسوله ﷺ من هذا الوحي المعصوم فحققوه علماً وعملاً، إيماناً وتطبيقاً، لأنهم قد تميزوا عن

(١) الليبرالية نهج غربي قوامه ضمان الحرية المطلقة للإنسان ما لم تصطدم بحرية الآخرين، انظر عنه "الموسوعة الفلسفية العربية" ١١٥٥/٢-١١٦٢، وسوف يأتي عنها تفصل في القسم الثاني.

(٢) العلمانية فلسفة غربية تقوم على الفصل التام بين الدين والحياة بمجالاتها المختلفة، انظر عنها "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة": ٦٧٩-٦٨٦، وسوف يأتي عنها تفصل في القسم الثاني.

جاء بعدهم إضافة إلى ما تقدم بمشاهدة التنزيل ومعاصرة الرسول ﷺ أو من عاصره، مع الأخذ من النبع حين نقائه وصفائه قبل مرحلة الاختلاط والعجمة اللسانية والفكرية، وقبل ظهور الفرق وفشو البدع، فهذا القسم الذي آثر الهدى على الهوى، والصواب على الأحاب، وهؤلاء الذين تكفل الله بهدايتهم وتوفيقهم، كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَفْوَاهُمْ ﴾ (محمد: ١٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ (مريم: ٧٦)، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٩)؛ ولذا يقول ابن رجب رحمه الله: " فالذي يتعين على المسلم الاعتناء به والاهتمام أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله، ثم يجتهد في فهم ذلك والوقف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق إن كان من الأمور العلمية، وإن كان من الأمور العملية بذل وسعه في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر، واجتناب ما ينهى عنه، فتكون همته مصروفة بالكلية إلى ذلك لا إلى غيره، وهكذا كان أصحاب رسول ﷺ والتابعون لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة" (١).

إذا تقرر هذا فإن من أعظم أنواع التقليد المجرد من الدليل التي ترتب عليها انحرافات عقديّة خطيرة ادعاء بعض الطوائف العصمة لمتبوعيههم سوى النبي ﷺ، وبنوا على ذلك حججهم أقوالهم ولزوم الأخذ بها، وعلى هذا عامة الشيعة الإمامية على اختلاف مذاهبهم (٢)، وهذا في حقيقته يؤول إلى إعطاء الأئمة منصب النبوة؛ لأن العصمة وما يترتب عليها من حجج أقوال المعصوم ولزوم الأخذ بها هي أخص خصائص النبوة والوحي، وبها يحصل مقصود النبوة (٣)، فمن ادعى العصمة بعد محمد ﷺ لغيره فهو في حكم من أنكر ختم النبوة به، وإن ادعى تسليمه بذلك.

ومما يدل على بطلان نسبة العصمة إلى أحد بعد الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء: ٥٩)، ( فأمر الله المؤمنين عند التنازع بالرد إلى الله والرسول،

(١) جامع العلوم والحكم ص ٧٩.

(٢) انظر: "الملل والنحل" للشهرستاني: ١/٤٦١، و"منهاج الكرامة في إثبات الإمامة" لابن المطهر الحلي ص

(٣) انظر: الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/٣٣٥.

ولو كان للناس معصوم غير الرسول ﷺ لأمرهم بالرد إليه، فدل القرآن على أنه لا معصوم إلا الرسول ﷺ (١).

ومن أسوأ الآثار المترتبة على هذا الانحراف اعتبار مخالفة الأئمة المدعاة لهم العصمة كمخالفة النبي ﷺ، فيكون من خالفهم من الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين وولاتهم ضلّالا بهذا الاعتبار، وربما بلغ الأمر حد تكفيرهم (٢)، ولا يخفى ما أدى إليه هذا الانحراف من شق عصا المسلمين وتفطيت وحدتهم وإشاعة الكراهية والبغضاء بينهم.

وكما وقع هذا الغلو في المتبوعين لدى من يدعون العصمة في أئمتهم وقع كذلك بدرجة أخف لدى بعض المتصوفة ممن يعتقدون الحفظ الإلهي لشييوخهم، كما وقع لدى من يغلون في طاعة الولاية (٣).

### المطلب الرابع: الكشف والإلهام:

يعتقد بعض أصحاب الديانات الوضعية والفلسفات الروحانية ومن تأثر بهم من المتصوفة أن الطريق الأمثل لتلقي العلم الإلهي هو ممارسة الرياضات الروحانية حتى تزكو النفس وتصفو فتتكشف لها المعارف الإلهية انكشافا تلقائيا بقدر زكائها وصفائها، وتنطبع الحقائق بعد ذلك في قلب العارف دون التسبب بشيء من وسائل التعلم والفهم المعروفة، ولسان حال هؤلاء يقول: حدثني قلبي عن ربي (٤).

وقد تأول من ينتسب إلى الإسلام من أصحاب هذا المنهج قصة موسى مع الخضر عليهما السلام المذكورة في سورة الكهف (٥)، وقالوا: إن الخضر لم يكن نبيا بل كان وليا، وعلمه علم مكاشفة لا علم وحي، وسموه العلم اللدني، أخذنا من قوله تعالى عن الخضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥)، وجعلوه مقدما على علم الوحي وحاكما عليه، وسموه علم الحقيقة،

(١) "منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية" لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/٣٨١.  
(٢) انظر: إجماع الإمامية على تكفير من لم يؤمن بالأئمة وعصمتهم، وتنزيله منزلة من جحد النبوة في كتاب "الاعتقادات" لابن بابويه القمي ص ١١١، و "تلخيص الشافي" للطوسي: ٤/١٣١، و "بحار الأنوار" للمجلسي: ٢٦٦/٨، نقلا عن "أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، عرض ونقد" للدكتور ناصر الفقاري.

(٣) انظر: "منهاج السنة": ٢/٤٧٧، ومجموع الفتاوى: ١٩/٧٠.

(٤) انظر في هذا ما نقله المناوي عن ابن عربي في "فيض القدير" ٥/٤٠١، وكذا ما قرره أبو الثناء الألويسي في تفسيره "روح المعاني" ٢٣/٦٥، وانظر نقده في "تلبيس إبليس" لابن الجوزي ص ٤٥٠، و"إغاثة اللهفان" لابن القيم ١/١٢٣.

(٥) انظر: "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" للحافظ ابن حجر العسقلاني ١/٢٢٢، ٢٢١.

وسموا علم الوحي علم الشريعة، وزعموا أن مرتبة الولاية أفضل من مرتبة النبوة<sup>(١)</sup>، مستدلين على ذلك بأن موسى تعلم من الخضر، وأن الخضر كان يخالف الشريعة ويوافق الحقيقة، وبنوا على ذلك تسويغ مخالفة الشرع لمن يزعمون له الولاية، بل جعلوا ذلك شاهدا على كرامته.

والحق أن أعظم الكرامة لزوم الاستقامة على طريقة الأنبياء، وأعظم الولاية في الإيمان والتقوى كما قال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ (يونس: ٦٢، ٦٣)، وأما الخضر فالحق أنه كان نبيا كموسى، وما كان يفعل شيئا مما ذكر في القصة إلا بوحي من الله، كما دل عليه قوله تعالى في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ (الكهف: ٨٢)، وكما جاء في خبر الخضر مع موسى في صحيح البخاري<sup>(٢)</sup> أنه قال له: يا موسى إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: (كان بعض أكابر العلماء يقول: أول عقدة تُحل من الزنادقة اعتقاد كون الخضر نبيا؛ لأن الزنادقة<sup>(٣)</sup> يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي، كما قال قائلهم:

مقام النبوة في برزخ فُويق الرسول ودون الولي<sup>(٤)</sup>

وأما ما ذكره من العلم اللدني فقد نص القرآن على أنه ثابت للنبي ﷺ، وأنه هو العلم الموحى للأنبياء والرسل، قال سبحانه: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (طه: ٩٩)، وقال: ﴿الرَّ كُنْتُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّي حَكِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (هود: ١)، وبذلك تندحض حججهم التي أسسوا عليها منهجهم في تلقي العقيدة، وهولوا بها على البسطاء والسذج حتى هابوا الإنكار عليهم بمقتضى الشرع.

### المطلب الخامس: الرؤى والمنامات:

(١) انظر: "روح المعاني" للألوسي ١٧٨/١١.

(٢) (١٧٥٧/٤)، كتاب التفسير، باب {فلما جاوزا قال لفتاه..}، حديث رقم ٤٤٥٠.

(٣) الزنادقة هم الطاعنون في الإسلام من المنتسبين إليه، ولهم جذور قديمة، انظر عن فرقههم "التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع" للملطي ص ٩١.

(٤) "الزهر النضر في أخبار الخضر" للحافظ ابن حجر ص ٦٧.

جاء في الحديث أن ما يراه النائم ينقسم إلى ثلاث حالات: إما أن يكون من الله، أو حديث نفس، أو من الشيطان<sup>(١)</sup>، والفرق بين هذه الثلاث يظهر بقرائن تحتف بالرؤيا، فما يراه النائم من الأمور المختلطة المتصلة بتفكيره قبل نومه تُسمى حديث نفس، وهي أضغاث أحلام لا عبرة بها، أما ما يراه النائم من الأمور المحزنة والفاجعة فهي من الشيطان يؤذي بها بني آدم، وأما ما يراه من الأمور المنتظمة المشتملة على الخير فهي الرؤيا الصالحة<sup>(٢)</sup>، ولا تكون مصدرا للعلم الإلهي إلا من الأنبياء؛ فإن رؤاهم معصومة، ومن سواهم لا تتجاوز رؤاهم مهما كانت صالحة أن تكون مبشرات ومنذرات، لا ينبني عليها عقائد ولا أحكام شرعية، وإنما يعتبر بها الرائي في خاصة نفسه بما لا يخالف الشرع<sup>(٣)</sup>.

فإذا زعم زاعم مثلاً أن النبي ﷺ جاءه في المنام وأرشده إلى أمر ما، فعليه أن يعرض ذلك على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ الثابتة عنه بالنقل الصحيح، فإن لم يكن في رؤياه ما يعارضهما كأن يأمره بالصدقة مثلاً، أو بزيارة مريض ونحو ذلك من وجوه البر والإحسان جاز له أن يعمل بمقتضى رؤياه ولم يجب عليه ذلك، أما إن زعم أنه أمره بما يعارض الشرع كبدعة اعتقادية أو عملية فإنه يحرم عليه العمل بهذه الرؤيا، ويجزم أن الذي رآه ليس رسول الله ﷺ؛ فإنه لا يأمر إلا بخير<sup>(٤)</sup>، وقد أكمل الله تعالى له الدين قبل موته، فلا يحتمل إضافة بعد موته، لا خاصة ولا عامة، فالكل يدخل في قوله ﷺ: (كل بدعة ضلالة)<sup>(٥)</sup>، ولم يستثن عليه الصلاة والسلام من ذلك رؤيته في المنام.

(١) انظر صحيح البخاري حديث رقم ٦٦١٤، وصحيح مسلم حديث رقم ٢٢٦٣.

(٢) انظر: "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" لابن حجر العسقلاني: ٤٠٧/١٢، ٤٠٨.

(٣) انظر: "الاعتصام من البدع" للشاطبي: ٢٦٠/١.

(٤) انظر: "الاعتصام": ٢٦١/١، ٢٦٢، ومن أمثلة ذلك قول محي الدين ابن عربي الصوفي في أول كتابه "فصوص الحكم": رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أديتها في العشر الآخر من المحرم سنة ٦٢٧ بمحروسة دمشق وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب، فقال لي: هذا كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله..!، ومعلوم أن هذا الكتاب طافح بمعتقد وحدة الوجود الذي هو غاية في الكفر الصريح. انظر الفصوص مع شرح القاشاني ص ٩، ط ٣، ١٤٠٧، مكتبة البابي بمصر، وانظر مثلاً آخر في "طبقات الشافعية الكبرى" لابن السبكي: ٢٢٨/٦-٢٣٧، فيه أن الرائي قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم كتاب "قواعد العقائد" لأبي حامد الغزالي كاملاً؛ معه أنه على منهج المتكلمين المخالف لمنهج السلف، وفي ٢٥٩/٦ من الطبقات رؤيا أخرى تزكي كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي، مع ما فيه من المآخذ التي سبقت الإشارة إليها ص ١٢ حاشية ٣.

(٥) جزء من حديث رواه مسلم ٥٩٢/٢، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم ٨٦٧.

وأما قوله ﷺ: ( من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي )<sup>(١)</sup>، فهو خاص بمن قابله في حياته ورآه وعرف صورته، فهذا هو الذي يستطيع أن يجزم أن صورة من رآه مطابقة لصورة رسول الله ﷺ، أما من لم يره ممن جاء بعده فلا يملك إلا الظن بمقاربة صورة من رآه لما عرفه بالتعلم من صفة رسول الله ﷺ، ولا يكفي الاعتماد على مجرد قول المرئي في المنام: إني رسول الله، أو أن يقع في نفس الرائي أن المرئي هو رسول الله، أو نحو ذلك، وعلى تقدير أن الحديث يشمل الذين لم يروه في حياته فإن اشتغال الرؤيا على ما يخالف الكتاب والسنة قرينة قاطعة على أن المرئي ليس رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>.

## المبحث الثاني: الانحراف بالمصادر المعتمدة فهماً واستدلالاً:

إذا كانت المصادر غير المعتمدة في استقاء العقائد قد أدت إلى انحرافات عقدية كثيرة فإنها لم تكن المنتج الأكبر لهذه الانحرافات، بل غالب الانحرافات ترتب على الرجوع إلى المصادر الصحيحة المعتمدة لكن بمنهج منحرف في الفهم والاستدلال، وذلك ما يجعل هذا النوع أشدّ خطراً؛ فطالب الحق غالباً ما ينفر من أخذ معتقده من مصدر مخالف أو مزاحم للوحي المبين، لكنه قد ينخدع بمنهج يوهم صاحبه أنه ملتزم بالمصادر الصحيحة، بل على فهم السلف ومنهجهم، وأن مخالفه هو الزائغ عن طريقتهم، المشاق لسبيلهم!

وفيما يلي عرض لملامح هذا المنهج الخادع وأخطر لوازمه وآثاره في المطالب التالية.

### المطلب الأول: التأويل المنحرف لنصوص الكتاب والسنة:

وردت كلمة "التأويل" في الكتاب والسنة وكلام السلف بمعنيين اثنين لا ثالث لهما<sup>(٣)</sup>، أولهما: التفسير، كما في قوله تعالى: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ (يوسف: ٣٦)، وقوله: ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ ﴾

(١) رواه البخاري حديث رقم ٦٥٩٢، ومسلم حديث رقم ٢٢٦٦.

(٢) انظر "الاعتصام": ٢٦٢/١، ٢٦٤، وللعلماء أقوال كثيرة في معنى الحديث راجعها في فتح الباري ٣٨٤/١٢، ٣٨٥.

(٣) انظر: "الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة" لابن القيم ١٧٥/١-١٧٨.

مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿١٠٠﴾ (يوسف: ١٠٠)، وثانيهما: وقوع المخبر به وتحققه، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ (الأعراف: ٥٣).

ثم حدث بعد عهد السلف الاصطلاح على معنى ثالث للتأويل هو: صرف اللفظ عن ظاهره الحقيقي إلى معنى آخر مجازي<sup>(١)</sup>، واشترط أصحاب هذا الاصطلاح لصحة التأويل بهذا المعنى وجود دليل صارف للفظ عن المعنى المعهود المتبادر للذهن إلى معنى آخر محتمل، وجعلوا وجود هذا الدليل من عدمه فارقا بين التأويل المحمود والتأويل المذموم الذي حقيقته تحريف الكلم عن مواضعه.

وكان الحامل على ابتداع هذا المفهوم الجديد للتأويل محاولة مبتدعيه التوفيق بين ما اعتبروه مقررات عقلية قطعية في معرفة الله وصفاته وأفعاله وبين ما يخالفها من ظواهر نصوص الكتاب والسنة.

وقد تمثل ذلك أكثر شيء في الصفات الإلهية التي تواترت النصوص على إثباتها لله تعالى، واعتبرها أهل التأويل مصادمة لما توهموه قواطع عقلية تقتضي ألا يتصف الله تعالى بصفة وجودية على الحقيقة، أو أن يتصف ببعض الصفات دون بعض، بحسب درجاتهم في تقدير الكمال الواجب لله تعالى وتفسيره، ولا يسعهم أن يخطئوا النصوص، ففزعوا إلى صرف النصوص عن ظواهرها الدالة عليها بمقتضى الخطاب العربي المبين، وسموا ذلك تأويلا، واعتبروه طريقا شرعيا. وتذرع أصحاب هذا المسلك إلى تقريره ببعض النصوص التي زعموا ضرورة صرفها عن ظاهرها وإلا لزم اعتقاد الكفر، نحو قوله تعالى عن سفينة نوح: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر: ١٤)، وقوله عن موسى: ﴿وَلِنُصَنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩)، ونحوها من الآيات التي زعموا أن ظاهرها يدل على الكفر!<sup>(٢)</sup>

والحق أن الألفاظ الواردة في أمثال هذه النصوص لا يتبادر منها إطلاقا المعنى المحذور؛ وذلك أنها تدل على المعنى المراد من خلال السياق الذي جاءت فيه، ولا تحتل أثناءه ما

(١) انظر: "البحر المحيط في أصول الفقه" للزركشي ٢٧/٣.

(٢) يقول أحمد الرفاعي [ت ٥٧٨] كما في كتابه "البرهان المؤيد" ١٤/١: وصونوا عقائدكم من التمسك بظاهر ما تشابه من الكتاب والسنة لأن ذلك من أصول الكفر. ا. هـ، وقد كرر هذه الكلمة الشنيعة الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين (١٠/٣) عند تفسير قوله تعالى: {ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا} {الكهف: ٢٣}، وانظر نقد ذلك في "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للعلامة الشنقيطي ٢٦٥/١-٢٧٣.

تحتمله إذا جاءت منفردة أو في سياق آخر<sup>(١)</sup>. فالزعم مثلا أن قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يدل ظاهره على أن السفينة تجري في داخل عين الله التي هي صفة ذاتية له، وبها تتعلق صفة البصر، زعم باطل؛ وذلك أن كل عربي فصيح يسمع هذه الآية يدرك أن المراد حفظ الله لأصحاب السفينة، ولا يخطر بباله أصلا المعنى الذي زعموا أنه مدلول ظاهر الآية، وكفر بعضهم بمقتضاه من يأخذ بظواهر آيات الصفات<sup>(٢)</sup>.

كما أن ادعاء معنى للفظ مغاير لما يحتمله السياق داخل في تحريف الكلم عن مواضعه، فدلالة لفظة "يد" مثلا في قوله تعالى لإبليس: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ (ص: ٧٥) لا تحتمل بمقتضى السياق والتركيب اللغوي غير اليد الحقيقية التي يكون بها القبض والبسط، بخلاف ورودها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ (يس: ٧١)، فهي بمقتضى السياق والتركيب اللغوي تحتمل الدلالة على القدرة والنعمة<sup>(٣)</sup>.

ولو أن الذين يسلكون مسلك التأويل اقتصروا على قرينة السياق في الصارف عن الظاهر الذي زعموا أنه محذور لهان الأمر، وصار الخلاف لفظيا أو قريبا من اللفظي، وانحسر في تحديد مفهوم الظهور في الألفاظ، وهل يؤخذ باعتبار ورودها في السياق أم باعتبار انفرادها.

لكن الخطير أنهم غالبا ما يعولون على القرينة العقلية وحدها، كما زعموه في المثال المشهور لتأويلاتهم: وهو تأويل الاستواء بالاستيلاء في قوله تعالى في ست آيات من كتابه: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ (الأعراف ٥٤، يونس ٣، الرعد ٢، الفرقان ٥٩، السجدة ٤، الحديد ٤)، مع أن تأويل الاستواء بالاستيلاء من الكذب الصريح على اللغة<sup>(٤)</sup>، كما أن ادعاء استحالة الاستواء على الله تعالى من الكذب الصريح على العقل<sup>(٥)</sup>.

وعلى هذا فإن أهل التأويل يفتحون على الإسلام باب شر عظيم، يلزم منه لوازم غاية في الشناعة تدل على بطلان مسلكهم، منها:

- (١) انظر: "مختصر الصواعق المرسله" لابن الموصلي ص ٣٢٢.
- (٢) انظر: "الصواعق المرسله" لابن القيم: ١/ ٢٥٤-٢٦٠.
- (٣) انظر: "الصواعق المرسله" لابن القيم ١/ ٢٦٩.
- (٤) انظر: "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي ٥/ ٢٨٢، ٢٨٣.
- (٥) انظر: "بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية" لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥٣٣/٢.



١- أنهم يفتحون باب التأويل الباطني لجميع عقائد الإسلام وشرائعه، فلا يستطيعون الرد على من يؤول نصوص المعاد والجنة والنار، بل ونصوص الصلاة والزكاة والصيام والحج؛ فإن الباطنيين لن يعدموا قرينة عقلية يدعونها يسوغون بها تحريفاتهم<sup>(١)</sup>.

٢- اتهام نصوص الكتاب والسنة بأن ظواهرها تدل على الكفر، بل تبالغ في تقريره.

٣- أن القرآن والرسول لو لم يوجد لكان أسلم لعقائد الناس؛ فإن أكثرهم أخذوا بالظواهر.

٤- ألا يكون القرآن ميسراً للذكر، بل مُعسراً مُلغزاً يلتبس الحق فيه بالباطل.

٥- أن يكون النبي ﷺ قد جهل الحق، أو علمه وكتمه، أو أنه بلغه لكن السلف تواطأوا على كتمانها أو تضييعه وإهماله<sup>(٢)</sup>. وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم<sup>(٣)</sup>.

فهذا هو الانحراف الأعظم بالمصادر الصحيحة للعقائد عن جادتها، وما أذكره بعد إنما هو دعامات رسّخ بها أصحاب التأويل منهجهم، ووظّفوها لتفويت دلالات نصوص الكتاب والسنة على كثير من الأصول والمسائل العقديّة كما فهمها السلف الصالح.

### المطلب الثاني: دعوى أن الدلالات اللفظية لا تفيد اليقين:

يزعم أصحاب منهج التأويل أن الدلائل اللفظية لا تفيد اليقين، وإنما تفيد الظن، فلا يُعتمد عليها في تقرير العقائد، وقد عبّر عن هذا وبرّره الفخر الرازي<sup>(٤)</sup> بقوله: (الدلائل اللفظية لا تكون قاطعة ألّبتة؛ لأن كل دليل لفظي فإنه موقوف على نقل اللغات، ونقل وجوه النحو، والتصريف، وموقوف على عدم الاشتراك، وعدم المجاز، وعدم التخصيص، وعدم الإضمار، وعدم المعارض النقلية والعقلية، وكل ذلك مظنون، والموقوف على المظنون أولى أن يكون مظنوناً، فثبت أن شيئاً من الدلائل اللفظية لا يكون قاطعاً)<sup>(٥)</sup>.

ولا ينقضني العجب من مسلم يقرأ قوله تعالى عن القرآن: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (الجاثية: ٦)، وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

(١) انظر: التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٣-٤٠.

(٢) انظر هذه اللوازم مفصلة في نص مهم لشيخ الإسلام ابن تيمية نقله عنه تلميذه ابن القيم في الصواعق المرسلّة ٣١٤-٣١٦/١.

(٣) انظر: "المحصل في علم الأصول" للفخر الرازي: ٢٤٦/١.

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين البكري، فخر الدين، إمام الأشاعرة في وقته، متبحر في العلوم العقلية، توفي سنة ٦٠٦، انظر "طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبه: ٦٥/٢.

(٥) "التفسير الكبير" للفخر الرازي ١٤٧/٧، وانظر "أساس التقديس" له ص ١٣٧، و "معالم أصول الدين" له أيضاً ص ٢٥، و "المواقف" للإيجي ص ٢٠٨، ٢٠٩، و "شرح المقاصد" للفتاوانبي: ٥٣/١، ٥٤.

(المرسلات: ٥٠)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ۗ هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٣)، وقوله: ﴿هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ٢٠)، مع قوله تعالى عن الكفار ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) ﴿يونس: ٣٦، ٣٧﴾، وقوله عنهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ (النجم: ٢٣)، وقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم: ٢٨)، ثم يتدع هذا القانون الذي يقضي على جميع دلائل الكتاب والسنة بالظنية، ويسلبها وصف اليقينية، فيبني على ذلك عنده عدم أهليتها لإثبات العقائد اليقينية!

ومراد أصحاب هذا القانون في أخف الاحتمالات أن دلائل الكتاب والسنة لا يحصل بها اليقين بمراد الله ورسوله، ولو حصل منها اليقين بذلك لحصل اليقين بأنه الحق؛ لعصمة الوحي، فهذا المراد وإن لم يقدح في تصديق الوحي فهو مفضٍ إلى الإعراض عنه وعدم التحاكم إليه وعزله التام عن وظيفة الهداية، خصوصا إذا انضم إلى ذلك تقديم العقل عليه<sup>(١)</sup>، وكفى بهذا زاجرا للمسلمين عن الرجوع في عقائدهم إلى أصحاب هذا المنهج، وحاملا إياهم على نبذ أمثال هذه المقولات.

### المطلب الثالث: القول بالمجاز:

المجاز مصطلح لغوي حادث أطلقه واضعوه على استعمال اللفظ في غير ما وضع له، بأن يريد المتكلم بألفاظه المعاني البعيدة التي لا تتبادر إلى ذهن السامع إلا بقرائن تنبئه إلى أن المعنى المتبادر من اللفظ غير مراد للمتكلم، وأطلقوا في مقابل ذلك مصطلح الحقيقة على ما وضع له اللفظ أصلا، وهو المعنى المتبادر من اللفظ حال انفراده، فمثلا إذا قلت: رأيت أسداً، تبادر إلى ذهنك الحيوان المفترس المعروف بهذا الاسم، فإذا قلت: رأيت أسداً يضرب بالسيف، دلت قرينة

(١) انظر: "الصواعق المرسلات" لابن القيم: ٦٣٥/٢، وقد أسهب رحمه الله في هذا الكتاب النفيس في مناقشة قانون الرازي هذا ونقضه، ملخصا ردود شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية" على هذا القانون ونحوه من أصول الجهمية.

الضرب بالسيف أنك لم ترد هذا المعنى الحقيقي للفظ أسد، وإنما أردت المعنى المجازي، وهو الرجل الشجاع<sup>(١)</sup>.

والحقيقة أن هذه المسألة اللغوية البلاغية ما كان لها أن تُقحم في مسائل الاعتقاد لولا توظيف أصحاب منهج التأويل لها في نفي حقائق الصفات الإلهية الواردة في القرآن والسنة، وادعائهم أنها من المتشابه الذي لا يجوز اعتقاد ظاهره، على نحو ما سبقت الإشارة إليه<sup>(٢)</sup>.

ومعلوم أن هذه المسألة لو جاز وقوعها في اللغة لم يلزم أن تقع في القرآن، ولو جاز وقوعها في القرآن لم يلزم وقوعها في آيات الصفات الإلهية، فما كل أسلوب مستعمل في اللغة يجري استعماله في القرآن؛ وذلك أن القرآن كتاب هداية وبيان، ميسر للذكر، غير ذي عوج، فصل ليس بالهزل، ومن الأساليب اللغوية المستعملة في الشعر والنثر بحسب أغراض الكلام ما يتعارض مع هذه الخصائص القرآنية، كالإلغاز والتعمية وتجاهل العارف والغلو والإغراق ونحوها من الأساليب البلاغية المعروفة التي يتنزه عنها الخطاب القرآني<sup>(٣)</sup>، فادعاء دخول المجاز في أهم المعاني القرآنية وهي الصفات الإلهية التي كثر ضلال بني آدم فيها يتنافى مع اصطلاح القرآن بوظيفة الهداية التامة والبيان الشافي، ويقلب الأمر إلى ضد ذلك من الإضلال والغموض وإيقاع المستمعين في الحيرة والاختلاف.

ومن هنا أدرك علماء السنة خطورة ادعاء المجاز في نصوص الصفات الإلهية، وبالغوا في إنكار ذلك، والتحذير من تحايل أصحاب منهج التأويل بالمجاز للتخلص من دلالات نصوص الكتاب والسنة على حقائق الاعتقاد<sup>(٤)</sup>.

### المطلب الرابع: دعوى أن أخبار الآحاد لا تفيد العلم:

أخبار الآحاد في مصطلح المحدثين هي كل ما لم يبلغ درجة التواتر، والخبر المتواتر هو ما يرويه جمع يمتنع بمقتضى العادة تواطؤهم على الكذب في جميع طبقات السند<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر "الخصائص" لابن جني: ٤٤٢/٢.

(٢) ص ٢٠، وانظر: "أساس التقديس" للرازي ص ١٤٣.

(٣) انظر تفصيل هذه الأساليب في "منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز" للعلامة محمد الأمين الشنقيطي ص ١٠-٣٢.

(٤) ومن أبلغ ما كتب في ذلك ما خصصه العلامة ابن القيم لمناقشة قضية المجاز في الصفات الإلهية من كتابه العظيم "الصواعق المرسلات"، انظر "مختصر الصواعق المرسلات" لابن الموصلي ص ٢٣١ وما بعدها.

(٥) انظر: "الكفاية في علم الرواية" للخطيب البغدادي ص ١٦، ١٧.

ودعوى أن أخبار الأحاد لا تفيد العلم حيلة أخرى ابتدعها أصحاب منهج التأويل للتخلص من دلالات الأحاديث النبوية؛ فبعد أن طعنوا في الدلالات القرآنية بالتأويل والقول بالمجاز، ابتدعوا هذه البدعة في الطعن في ثبوت الأحاديث، وذلك لأن دلالات الأحاديث تميزت عن الدلالات القرآنية بمزيد من التأكيد المفصل على المعنى المراد، بحيث فوّت على أصحاب منهج التأويل استعمال حيلة المجاز في التنصل من تلك الدلالات، إلا على وجه من التأويل الباطني لا ينطلي على مسلم سليم العقل والفضيلة واللسان.

وقد أشار إلى هذه المزية للدلالات الحديثية بعض كبار الصحابة، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن؛ فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله<sup>(١)</sup>. ورؤي هذا أيضا عن علي رضي الله عنه<sup>(٢)</sup>.

وأخرج ابن سعد في الطبقات من طريق عكرمة عن ابن عباس أن علي بن أبي طالب أرسله إلى الخوارج، فقال: اذهب إليهم فخاصمهم، ولا تحاجّهم بالقرآن؛ فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة<sup>(٣)</sup>.

وأخرج من وجه آخر أن ابن عباس قال: يا أمير المؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله منهم؛ في بيوتنا نزل. قال: صدقت، ولكن القرآن حمّالٌ ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاجّهم بالسنن؛ فإنهم لن يجدوا عنها محيضا. فخرج إليهم فحاجّهم بالسنن، فلم يبق بأيديهم حجة<sup>(٤)</sup>. ورؤي أن ابن عباس هو الذي نصح عليا بذلك، فعن الأوزاعي قال: خاصم نفر من أهل الأهواء علي بن أبي طالب فقال له ابن عباس: يا أبا الحسن، إن القرآن ذلولٌ حمولٌ ذو وجوه، تقول ويقولون، خاصمهم بالسنة؛ فإنهم لا يستطيعون أن يكذبوا على السنة<sup>(٥)</sup>.

ولنعرض مثلا تطبيقيا واحدا على ما ذكره الصحابة رضي الله عنهم، فالسلف رحمهم الله تعالى يثبتون بالإجماع رؤية المؤمنين ربهم في الجنة<sup>(٦)</sup>، وأنها أعظم نعيم يتلقونه، ويستدلون على هذه العقيدة بقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣)، وقوله عن

(١) رواه الدارمي في سننه حديث رقم ١١٩.

(٢) رواه اللالكائي في "اعتقاد أهل السنة والجماعة": ١٢٣/١، رقم ٢٠٣.

(٣) انظر: "مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة" للسيوطي ص ٥٩.

(٤) انظر الموضوع نفسه.

(٥) رواه الخطيب في "الفيح والمنتقى": ٥٦٠/١.

(٦) انظر: "الإبانة عن أصول الديانة" لأبي الحسن الأشعري ص ٣٥ وما بعدها، و "شرح العقيدة الطحاوية" لابن

أبي العز الحنفي ص ٢٠٤-٢٠٦.

الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (المطففين: ١٥)، ويستدلون أيضا بقوله ﷺ: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته) <sup>(١)</sup>، وبتفسير النبي ﷺ للزيادة في قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: ٢٦)، بأنها رؤية المؤمنين ربهم في الجنة <sup>(٢)</sup>.

والمعتزلة ومن وافقهم ينكرون رؤية المؤمنين العيانية لربهم غاية الإنكار، ويجعلونها مقتضية التجسيم والتشبيه المنافي كماله وعظمته بزعمهم، ويقولون النظر في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بانتظار رحمة الله، ويقولون حجب الكفار عن ربهم بأنه حجبهم عن رحمته، أما الزيادة في الآية الأولى فيجعلونها زيادة في النعيم، ولا يأخذون بدلالة الحديث الذي يفسرها <sup>(٣)</sup>.

ثم يؤيد نفاة الرؤية موقفهم هذا بإيراد قوله تعالى في بيان عظمته: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، وقوله تعالى لموسى: ﴿لَنْ نَرَىٰكَ﴾ (الأعراف: ١٤٣)، وما ذكره تعالى عن قوم موسى عليه السلام أنهم قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥) <sup>(٤)</sup>.

ومع أن دلالة الآيات على إثبات الرؤية شبه صريحة فأنت تلاحظ هنا أنها ليست في حسم المسألة كالحديثين الذين أشرنا إليهما، وإذا كان لنفاة الرؤية من شبهة في الآيات التي توهموا فيها ما يدل على أن الرؤية العيانية ممتنعة على الله تعالى، فإن الحيلة ستعييهم في الجواب على دلالة الحديثين، بقوله "عياناً" كما جاء في بعض الروايات، وخصوصاً قوله ﷺ: (إنكم سترون ربكم)، وتأكيده أن الرؤية المقصودة هي الرؤية العيانية بقوله: (كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته)، فشبه الرؤية بالرؤية تأكيداً لذلك.

والمقصود أن أصحاب منهج التأويل فطنوا لهذه المزبة في السنن، وضاقوا ذرعاً بكثرة ما يورده منها من ينتصر لمنهج السلف في العقائد، فزعموا لدعوى جديدة تخص الأحاديث النبوية هذه المرة، وهي زعمهم أنها أخبار آحاد لا يُستفاد منها اليقين، وإنما تفيد الظن، فلا يُعتمد عليها في تقرير العقائد اليقينية.

(١) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٦٩٩٧، ومسلم حديث رقم ٦٣٣.

(٢) انظر صحيح مسلم حديث رقم ١٨١.

(٣) انظر: "شرح الأصول الخمسة" لعبدالجبار بن أحمد ص ٢٣٢ وما بعدها.

(٤) انظر: "الكشاف" للزمخشري [٥٣٨]: ١٤٤/٢-١٤٦.

والعجيب أن كثيرا من هذه الأخبار التي ادعوا ظنيتها لكونها آحادا هي في الواقع متواترة لفظا أو معنى، ومن ذلك أحاديث إثبات الرؤية؛ فقد رواها نحو ثلاثين صحابيا<sup>(١)</sup>، وكذا حديث نزول الرب جل وعلا<sup>(٢)</sup>، وكذا أحاديث عذاب القبر والشفاعة والحوض وتكليم العباد يوم القيامة والعلو والعرش<sup>(٣)</sup>، وهذا وحده كفيلا بتفويت مقصودهم من هذه الدعوى. والحق أنه لا يجوز نبذ دلالة الأحاديث الصحيحة في مجال العقائد ولو كانت آحادا للأمر التالية<sup>(٤)</sup>:

- ١- أنها موافقة للقرآن مفسرة له، ومفصلة لمجمله، وموافقة كذلك للأحاديث المتواترة.
- ٢- أنها تفيد اليقين إذا احتفت بها القرائن.
- ٣- أن كون الشيء يقينيا أو ظنيا أمر نسبي إضافي لا يجب الاشتراك فيه، وهذه الأحاديث تفيد اليقين عند من له عناية بمعرفة السنة النبوية على التفصيل دون غيره.
- ٤- أن السلف رحمهم الله أجمعوا على قبولها وإثبات العقائد بها.
- ٥- أنها إن لم تفد اليقين فأقل درجاتها إفادة الظن الراجح، ولا يمتنع إثبات بعض الصفات والأفعال به.

كما دلت على إفادة خبر الآحاد العلمَ اليقينيَّ أدلة كثيرة منها:

- ١- أمر تحويل القبلة؛ فإن أهل قباء استداروا إلى القبلة الجديدة أثناء صلاتهم، مع أن الذي أخبرهم واحدا، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ<sup>(٥)</sup>.
- ٢- قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: ٦)، فهذا يدل على الجزم بقبول خبر الواحد العدل غير الفاسق، وعدم الحاجة إلى التثبت فيه؛ إذ لو كان لا يفيد اليقين لمجرد كونه واحدا لأمر بالتثبت فيه، وعلى هذا جرى المسلمون منذ زمن النبي ﷺ،

(١) انظر: "درء تعارض العقل والنقل" لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٠/٧، و"شرح العقيدة الطحاوية" ص ٢١٠.

(٢) انظر: "مختصر الصواعق المرسله" ص ٣٧١.

(٣) انظر: المرجع نفسه ص ٤٥٣.

(٤) انظر: المرجع نفسه ص ٤٣٨، وقد أسهب العلامة ابن القيم رحمه الله في تفصيل هذه الأمور في آخر كتابه العظيم "الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة"، الذي لم يصلنا منه سوى نصفه الأول، وقد طبع في أربعة مجلدات بتحقيق د/علي الدخيل الله، لكن وصلنا والحمد لله مختصر الكتاب كاملا للموصلي، والتفصيل المذكور مثبت فيه في ص ٤٣٩ وما بعدها.

(٥) انظر: صحيح البخاري: ١/١٥٧، أبواب القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، حديث رقم ٣٩٠، وصحيح مسلم: ١/٣٧٤، ٣٧٥، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، أحاديث رقم ٥٢٥-٥٢٧.

فكانوا ينسبون الأقوال والأفعال للنبي ﷺ جازمين بصدورها منه، مكتفين بعدالة النقلة وحفظهم، دون الالتفات إلى كونهم آحاداً<sup>(١)</sup>.

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: ٣٦)، فلو كانت أخبار الآحاد لا تفيد العلم اليقيني لكان المسلمون منذ عهد الصحابة باتباعهم أخبار الآحاد وأخذهم بها يقفون ما ليس لهم به علم، وبطلان هذا معلوم بالضرورة<sup>(٢)</sup>.

٤- قوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧)، فلولا أن أخبارهم تفيد العلم لم يأمر بسؤالهم، ومعلوم أن امتثال هذا الأمر الإلهي متحقق بسؤال واحد من أهل الذكر<sup>(٣)</sup>.

٥- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بِبَعْضِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧)، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (العنكبوت: ١٨)، ومعلوم أن المقصود من هذا البلاغ إقامة الحجة على المبلّغين، وقد كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالتبليغ عنه، ويقول: (بلغوا عني ولو آية)، ويرسل آحاد أصحابه يبلغون عنه العقائد والأحكام فتقوم بهم الحجة، فلو كان خبر الواحد لا يفيد العلم لم تقم الحجة بهذا التبليغ القائم عليه<sup>(٤)</sup>.

### المطلب الخامس: الاحتجاج بالخلاف الفقهي في رد دلالات النصوص:

وهذه إحدى وسائل التنصل من حاكمية النص الشرعي والالتزام به، فظهر في الآونة الأخيرة من يحتج بالخلاف الفقهي على النص، فإذا قيل له: قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ قال المسألة فيها خلاف!. ومن المعلوم أن الله تعالى أنزل النصوص لتحكم على الخلاف لا أن تحاكم إليه قال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرُّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩)، والرد إلى الله تعالى أي كتابه. وإلى الرسول إلى سنته ﷺ بعد وفاته، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (البقرة: ٢١٣)، فجعل النص حاكماً على النزاع حاكماً على الخلاف.

(١) انظر: "مختصر الصواعق المرسلّة" ص ٤٧٨.

(٢) انظر: المرجع نفسه ص ٤٧٨، ٤٧٩.

(٣) انظر: المرجع نفسه ص ٤٧٩.

(٤) انظر: الموضوع نفسه.

وقد ظهر هذا الانحراف مبكراً عند ما كثر الجهال الذين يفتون الناس بغير علم، ويبحثون عن الرخص لعوام الناس من غير ضابط ولا قيد في خلافات العلماء، حتى صار العوام من الناس يلوكون هذه الكلمة من غير معرفة لمعناها فيرددون: المسألة فيها خلاف، وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: "وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية، حتى صار الخلاف في المسائل معدوداً في حجج الإباحة، ووقع فيما تقدم وتأخر من الزمان الاعتماد في جواز الفعل على كونه مختلفاً فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف... فرمما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع؛ فيقال: لم تمنع والمسألة مختلف فيها، فيجعل الخلاف حجة في الجواز مجرد كونها مختلفاً فيها، لا لدليل يدل على صحة مذهب الجواز، ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع، وهو عين الخطأ على الشريعة حيث جعل ما ليس بمعتد متعمداً وما ليس بحجة حجة" (١).. ثم أشار إلى المفاصد الوخيمة لاتباع الخلافات وتحكيمها وتتبع الرخص والانسلاخ من الدين بترك "اتباع الدليل" إلى اتباع الخلاف، والاستهانة بالدين إذ يصير بهذا الاعتبار سيالاً لا ينضبط.

**المطلب السادس: دعوى إعادة فهم النص الشرعي بما يتواءم مع روح العصر ومتطلباته دون اعتبار لفهم السلف والأئمة المتقدمين:**

وهذا ما ينادي به اليوم بعض من يسمون بالمتقنين وغيرهم، حيث يرون ضرورة إعادة قراءة الخطاب الديني وفهم النصوص الشرعية فهماً عصرياً يواكب الحياة المعاصرة وحضارتها ومتطلباتها؛ وذلك نتيجة للروح الانهزامية التي يحملها هؤلاء، والشعور بالنقص والدونية، والانبهار بما عند الأعداء من تقدم مادي، محتجين ببعض موروثات الفرق والبدع القديمة، وشبهات العلمانيين والمستشرقين الحديثة، ومن المعلوم أن المتعين على المسلم الحريص على دينه أن يكون حريصاً على فهم مراد الله تعالى من خطابه لنا، ومراد رسوله ﷺ، ولا يستطيع المرء أن يعرف مراد الله تعالى ولا مراد الله ورسوله ﷺ إلا حينما يستقيم فهمه لدلائل الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح... وصحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجمل منهما بل هما: "ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين

(١) انظر: الموافقات للشاطبي ٤/ ١٤١ وما بعدها.



الذين فسدت مفهوماتهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت مفهوماتهم وقصودهم"؛ ولذا عد ابن القيم الفهم الصحيح عن الله ورسولهم عنوان الصديقية، ومنشور الولاية، وفيه تتفاوت مراتب العلماء حتى عد ألف بواحد؛ لأن "صحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفساد، والحق والباطل والهدى والضلال، ويمده حسن القصد وتحري الحق و تقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمداً الخلق، وترك التقوى" (١).

ومن المعلوم يقيناً أن من أكبر أسباب الابتداع في الدين والانحراف في فهمه هو الانحراف في فهم النصوص، وما انحرفت الخوارج والمرجئة والغلاة قديماً وحديثاً ودعاة التحلل، ورقة الديانة إلا لما انحرفت في فهم النصوص، والضابط لهذا الفهم هو فهم الصحابة رضي الله عنهم ثم أتباعهم من أصحاب القرون المفضلة. ولذا احتج ابن عباس على الخوارج لما ناظرهم بقوله: ( ولم يكن فيكم أحد من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ) (٢) يعني: ليدلهم إلى الفهم الصحيح لهذه النصوص، ويقوم ما أعوج من للفهم الصحيح. وما الشبهات التي تحرف الناس عن الحق قديماً وحديثاً إلا بسبب الخطأ في الفهم للدليل الشرعي، فيفهمه على غير مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم:

وكم من منكراً قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم (٣)

ومستند السلف في معرفة مراد الله تعالى من كلامه هو ما يشاهدونه من فعل رسوله صلى الله عليه وسلم وهديه، وهو يبين القرآن الكريم ويفسره. قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤)، بل ما أرسل الله من رسول: ﴿ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم: ٤)؛ لذا كان حرياً الرجوع إلى فهم السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم لفهم هذه النصوص على ضوء فهمهم، فالسلف علمهم أتم وأحكم وأسلم، فلهذا كانوا أعرف الناس بالحق وأدلته وبطلان ما يعارضه، وكانوا أعظم الناس قياماً بدين الله تعالى، لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا تصدهم عن سبيل الله العظام.

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/٨٧، ١٣٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف حديث رقم ١٨٦٧٨، والنسائي في السنن الكبرى حديث رقم ٨٥٧٥، والحاكم في المستدرک حديث رقم ٢٦٥٦، وصححه ووافق الذهبي.

(٣) البيت للمتنبي، ينظر ديوانه بشرح الواحدي (١/١٧١).

وهناك عدة اعتبارات توجب الرجوع إلى فهمهم خاصة في النصوص الثابتة من الدين كالعقائد والعبادات، وهي خصائص لا تجتمع في غيرهم فكان فهمهم مقدما على غيره من الفهوم ومن أهمها:

١- سلامة مصادرهم في التلقي: فقد تلقوا الوحي الرباني من النبي ﷺ بدون واسطة وبتجرد تام، وإيمان كامل، وتسليم مطلق لم يحاكموه إلى غيره. يصور لنا ذلك الإمام اللالكائي المتوفى سنة ٤١٨ هـ " فيقول: " فأخذوا الإسلام عنه مباشرة، وشرائعه مشاهدة، وأحكامه معاينة، من غير واسطة ولا سفير بينهم وبينه واصله. فجالولها عيانا، وحفظوا عنه شفاهها، وتلقنوه من فيه رطبا، وتلقنوه من لسانه عذبا، واعتقدوا جميع ذلك حقا، وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقينا، فهذا دين أخذ أوله عن رسول الله ﷺ مشافهة، لم يشبهه لبس ولا شبهة، ثم نقلها العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة، والصفة عن الصافة، والجماعة عن الجماعة، أخذ كف بكف، وتمسك خلف بسلف، كالحروف يتلو بعضها بعضا، ويتسق آخرها على أولها رصفا ونظما. فهؤلاء الذين تعهدت بنقلهم الشريعة، وانحفظت بهم أصول السنة، فوجبت لهم بذلك المنة على جميع الأمة، والدعوة لهم من الله بالمغفرة؛ فهم حملة علمه، ونقلة دينه، وسفرته بينه وبين أمته، وأمنائه في تبليغ الوحي عنه، فحري أن يكونوا أولى الناس به في حياته ووفاته، وكل طائفة من الأمم مرجعها إليهم في صحة حديثه وسقيمه، ومعوها عليهم فيما يختلف فيه من أموره لبس ولا شبهة، ثم نقلها العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة، والصفة" (١).

٢. مكانتهم في العلم والعمل: فإن زمانهم أشرف، وعصرهم أبرك، وعلمهم أغزر، حرصهم على طلب العلم والعمل به أعظم، والغلط عنهم أبعد من غيرهم، فهم الذين علمهم النبي ﷺ الوحي ورباهم عليه، وبين لهم ما أشكل عليهم حتى فهموه، ووعوه على أكمل صورة، وبلغوه لمن بعدهم على أتم بلاغ. فهذا عبد الله بن سعود رضي الله عنه يقول: "والذي لا إله غيره ما أنزل الله سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه" (٢). وهذا ليس قاصرا

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٢٢، ٢٣).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٥٠٠٢.

على الصحابة بل هو ما قام به أتباعهم من القرون المفضلة، فهذا مجاهد رحمه الله من التابعين يقول: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية وأسأله عنها"<sup>(١)</sup>. كما كانوا أحرص الناس على العمل بما سمعوه: ولا يكون العمل إلا عن علم وفهم ودراية، قال النبي ﷺ (مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتُدُونَ بِأَمْرِهِ... )<sup>(٢)</sup> وكذلك حواريوه وأصحابه ﷺ. وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: "حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا"<sup>(٣)</sup>.

٣. **عاصروا الوحي وشاهدوا التنزيل:** فعرفوا زمان نزوله ومكانه وأحوال نزوله، وناسخه ومنسوخه، ومتقدمه ومتأخره، وهذا أورثهم مزيد فهم لا يشاركهم فيه غيرهم. قال ابن تيمية رحمه الله: "وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمر السنة وأحوال الرسول ﷺ لا يعرفها أكثر المتأخرين، فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعانوا الرسول وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على [مراده] ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك"<sup>(٤)</sup>. ومن الأمثلة على ذلك: ما فهمه أبو أيوب الأنصاري ﷺ من قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥) لما حمل رجل يوم القسطنطينية على العدو فقال الناس: مه، لا إله إلا الله؛ يلقي بنفسه إلى التهلكة... فذكر أبو أيوب سبب نزولها، وقال: فالإلقاء إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلها وندع الجهاد<sup>(٥)</sup>.

٤. **أنهم أعلم الناس بلغة القرآن:** فقد نزل القرآن بلسانهم ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ جرياً على معهودهم في الكلام وعاداتهم في الخطاب، من غير تعلم لغة ولا مدارس ولا اكتساب لأساليبها، ولا يعلم أحد أفصح لساناً وأسد بيناً وأقوم خطاباً من أهل القرون الأولى المفضلة، وأولاهم في هذا السبق صحابة رسول الله ﷺ.

(١) جامع البيان لابن جرير (٢/ ٥٢٤).

(٢) صحيح مسلم حديث رقم ١٨٨.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف حديث رقم ٩٩٧٨، والفريابي في فضائل القرآن ص ١٦٩.

(٤) مجموع الفتاوى (٢٠٠/١٩).

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٩٩).

ولا شك أن الجهل باللسان العربي من أكبر أسباب سوء الفهم للنصوص الشرعية، ولذلك قال الإمام الشافعي: " ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس"<sup>(١)</sup> ثم إن اللغة التي تعد مرجعاً في تفسير القرآن، وفهم نصوصه هي اللغة التي كانت متداولة في عصر التنزيل دون الالتفات إلى لغة الحادثة، وما طرأ عليها في العصور التالية من دلالات الألفاظ مما لا ينبغي تحكيمه في فهم القرآن الكريم. قال ابن تيمية: " من لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي ﷺ وعاداهم في الكلام وإلا حرف الكلم عن مواضعه..."<sup>(٢)</sup>.

٥. أنهم خير هذه الأمة علماً وأبرها قلوباً وأكثرهم بركة: وذلك لأن قوة الإيمان والتقوى واعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه، ويجعل للبعد فرقانا ونورا يفرق به بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ( الأنفال: ٢٩ )، ولا شك أن الصحابة وأتباعهم هم خير من حقق ذلك فتحقق لهم موعود الله الذي لا يخلف. قال ابن عمر " من كان منكم مستنأ فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً... قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد، كانوا على الهدى المستقيم"<sup>(٣)</sup>. قال الشافعي: "وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وأمر استدرك به علم، واستنبط به. آراؤهم أحمد وأولى بنا من آرائنا لأنفسنا"<sup>(٤)</sup>.

٦. دلالة الكتاب والسنة على إتباع فهمهم: وذلك من خلال ما ثبت من الثناء عليهم علماً وعملاً وهي تدل على وجوب تقديم فهمهم والرجوع إليه عند التنازع، واعتباره الفيصل في فهم دلالات النصوص، ومراد الله ورسوله منها، ومن هذه الأدلة الكثيرة قوله تعالى ﴿ وَالسَّيْفُوتِ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ( التوبة: ١٠٠ )، فالآية صريحة في الثناء على

(١) سير أعلام النبلاء ( ١٠ / ٧٤ ) .

(٢) مجموع الفتاوى ( ٢٤٣ / ١ ) .

(٣) حلية الأولياء ( ٣٠٥ / ١ ) .

(٤) مناقب الشافعي للرازي ص ٤٩ .

المتبعين للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم أئمة السلف الصالح وقادتهم ﷺ، والإتباع شامل للاعتقاد والعمل المبني على صحة الفهم، وهذا المدح يتضمن صحة ما كانوا عليه من ذلك. كما دلت بالمفهوم على بطلان ما خالفهم في ذلك. وقد احتج الإمام مالك بهذه الآية على وجوب إتباع الصحابة رضي الله عنهم<sup>(١)</sup>. ومن الآيات قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّأَهُ لَهْدًى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥) وغيره من النصوص الكثيرة.

٧ / دلالة الإجماع على اتباع منهجهم: قال شيخ الإسلام رحمه الله: " من المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جمع الطوائف أن خير هذه الأمة - في الأعمال والأقوال والاعتقادات وغيرها من كل فضيلة أن خيرها - القرن الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وأضله الله على علم"<sup>(٢)</sup>.

ثم إن الالتزام بفهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنة العاصمة من كل فتنة مضلة له ثمرات يانعة وآثار نافعة تحفظ المرء في عقيدته وعبادته وتعصمه بإذن الله من الأهواء والمفاهيم الشاذة والأفكار المنحرفة، وما سلت السيوف وأزهقت الأرواح، وسفكت الدماء، وانتهكت الحرمات، وكفر المسلمون، وفرقت جماعتهم إلا بسبب التأويل الباطل المبني على الفهم السقيم للنصوص الشرعية المخالف لفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم. ومن أبرز هذه الثمرات:

أ/ أنه السبيل الوحيد لمعرفة مراد الله تعالى ومراد رسوله إذ هي غاية كل مسلم يريد الاعتصام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً ظاهراً وباطناً لينجو من الفتن، ويحقق عبودية ربه على هدى وبصيرة. فأسعد الناس وأسددهم رأياً في جميع أمور الدين وما يقرب من رب العالمين هو من تلقى من " مشكاة الوحي المبين، ورجب بعقله وفطرته وإيمانه عن آراء المهتوكين وتشكيكات

(١) إعلام الموقعين (٤/١٢٣) وقد فصل في ست صفحات دلالة هذه الآية على وجوب اتباعهم ﷺ يراجع لمزيد الفائدة.

(٢) مجموع الفتاوى (٤/١٥٨).

المشككين، وتكلفات المنتنعين، واستمطر دين الهداية من كلمات أعلم الخلق برب العالمين فإن كلماته الجوامع النوافع في هذا الباب وفي غيره كفت وشفقت وجمعت وفرقت وأوضحت وبينت وحلت محل التفسير والبيان لما تضمنه القرآن<sup>(١)</sup>. ثم إن ما عند السلف من العلم والإيمان هو ما استفادوه من نبيهم الذي أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور وهداهم إلى صراط العزيز الحميد. ولا شك أن أعلم الناس بهذا الصراط وأحرصهم على الهداية إليه هم صحابة رسول الله ثم أتباعهم من أئمة السلف الصالح. ولذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إذا لقيتم الذين يتبعون المتشابه فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله تعالى"<sup>(٢)</sup>.

ب/ أنه أهم وسيلة لحسم مادة الابتداع وإغلاق باب البدعة والإحداث في الدين؛ لأن المبتدعة عادة ما يتعلقون ببعض النصوص ويتأولونها على غير تأويلها ويفهمونها على غير مراد الله ومراد رسوله. وفهم السلف هو الفيصل في هذه المسألة وهو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٧).

ج/ أنه العاصم من التفرق والاختلاف المذموم. قال عمر لابن عباس رضي الله عنهما: "كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا في من نزل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون في من نزل، فيكون لهم منه فيه رأي فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا"<sup>(٣)</sup>.

د/ أنه يورث الطمأنينة والأمن النفسي القاطع لشوائب الاحتمالات المقدره الرافع للإشكالات المتوهمة. فمتى علم المتفقه وطالب العلم أن فهمه للدليل موافق لفهم السلف الصالح كان ذلك حاسماً للترددات شاهداً صادقاً على صحة الاستدلال بالدليل مصداقاً له.

هـ/ أنه الضابط في معرفة السنة من البدعة. فكل دين وعبادة لم يكن معروفاً عند السلف فهو ليس من الدين في شيء، بل هو الابتداع والإحداث في الدين، لذلك كله ينبغي الحذر من طرح ينادي بإعادة النظر في فهم النصوص الشرعية فهما جديداً متنكباً لفهم السلف الصالح مهما ألبس هذا الطرح بلبوس التجريد أو الإصلاح أو التغيير أو مواكبة العصر أو التخلص من

(١) شفاء العليل (١٨/١).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه حديث رقم ١٢١، والأجري في الشريعة حديث رقم ٩٣.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي والسامع حديث رقم ١٥٨٧ (١٩٤/٢).

التحجر والجمود، أو الانفتاح والعصرنة والتنوير، أو غير ذلك من المسميات البراقة. فإن الأسماء لا تغير من الحقائق شيئا. وقد قال فرعون لقومه: ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ( غافر: ٢٩ )، وقال المنافقون: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ( البقرة: ١١ ) قال الله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ( البقرة: ١٢ ).

## الفصل الثالث

### ( الانحراف في المفاهيم )

وَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلْيَتَمَّ  
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلْيَسْأَلْ  
وَأَمَّا الْكُلْبَ فَلْيَمْسِكْ  
وَإِلَى اللَّهِ الْمَرْجِعُ

المبحث الأول: مفهوم التوحيد

المبحث الثاني: مفهوم الإيمان والكفر

المبحث الثالث: مفهوم العبادة

المبحث الرابع: مفهوم القضاء والقدر

المبحث الخامس: مفهوم التوكل

المبحث السادس: مفهوم الزهد

المبحث السابع: مفهوم الحرية

المبحث الثامن: مفهوم التجديد

## تمهيد:

إن من بدهيات العقيدة الإسلامية أن يعتقد المسلم أن دينه وحده هو الدين الصحيح من بين أديان أهل الأرض منذ بعثة النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، وأن ما سواه من الملل والنحل باطل لا يقبله الله تعالى، سواء كان من اختراع الناس من أصله كالديانات الوثنية الخرافية أو كان في الأصل منزلاً من الله ثم طرأ عليه التبديل والتحريف والزيادة والنقصان كاليهودية والنصرانية، كما صرح بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

ولا يعني بطلان ما سوى الإسلام من الديانات أنها بالضرورة لا تشتمل في تعاليمها وتشريعاتها على شيء من الخير الذي تستحسنه العقول وترتاح إليه النفوس كالأمر بالرأفة والرحمة والإحسان ونحو ذلك من وجوه الخير، وإنما المقصود أن الأصول التي بنت عليها هذه الديانات عقائدها وتشريعاتها هي على خلاف ما يرضاه الله تعالى مما أنزله على أنبيائه ورسوله؛ لاشتمالها على الكذب الصريح على الله تعالى وعلى أنبيائه في معرفة صفاته وطريقة عبادته؛ ولذا فإن ما فيها من بقايا موروثات الأنبياء السابقين فقد نسخ بالرسالة المحمدية الخالدة، وما أدخله البشر إليها فلا يجوز التعبد لله تعالى به بحال.

وهذا الخسران الديني متحقق بالأصالة في الحياة الأخروية، كما في الآية السالفة، وكما في قوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ يَاقِعَةٍ يَبْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩)، أما في الدنيا فإن كمال العدل الإلهي يقتضي حصول شيء من الثواب العاجل لأتباع تلك الديانات الباطلة على ما عندهم من الخير، كما دل عليه قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾



(هود: ١٥) <sup>(١)</sup>، وقول النبي ﷺ: ( إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يُعطى بها في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها ) <sup>(٢)</sup>.

وبهذا تتجلى النعمة العظمى على المسلمين في هدايتهم لدين الأنبياء والمرسلين، تلك النعمة التي امتن الله تعالى بها عليهم في أعظم المشاهد، حين أنزل على نبيه وهو بالموقف بعرفة <sup>(٣)</sup>:

﴿الْيَوْمَ يَسِّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، وشرع لهم أن يلحوا في طلبها كلما صلوا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ <sup>(٤)</sup> صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ (الفاتحة: ٦، ٧)، فعلمهم أن يسألوه معرفة الحق والعمل به، وأن يجنبهم حال المغضوب عليهم وهم الذين يعرفون الحق فيعرضون عنه كحال اليهود، وحال الضالين، وهم الذين فرطوا في معرفة الحق أصلا، وتعصبوا لما عندهم من الجهل كحال النصارى <sup>(٤)</sup>.

واستمرار هذه النعمة يوجب على المسلمين أن يقدرها حق قدرها، ويرعوها حق رعايته، حتى تدوم عليهم السعادة بهذه النعمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الأنفال: ٥٣)، وذلك ما يستوجب أن يفرح الناصحون إلى تذكير الأمة بهذه النعمة وجوب الاستقامة عليها حتى تدوم لهم العزة والسيادة.

وقد وقع الخلل في الالتزام بالدين لدى بعض المسلمين في جانبين <sup>(٥)</sup>:

**الأول:** خلل في السلوك، تمثل في إهمال شيء من الفرائض والواجبات الشرعية كالصلاة والزكاة والبر والصلة وحجاب المرأة والأمانة ونحوها، أو ارتكاب شيء من المخالفات والمنهيات كأكل الربا والسرقه والزنا وشرب الخمر والقتل بغير حق ونحو ذلك، وكان المؤدي إلى الخلل في

(١) وانظر: الإسراء ١٨، الشورى ٢٠، الأحقاف ٢٠.

(٢) رواه مسلم حديث رقم ٢٨٠٨.

(٣) انظر صحيح البخاري حديث رقم ٤١٤٥، وصحيح مسلم حديث رقم ٣٠١٧.

(٤) قال النبي ﷺ: ( اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال) رواه الترمذي وحسنه حديث رقم ٢٩٥٤،

وصححه ابن تيمية، انظر مجموع الفتاوى ٦٤/١.

(٥) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم ١/١٣٦، ١/١٣٧.

هذا الجانب الشهوات الداعية للنفس الأمارة بالسوء، وهذا الخلل السلوكي على شناعته وخطورته أهون بالنسبة للجانب الثاني.

**الثاني:** وهو الخلل العقدي في المفاهيم، الذي يشوّه الأصول التي يقوم عليها بناء الدين، ويغتر بعض المتدينين فيحسبون أنهم يحسنون صنعا، وقد كان المؤدي إلى الخلل في هذا الجانب وحى شياطين الإنس والجن بالشبهات المزخرفة للباطل حتى يبدو للمغرور في صورة الحق، وقد أشار إلى الجانبين قوله تعالى للكفار: ﴿فَأَسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا أَسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ (التوبة: ٦٩)، فالاستمتاع يكون بالشهوات، والخوض يكون في الشبهات، وزوي في الأثر: (واعلم أن الله يحب البصر النافذ عند مجيء الشهوات ، والعقل الكامل عند نزول الشبهات ) (١).

ومما يبين أن الخلل في الاعتقاد أخطر بكثير أنه قد يذهب بأصل الإيمان، ويبطل الدين من أساسه، أما الخلل في السلوك فإن مرده إلى ضعف الإرادة وقوة داعي الشهوة، وهو ينقص الإيمان ولا يزيله بالكلية، وفي الغالب نجد بين الاعتقاد الباطن والسلوك الظاهر علاقة، فكلما زاد الإيمان في القلب انقادت الجوارح للطاعة والبعد عن المعصية، والعكس بالعكس، كما أن محتل العقيدة غالبا لا يشعر بخللها، فلا تلومه نفسه، بل غالبا ما يشعر أنه على الحق، ويتقرب إلى الله تعالى بالثبات على ما هو عليه، بل بالدفاع عنه والدعوة إليه، كما قال سبحانه عن كفار قريش: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ (ص: ٦)، وذلك بخلاف المختل سلوكا فإن ذل المعصية غالبا لا يغادر قلبه (٢)، ولا تزال نفسه تلومه عليها حتى يأذن الله بتوبته ولو بعد حين، ومن هنا قال سفيان الثوري رحمه الله: " البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛

(١) رواه الشهاب في مسنده ١٥٢/٢ برقم ١٠٨٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣٢/٥٢ برقم ٦١٢١، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" ١٩٩/٦ بنحوه من حديث عمران بن حصين مرفوعا، وذكر نحوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٧٧/٢ عن الزبير بن العوام.

(٢) كان الحسن البصري رحمه الله يقول عن العصاة: وإن هملجت بهم البراذين وطقطقت بهم البغال فإن ذل المعصية في رقابهم، يأبى الله إلا أن يذل من عصاه. انظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٦٦/١، وكتاب "الأفعال" لأبي القاسم السعدي [٥١٥]: ٣٧٦/٣، وذكر نحوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١٦٠/١) عن الفضيل بن عياض.

المعصية يُتاب منها والبدعة لا يتاب منها" (١). وبهذا فسر الإمام أحمد رحمه الله قول النبي ﷺ: ( إن الله احتجر التوبة عن كل صاحب بدعة) (٢).

وفي هذا الفصل عرض لأبرز مواطن الخلل في المفهوم الصحيح للإسلام في جوانب العقيدة وأخرى تتعلق بالعبادات والمعاملات والسلوك في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، مع التنبيه على وجه مخالفتها للأصول الشرعية، وشيء من آثارها على سبيل الإجمال، وإلا فإن بسط القول في كل مسائل العقيدة التي وقع فيها الخلل لدى الطوائف الإسلامية المختلفة واستقصاء أدلتها واحتواء الشبه حولها يتطلب بحثاً مستقلاً لكل مسألة، وإنما قصدنا إعطاء صورة عامة لهذا الخلل بما يناسب المسلم ولو لم يكن متخصصاً في العلوم الدينية؛ ليحرص على صيانة معتقده مما يخذشه، وليتنبه إلى أخطار هذا الخلل على أهم أسباب قوة الأمة ووحدتها.

### المبحث الأول: مفهوم التوحيد:

التوحيد هو الأساس الذي تبنى عليه العقيدة والتصورات الإسلامية، فلا عجب أن كان محورا يدور عليه الخطاب القرآني، حتى قيل إن آيات القرآن كلها في التوحيد؛ باعتبار أنها تتحدث إما عن صفات الرب جل وعلا وأفعاله التي لا يشركه فيها غيره، وإما عن عبادته وحده، وإما عن قصص دعاة التوحيد من الأنبياء وأتباعهم، وإما عن قصص أعداء التوحيد من المشركين والكافرين، وإما عن الجنة ثواب الموحدين، وإما عن النار عقوبة المشركين، وإما عن الفرائض والواجبات والأخلاق والآداب وهذه مقتضيات التوحيد ومكملاته، وإما عن المحرمات بأنواعها ودرجاتها وهذه نواقض التوحيد ونواقصه، فصح أن حديث القرآن كله دائر حول التوحيد بهذا الاعتبار (٣).

وإذا كان هذا هو قدر التوحيد في القرآن فمن الممتنع غاية الامتناع أن يكون القرآن وهو كلام الله الذي أنزله لهداية الخلق قد أهمل أو قصر في بيان حقيقة هذا التوحيد الذي ينبني عليه

(١) رواه ابن الجعد في مسنده ص ٢٧٢، رقم ١٨٠٩.  
 (٢) رواه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ٧٢/٦، ٧٣، حديث رقم ٢٠٥٤، ٢٠٥٥، وصحح محققه إسناده، وقد رُوي بمعناه قول النبي ﷺ: ( يا عائشة، إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا [الأنعام ١٥٩]، هم أصحاب الأهواء والبدع، يا عائشة، إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب البدع ليست لهم توبة، فهم مني براء وأنا منهم بريء )، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ١٤٣٠/٥، وغيره، انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: ٤٠٢/٣، وانظر قول أحمد في بدائع الفوائد لابن القيم ٨٤٨/٤.  
 (٣) انظر: مدارج السالكين لابن القيم ٤٥٠/٣، دار الكتاب العربي ١٣٩٣.

الدين كله، ولا يقبل الله أحدا إلا بتحقيقه، فما هي حقيقة التوحيد التي قررها القرآن؟ ومن أين تسرب الخلل فيه إلى أمة تؤمن بالقرآن حتى صارت تختلف في تفسير حقيقة هذا التوحيد الذي حُلق لأجله كل شيء؟!.

إذا كان من البدهي أن معنى التوحيد: إفراد الله تعالى بكل ما يختص به مما يميّزه عن المخلوقين، فإن القرآن قد بين بغاية من الوضوح والتأكيد هذه الخصائص الإلهية بما يمكن تصنيفه إلى ثلاثة أقسام:

أ- أسماء الله الحسنى وصفاته العلا المتضمنة تفسير كماله وجلاله.

ب- أفعال الله جل وعلا المتضمنة تدبيره ملكوته وفق حكمته وعدله.

ج- أفعال الخلق التي يقصدون بها العبادة والتأله.

فهذه أنواع الخصائص الإلهية التي لا يكون الموحد موحدا حتى يعتقدها ويقر بها ويحرص على تحقيقها.

وتقسيم التوحيد إلى هذه الأنواع فني اصطلاحِي غير تعبدي، لكنه مأخوذ من القرآن والسنة بالاستقراء<sup>(١)</sup>، وإنما ذكره العلماء لأسباب منها:

١- التسهيل على طالب العلم لفهم حقيقة التوحيد.

٢- الاختصار في شرح حقيقة التوحيد بضم النظير إلى نظيره ورد الفرد إلى نوعه، فبدل أن يقال: التوحيد هو إفراد الله تعالى بالخلق والهداية والحكم والرزق والشفاء والإحياء والإماتة وإنزال المطر وإنبات الزرع، والملك وعلم الغيب وكمال القدرة والحياة والعلم والسمع والبصر ونفاذ المشيئة، والصلاة والسجود والركوع والزكاة والصيام والحج والعمرة والذبح والنذر والتوكل والحب والذل، إلى آخر هذه المعاني العظيمة الشريفة التي دل صريح القرآن والسنة على أنها من خصائص الرب جل وعلا، بدل أن يفصّل هذا التفصيل الطويل، يُكتفى بذكر الأنواع التي ينتمي إليها كل فرد من هذه الخصائص، ثم يُكتفى بذكر أمثلة عليها.

٣- تحذير الموحد من الاقتصار على بعض حقائق التوحيد دون بعض.

(١) انظر: مناقشة من شغّب على هذا التقسيم في "صيانة الإنسان" للسهبواني [١٣٢٦] ص ٤٣٦ وما بعدها.

٤- ما نجم من انحراف لدى بعض الطوائف في تفسير التوحيد المنجى عند الله، فقصره على جزء من المطلوب، أو فسروه على خلاف ما في القرآن والسنة، أو جمعوا الأمرين، على نحو ما سيأتي بيانه.

وعلى هذا فمن قسّم التوحيد إلى نوعين أو أربعة أو أكثر لا ختلاف الاعتبار الذي قسم على أساسه فلا اعتراض عليه من جهة العدد، وإنما المقصود المعدود: هل هو مما بين القرآن والسنة صراحة أنه مما يختص الرب جل وعلا به؟

فلو قال قائل مثلاً: التوحيد قسمان، توحيد المعرفة والإثبات أو التوحيد العلمي الخبري، وتوحيد القصد والطلب أو التوحيد الإرادي العملي باعتبار ما يجب على المكلفين، كان مصيباً في تقسيمه<sup>(١)</sup>؛ لأنه لم يهمل شيئاً مما يختص به الرب جل وعلا، وهكذا لو قال مثلاً: التوحيد أربعة أقسام لم يختلف عن التقسيمين السابقين إلا بزيادة التفصيل الذي قد يستدعيه إهمال الناس شيئاً من حقائق التوحيد أو انحرافهم في فهمه.

إذا تقرر هذا فإن من أخطر أنواع الخلل الذي وقع لدى بعض المسلمين في فهم التوحيد الاكتفاءً بجانب واحد فقط من جوانب التوحيد وهو التوحيد العلمي الخبري، أو ما يسميه العلماء "توحيد الربوبية"، دون الجانب الآخر الذي هو توحيد العبادة، فيفسّر التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلون ونزلت به الكتب الإلهية بأنه اعتقاد أن الله وحده هو الخالق دون غيره، ويفسّر كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" بأن معناها: لا خالق إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله<sup>(٢)</sup>، ثم يقف عند هذا القدر دون أن يضم إليه مقتضى هذا المعنى، ألا وهو وجوب أفراد الله بجميع أنواع العبادة.

والدليل على قصور هذا المسلك في تفسير التوحيد وانحرافه أمران عظيمان:

١/ أن القرآن من أوله إلى آخره يؤكد على أن دعوة الأنبياء والمرسلين كانت إلى أفراد الله بالعبادة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

(١) انظر هذا التقسيم في: "مدارج السالكين" لابن القيم ٢٤/١-٢٥، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٨٨.

(٢) انظر: "الملل والنحل" للشهرستاني ١٠٠/١.

أَلَطَّغُوا ﴿ (النحل: ٣٦)، وذكر عن كل نبي أنه قال لقومه: ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود: ٥٠، ٦١، ٨٤)، وقال لخاتم أنبيائه صلى الله عليه وعليهم وسلم: ﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٥).

٢ / أن المشركين الذين خصمهم النبي ﷺ وقاتلهم على الشرك قد صرح القرآن في مواضع كثيرة أنهم كانوا يقرون الله تعالى بالخلق والرزق والتدبير، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (يونس: ٣١)، وقال: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٧)، كما صرح القرآن أنهم إنما دخل عليهم الشرك من جهة التزلف والتشفع بعبادة غير الله تعالى ممن يعتقدون فيه علاقة خاصة مع الله إما بينوة أو وجاهة أو غير ذلك مما يعتقدون أنه يستوجب قبول شفاعتهم، لا أنهم يعتقدون فيهم أنهم يخلقون ويرزقون، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ (الزمر: ٢-٤)، وقوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴾ (الزمر: ٤٣، ٤٤)، وقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (يونس: ١٨)، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك. قال: فيقول رسول الله ﷺ: ويلكم، قد قد. فيقولون: إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. فيقولون هذا وهم يطوفون بالبيت<sup>(١)</sup>.

وقد ترتب على هذا الانحراف في تفسير حقيقة التوحيد ما هو منتشر بين كثير من جهلة المسلمين من التعلق بغير الله تعالى وطلب الحوائج من المخلوقين الأموات والغائبين العاجزين والاستغاثة بهم حتى في حال الاضطرار!، مخالفين بذلك صريح قول الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ

(١) صحيح مسلم حديث رقم ١١٨٥، ومعنى (قد قد): حسبكم يكفي.

﴿الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾  
(النمل: ٦٢)، ومنحدرين إلى أضلّ من حال المشركين الذين كانوا يخلصون لله في الشدة  
ويشركون في الرخاء، كما ذكر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ  
الَّذِينَ فَلَمَّا بَحَثْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

ويزين لهم ذلك بعض المنتسبين إلى الفتوى والعلم من أهل البدع بأنه ليس من الشرك الذي  
وقع فيه أهل الجاهلية، بل هو من التوسل المشروع الذي يرجى معه قضاء حوائجهم، وأن شرك  
أهل الجاهلية إنما كان بادعاء شريك مع الله في معاني الربوبية كالخلق والتدبير، أو بالعبادة  
المقرونة بهذا الاعتقاد، أما من أقر الله بالربوبية فلا يُتصور منه أن يقع في شيء من عبادة غير  
الله، ولو وقع منه ما ظاهره عبادة لغير الله؛ فإنه عندهم يُحمل على أنه مجرد توسل مشروع، ما  
دام أن فاعله لا يعتقد في مدعوّه ومستغاثه ومستعانته من دون الله الربوبية الذاتية، وهكذا فإنهم  
يحصرون الشرك في ادعاء شريك لله شراكة استقلال وندية، أما شراكة هبة من الله لمن شاء من  
أحبابه وأوليائه فلا تدخل عندهم في حقيقة الشرك المناقض للتوحيد، ومن هنا سوّغ غلاتهم  
نسبة تدبير الكون لبعض الأولياء كما هو اعتقاد بعض الصوفية في الأقطاب والأوتاد  
والنجباء<sup>(١)</sup>، وكما هو اعتقاد بعض الشيعة في الأئمة<sup>(٢)</sup>، وهكذا طابق توحيدهم توحيد من  
قال: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه ومن ملك.  
وعبدوا من دون الله ممن يدعون لهم الولاية فدعوهم وذبحوا لهم...

ومن الخلل الخطير في مفهوم التوحيد ما وقع فيه من يقر الله وحده بالكمال المطلق من كل  
وجه، ثم يفصل هذا الكمال على وجه مناقض لما في الكتاب والسنة، وما أجمع على فهمه  
منهما سلف الأمة، من الصحابة والتابعين وأتباعهم من أهل القرون المفضلة الموصوفة في  
الحديث النبوي بالخيرية<sup>(٣)</sup>، مع أن البديهة تقول: لا أحد أعلم من الله تعالى بصفات نفسه،

(١) انظر مثلاً: "كرامات الأولياء" لأحمد الجوهري [١١٨١] ص ٦٦-٨٥.

(٢) كما في قول الخميني: إن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع  
ذرات الكون. انظر كتابه "الحكومة الإسلامية" ص ٥٢، نقلا عن "دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين"  
للدكتور أحمد جلي، ص ١٩٩.

(٣) انظر صحيح البخاري: ٩٣٨/٢، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، حديث رقم  
٢٥٠٨، صحيح مسلم: ١٩٦٢/٤، كتاب الفضائل، باب فضل الصحابة..، حديث رقم ٢٥٣٣.

ولا أحد من البشر أعلم بالله من رسوله ﷺ، فما وجه الاستدراك في باب الصفات الإلهية على الكتاب والسنة، وتقديم العقول المختلفة المتضاربة عليهما؟!.

لقد تفاوت الانحراف في الصفات الإلهية بين الطوائف المخالفة لما كان عليه سلف الأمة ما بين منكر لجميع الأسماء والصفات كما هو مذهب غلاة الجهمية<sup>(١)</sup>، ومقرّ بالأسماء الحسنى دون ما تدل عليه من حقائق صفات الكمال كما هو المشهور من مذهب المعتزلة<sup>(٢)</sup>، ومقرّ بالأسماء وبعض الصفات الوجودية دون بعض كما هو مذهب الأشعرية<sup>(٣)</sup> ومن وافقهم<sup>(٤)</sup>، وقابل هؤلاء جميعا من خلط بين حقائق صفات الخالق وحقائق صفات المخلوقين كالحلولية والاتحادية وأصحاب وحدة الوجود<sup>(٥)</sup> من غلاة الصوفية<sup>(٦)</sup> والشيعية<sup>(٧)</sup>.

وقد كان من أخطر الآثار السلبية لهذا الخوض بالباطل في الصفات الإلهية سوى الكذب على الله تعالى وتبديل حقائق دينه الموحدة إلى أنبيائه ورسله أن الخائضين انشغلوا وأشغلوا عن القصد الأصلي لذكر الصفات الإلهية في القرآن والسنة، ألا وهو التعرف على الله والتعبد له بمقتضاها تعظيما وحبا وذلا وتوكلا وافتقارا ورغبة ورهبة، وأوقعوا كثيرا من الناس فيما يقسّي القلوب من الجرأة على الخوض في الذات الإلهية واستمراء البحث العقلي في ما يجب ويجوز ويمتنع عليها، وكأن الوحي لم يف بالغرض في هذا، هذا فضلا عما أدت إليه بحوثهم من شق صفوف المسلمين وتعميق الخلاف المذهبي بينهم وطعن بعضهم في دين بعض.

(١) أتباع جهم بن صفوان مبتدع مبدأ إنكار الصفات الإلهية في الملة الإسلامية، قُتل على الزندقة سنة ١٢٨هـ، انظر "اللباب في تهذيب الأنساب" لابن الأثير: ٣١٧/١، "السان الميزان" لابن حجر: ١٤٢/٢، "الملل والنحل" للشهرستاني ٨٦/١.

(٢) انظر: "تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الأديان" لعلي الفخري [عاش في القرن التاسع الهجري] ص ٨٣، ٨٤، والمعتزلة مدرسة كلامية يجمعهم القول بالأصول الخمسة: التوحيد، العدل، المنزلة بين المنزلتين، الوعد والوعيد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قرروا هذه الأصول على خلاف منهج السلف، انظر عن أصولهم "شرح الأصول الخمسة" للقاضي عبد الجبار..

(٣) أتباع أبي الحسن الأشعري [ت ٣٣٠]، وقد كان معتزليا ثم تحول إلى عقيدة ابن كلاب ثم رجع إجمالا إلى طريقة الإمام أحمد ابن حنبل، ثم تطور المذهب من بعده على يد أبي المعالي الجويني [ت ٤٥٠] والفخر الرازي [ت ٦٠٦]، انظر "الفوائد المجتمعة في بيان الفرق الضالة والمبتدعة" لإسماعيل اليازجي ص ٣٣، ٣٤.

(٤) انظر: "شرح الصاوي على جوهرة التوحيد" ص ١٦٨.

(٥) الحلول والاتحاد والوحدة تعبيرات متقاربة عن التصوف الفلسفي الذي يجعل حقيقة التوحيد نفي التكثر في الوجود، انظر مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣١٩/٢.

(٦) انظر "الفتوحات المكية" لمحي الدين ابن عربي: ٢/١.

(٧) انظر: "أضواء على مسلك التوحيد، الدرزية" للدكتور سامي نسيب مكارم ص ٣٢، ٣٣.



## المبحث الثاني: مفهوم الإيمان والكفر:

ينتمي هذا المفهوم إلى باب دقيق من أبواب دراسة الاعتقاد يسمّيه المتخصصون "باب الأسماء والأحكام"<sup>(١)</sup>، ويعنون بالأسماء الألقاب الشرعية نحو ( مؤمن، مسلم، فاسق، منافق، كافر، مبتدع، مرتد )، ويعتنون بتحديد الضوابط الشرعية التي تجب مراعاتها عند إطلاق هذه الألقاب على المتلبسين بما يستوجب تسميتهم بها، ويعنون بالأحكام ما يترتب على هذه الأسماء من أحكام دنيوية وآخروية: كموالاة المؤمن، وعصمة دم المسلم وماله، والبراءة من الكافر، وقتل المرتد، وهجر المبتدع في الدنيا، وكخلود الكفار في النار دون عصاة المؤمنين.

والملاحم العامة للرؤية الشرعية في هذا الباب تتلخص في أن من نطق بالشهادتين من الكفار قاصدا الدخول في الإسلام ملتزما بمقتضاهما ولو ظاهريا فقد انعقد إسلامه، واكتسب الآثار المترتبة على هذا العقد من عصمة الدم والمال، كما دل على ذلك قوله تعالى عن المشركين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ وقال تعالى ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (التوبة: ١١، ٥)، وقول النبي ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) (٢).

فإذا كان الناطق بالشهادتين منافقا لم يُرد سوى عصمة الدم والمال والتمتع بحقوق الأخوة الإسلامية حصّل ذلك ظاهرا في الدنيا؛ لأنه لا سبيل للمؤمنين إلى معرفة ما في قلبه، لكن إن افترض بعد ذلك نفاقه بكفر بواح حق عليه حد الردة، وهذا الذي يسميه الفقهاء زنديقا<sup>(٣)</sup>، أما في الآخرة فهو كما أخبر الله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (النساء: ١٤٥).

(١) انظر مثلا: "تعظيم قدر الصلاة" للمروزي [ت٢٩٤] ٥٨٠/٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤٦٨/١٢، والمواقف للإيجي الأشعري [ت٧٥٦] ٥٢٧/٣، و"شرح المقاصد في علم الكلام" للسعد التفتازاني الماتريدي [ت٧٩١] ٢٤٦/٢.

(٢) رواه البخاري حديث رقم ٢٥، ومسلم حديث رقم ٢١.

(٣) انظر: "عزم عيون البصائر" لابن النجيم الحنفي: ١٩٢/٢.

ومن الأدلة على ما ذكرنا حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرة<sup>(١)</sup>، فصبّحنا القوم فهزمناهم، ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناها قال: لا إله إلا الله، فكفّ الأنصاري عنه، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قلت: كان متعوذاً، فما زال يكررها حتى تمتيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم<sup>(٢)</sup>.

ولما كان الحكم على معيّن بالكفر بعد الإسلام والارتداد عن الدين يترتب عليه آثار غاية في الخطورة، منها: حل دمه لولي الأمر الشرعي، وحرمة على زوجته، والمنع من التوارث معه، وانفساخ ولايته وانتقاض بيعته إن كان والياً<sup>(٣)</sup>، فقد جاء التشديد الأكيد بحق من تجرأ في إطلاق وصف الكفر على من لا يستحقه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ( إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما )<sup>(٤)</sup>.

ومن القواعد المؤكدة في هذا الباب أنه إذا ثبت وصف الإسلام لأحد بيقين فإنه لا يرتفع عنه إلا بيقين<sup>(٥)</sup>.

وقد وقع الانحراف في مفهوم الكفر والإيمان مبكراً، حين خرجت طائفة من أهل البدع تطلق وصف الكفر على المسلمين بمجرد ما يعتقدون أنه معصية، وهم من عُرفوا في التاريخ الإسلامي باسم "الخوارج"<sup>(٦)</sup>، وكان أول ضحايا تكفيرهم الجائر كبار الصحابة في زمانهم كعثمان وعلي وعائشة وأبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص ومعاوية وغيرهم ممن وقع بينهم قتال الفتنة المشهور رضي الله عنهم أجمعين<sup>(٧)</sup>، فقد اتهموهم بالكفر لاعتقادهم أنهم حكموا بغير ما أنزل الله، وأنهم ظلموا واقتتلوا<sup>(٨)</sup>.

(١) قبيلة من جهينة.

(٢) رواه البخاري حديث رقم ٤٠٣١، ومسلم حديث رقم ٩٦.

(٣) انظر عن آثار الحكم بالردة: "المغني" لابن قدامة: ٢٥٠/٦.

(٤) رواه البخاري حديث رقم ٥٧٥٢، ومسلم حديث رقم ٦٠.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى " ١٢ / ٥٠١، و"فتح الباري" ٣٠١/١٢.

(٦) انظر عنهم "مقالات الإسلاميين" للأشعري [ت٣٢٤] ص ٨٦ وما بعدها، "الفرق بين الفرق" للبغدادي

[ت٤٢٩] ص ٥٤ وما بعدها، "الفصل" لابن حزم [٥٤٨] ٤/٤٤٤-١٤٦، "الملل والنحل" للشهرستاني

[٥٤٨] ١١٤/١ وما بعدها، "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين" للرازي [ت٦٠٦] ص ٤٦-٥١.

(٧) ومن الأخطاء الشائعة اعتبار قتال الجمل وصفين بين علي ومخالفيه من باب قتال أهل البغي المأمور به،

والصواب الذي عليه الجمهور أنه قتال فتنة القاعد فيه خير من القائم. انظر "منهاج السنة" لشيخ الإسلام ابن

تيمية ٥٠١/٤-٥٠٤.

(٨) انظر: التمهيد لابن عبد البر ٣٢١/٢٣-٣٢٥، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٤٨٢/٧، ٨٩/١٩.

وزعم الخوارج أن الحاكم الجائر يدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، وأن الآية تشمل كذلك من حكم الرجال مطلقاً، كما فعل علي ومعاوية، والحق أن الآية عامة تتناول الكافرين الأكبر والأصغر بحسب حال الحاكم<sup>(١)</sup>، وفي الحاكم غير الملتزم بالشرع أصلاً المعرض له، المستبدل بشريعة الله غيرها، فهذا الذي كفره أكبر مخرج من الملة، أما حكام الجور الملتزمون بشرع الله في الأصل فالكفر في حقهم أصغر إذا تعمدوا الجور في حكم ما<sup>(٢)</sup>، كما بين ذلك ابن عباس رضي الله عنهما بقوله في معنى الآية: كفر دون كفر<sup>(٣)</sup>.

واحتج عليهم علي رضي الله عنه في ندب حكام يجتهدون في تحري الصلح بين المؤمنين حال الفتنة بقوله تعالى في الزوجين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ (النساء: ٣٥)<sup>(٤)</sup>، فالإصلاح بين أمة محمد ﷺ أولى، وكذا يدل على ذلك الحكمان المذكوران في جزاء قتل الصيد للمحرم، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (المائدة: ٩٥)، بل إن وقوع الاقتتال بين المؤمنين نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ الْمُؤْمِنِينَ إِصْلَاحًا بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات: ٩، ١٠)، فلم يمنع اقتتالهم من تسميتهم مؤمنين إخوة.

وتبع الخوارج على هذا الغلو المعتزلة، إلا أنهم لم يتجاسروا على إطلاق الكفر على صاحب الكبيرة، فابتدعوا المنزلة بين المنزلتين، فأخرجوه من الإيمان ولم يدخلوه في الكفر، لكنه في الآخرة مخلد في النار مع الكافرين لعدم تلك المنزلة هنالك!<sup>(٥)</sup>، موافقة منهم للخوارج فخالقوهم في الاسم ووافقوهم في الحكم الأخروي.

(١) مدارج السالكين ١/٥٢.

(٢) انظر "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للشنقيطي ١/٤٠٧، ٤٠٨.

(٣) رواه الطبري في تفسيره ٦/٢٥٦.

(٤) انظر: مسند الإمام أحمد ١/٨٦.

(٥) انظر: "مقالات الإسلاميين" للأشعري ص ٢٧٠، "شرح الأصول الخمسة" للفاضي عبد الجبار بن أحمد

[ت ٤١٥] ص ٦٦٦، ٧٠١.

والحامل للخوارج على تكفير المسلمين بمجرد كبائر الذنوب التي دون الكفر الصريح أنهم اعتبروا حقيقة الإيمان المقابلة للكفر هي الإتيان بجميع فرائض الإسلام واجتناب جميع نواهيه، فمن أخل بشيء من ذلك انهدم إيمانه فصار من الكافرين<sup>(١)</sup>.

وقابل الخوارج والمعتزلة طائفةً أخرى، انزعجوا من تكفير عصاة المسلمين غاية الانزعاج، لكنهم راحوا يداوون هذا الخلل بخلل آخر، وهو أنهم أخرجوا الأعمال من حقيقة الإيمان ومسماه، وأنكروا تبعاً لذلك قابلية الإيمان للزيادة والنقصان والتجزؤ والتبعض، واعتبروا ذلك حللاً جذرياً وحاسماً لمشكلة تكفير عصاة المسلمين، وهذه الطائفة هم من عُرفوا بالمرجئة<sup>(٢)</sup>، سُموا بذلك لإرجائهم العمل عن مسمى الإيمان، والإرجاء في اللغة التأخير، ومنه قول الملائكة لفرعون: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ (الأعراف: ١١١)، أي أخرهما وأجلهما، يعنون موسى وهارون. وموطن الخلل في فهم المرجئة لحقيقة الإيمان يكمن في أمور:

أ / مخالفتهم لمدلول النصوص المصرحة بازدياد الإيمان ودخول العمل في حقيقته<sup>(٣)</sup>، كقوله تعالى: ﴿لِيَزِدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ (الفتح: ٤) وما في معناه، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣)، أي صلاتكم إلى بيت المقدس<sup>(٤)</sup>، وقوله ﷺ: (الإيمان بضع وستون - وفي رواية: وسبعون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان)<sup>(٥)</sup>.

ب / مخالفتهم إجماع السلف على دخول الأعمال في مسمى الإيمان، وقد حكى هذا الإجماع الإمام الشافعي وأحمد وابن عبد البر وغيرهم.

ج / موافقتهم الخوارج والمعتزلة في اعتبار الإيمان حقيقة واحدة غير قابلة للتجزئة والتبعيض والزيادة والنقصان، لكن أولئك جعلوه يذهب بذهاب بعضه، وهؤلاء جعلوه لا يتأثر ولا ينخدش مهما أخل صاحبه بالفرائض العملية وغشي الكبائر!

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤٨/٧.

(٢) انظر عنهم: "مقالات الإسلاميين" للأشعري ص ١٣٢ وما بعدها، "الفرق بين الفرق" للبغدادي ص ١٩٠-١٩٥، "الملل والنحل" للشهرستاني ١٣٩/١.

(٣) انظر هذه النصوص في "تعظيم قدر الصلاة" للمروزي [ت٢٩٤] ٣٩٩/١ وما بعدها.

(٤) ذكره البخاري تعليقاً في كتاب الإيمان، باب: الصلاة: الصلاة من الإيمان، و رواه أبو داود الطيالسي في مسنده حديث رقم ٧٢٢، والمروزي في "تعظيم قدر الصلاة" ٣٤٤-٣٤٢/١ عن البراء بن عازب وغيره من السلف، وذكر البيهقي في "شعب الإيمان" ٤٤/١ إجماع المفسرين على ذلك.

(٥) رواه البخاري حديث رقم ٩، ومسلم حديث رقم ٣٥.

وكما ترتب على بدعة الخوارج قديما التجني على المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم، فقد ترتب على بدعة المرجئة استهانة العصاة بحدود الله، والاستخفاف بفرائض الإسلام وشرائعه.

والحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وكان عليه سلف الأمة أن الإيمان قول وعمل باللسان والقلب والجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولا يزول بالكلية إلا بالنواقض التي جاء التصريح في الأدلة بأنها تنافي الإيمان من أساسه، مثل الشرك الأكبر في العبادة أو في الربوبية، ومثل الاستهزاء بالله وكتابه ورسوله، ومثل استحلال ما حرم الله، وإنكار معلوم من الدين بالضرورة علما كان أو عملا، كأركان الإيمان الستة وكوجوب التحاكم إلى الشريعة الإسلامية، وكوجوب موالة المؤمنين والبراءة من الكافرين، وكفرضية الصلاة والزكاة والحج وصيام رمضان، وكتحريم الربا والزنا والميتة ولحم الخنزير والدم المسفوح ونحو ذلك.

ويجدر هنا التنبيه إلى الفرق الكبير بين قول الخوارج قديما بكفر مرتكب الكبيرة مطلقا، وبين تأول بعض العلماء في إلحاق بعض الكبائر بنواقض الإيمان الصريحة؛ اجتهادا منهم في فهم عمومات النصوص، مع ورود الدليل الخاص المرجح لخلاف قولهم، فلا يجوز اعتبار اجتهادهم خلافا عقديا كحال الخوارج، وإن ترتب على اجتهادهم أحيانا بعض المفاسد العملية؛ فباب الرد عليهم والتنبيه على مجانبتهم الصواب في اجتهادهم أوسع من رميهم بالزيغ والابتداع.

كما يجدر التنبيه أيضا إلى الفرق الكبير بين قول المرجئة بخروج العمل من مسمى الإيمان، ونفي الكفر العملي مطلقا تبعا لذلك، وبين اشتراط الاعتقاد أو الاستحلال في بعض نواقض الإيمان لدليل معين.

ومن الخلل العظيم الواقع في باب التكفير عدم التفريق بين ما كثر وروده في الكتاب والسنة وعلى ألسنة العلماء من الحكم بالكفر والفسق والبدعة على الوصف المستحق لهذا الحكم، كأن يقال: من استهزأ بالله وآياته ورسوله فهو كافر، ومن أكل الربا فهو فاسق، ومن أول الصفات الإلهية على غير منهج السلف فهو مبتدع، وبين الحكم على المعين بهذه الأحكام؛ فإن بين الأمرين فارقا عظيما يترتب على إهماله مفاسد جمّة، فالأول لا يترتب عليه سوى الزجر والنصيحة والتحذير والوعيد الأخروي، وهو الذي ينبغي أن يكون في خطاب من يدعو إلى الله، على أن يُضم إليه خطابُ الترغيب والرفق كما هي طريقة القرآن، والثاني لا يُصار إليه إلا

اضطرارا، كأن يُبتلى المرء بولاية أمر المسلمين أو القضاء بينهم، فيُرفع إليه شخصٌ بعينه ارتكب ناقضا من النواقض، فهنا لا يُحكم برده عن الإسلام إلا بثلاثة شروط:

- ١- قيام الدليل القاطع على أن ما ارتكبه ناقض من نواقض الإسلام.
- ٢- قيام الحجة الشرعية عليه.
- ٣- انتفاء موانع التكفير عنه، وهي الجهل والتأول والإكراه<sup>(١)</sup>.

وهذا الأمر الخطير لا يحكم فيه إلا أهل الرسوخ في العلم الذين يعرفون الأحكام ومآلاتها ومناطها وما يترتب عليها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، وإنما أصل هذا من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين؛ لما يعتقدون أنهم أخطأوا فيه من الدين. وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين<sup>(٢)</sup> لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ؛ وليس كل من يترك بعض كلامه خطأ يكفر ولا يفسق؛ بل ولا يأثم؛ فإن الله تعالى قال في دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال: قد فعلت"<sup>(٣)</sup>

ومن التفصيل السابق يتبين أن التكفير حكم شرعي له ضوابطه، لا يجوز ذمه مطلقا، كما لا يجوز الاجترار عليه إلا بينة كالشمس في رابعة النهار، كما قال النبي ﷺ فيما رواه جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض قلنا: أصلحك الله حدث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي ﷺ، قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه فقال: ( فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله: إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان )<sup>(٤)</sup>.

وقد غلط فيه طائفتان:

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٢٥/١٣)، (٣٤٦/٢٣)، (١٦٥ / ٣٥)، والإيمان الأوسط ص ١٥١.

(٢) وكذلك ولا تهم وعامتهم .

(٣) مجموع الفتاوى ( ١٠٠ / ٣٥ ) والحديث أخرجه مسلم حديث رقم ٣٤٥ .  
رواه البخاري حديث رقم ٦٦٤٧، ومسلم حديث رقم ١٧٠٩ .

إحداهما: رأت أن المعين لا يكفر أبداً، فأغلقت باب الردة بدعوى صعوبة التطبيق على المعين، لوضعها شروطاً من عندها يمتنع عندها تطبيقها على المعين، بل تجاسر بعضهم بنفي الكفر حتى عن اليهود والنصارى ومن شاكلهم.

وغلت ثانية فقالت: إذا وجد الحكم العام على فعل من الأعمال فإنه كفر دخل فيه جميع الأفراد ممن وقع منهم هذا الفعل المكفر، وكفروا بأعيانهم، دون النظر إلى كل فرد على حده من حيث توفر الشروط وانتفاء الموانع.

ووفق الله تعالى أهل السنة والجماعة إلى الحق الذي دلت عليه الدلائل الشرعية فإنهم لم يقولوا أن المعين لا يكفر أبداً، كما أنهم لم يوقعوا التكفير على من فعل المكفر دون النظر إلى عوارض الأهلية.

### المبحث الثالث: مفهوم العبادة:

يرجع معنى العبودية إلى ما يقابل الحرية من فقدان الملكية للذات وحق التصرف فيها، وهذا ما ينطبق على العبد المملوك الرقيق، ولا شك أن هذا القدر من العبودية الذي كان جارياً بين المخلوقين ملازم للذل، كما قد يشوبه شيء من الحب من العبد لسيده إذا كان محسناً إليه، كما كان بين النبي ﷺ وبين مولاه زيد بن حارثة وابنه أسامة، الذي كان يسمى حَبَّه وَاِبْنَ حَبِّه<sup>(١)</sup>، لكن لا تصير العبودية عبودية تَأْلُهُ إلا ببلوغ الحب غايته وانضمام كمال الذل إليه، فإذا اجتمع كمال الحب مع كمال الذل صار ذلك تَأْلُهَا<sup>(٢)</sup>، ومن صرف ذلك لغير الله فقد اتخذها إلهاً مع الله، ولو لم يعتقد فيه الربوبية المطلقة، لكن من جمع الحب مع الذل لغير الله فإنه لا ينفك من اعتقاد قدر من الجلال والكمال والإفضال في محبوبه ومرهوبه؛ وتلك من معاني الربوبية دون شك.

وقد شرع الله لنا كثيراً من الشعائر غير واضحة العلة كأوقات الصلوات وعدد ركعاتها وأشواط الطواف وحصيات الجمار وصفة الوضوء والغسل وكثير من أحكام العبادات التي يذكر الفقهاء أن الحكمة فيها تعبدية، وما ذلك إلا لتجلى العبودية في التسليم لأمر الله والخضوع

(١) انظر: صحيح البخاري: ١٣٦٦/٣، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أسامة بن زيد، حديث رقم ٣٥٢٦،

وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ١٢٥/١.

(٢) انظر: "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣١/٦، مجموع الفتاوى له ١٥٣/١٠.

لقضائه الشرعي؛ إذ لو لم يكن الخضوع للأمر الشرعي مبنياً إلا على حكمة معقولة المعنى لم تتجلَّ عبودية الابتلاء التي خلق الله المكلفين لأجلها؛ فإن خضوع الإنسان لما يعلم فيه تحقيق المصلحة ودرء المفسدة الدنيويتين أمر لا يتميز فيه المؤمن من الكافر، فإذا جاء حكم شرعي ليس له حكمة ظاهرة سوى إظهار الذل والخضوع لأمر الله والتعبد إليه بامتثال أمره طلباً لمرضاته ظهر هنالك على الحقيقة صدق الإيمان، بل إنه من أجل هذه الحكمة الكلية يأتي أحياناً الحكم الشرعي غير ظاهر الحكمة، كما في قصة ذبح إسماعيل عليه السلام، وقد قال الله فيها: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ أَلْبَتُوَ الْمَيِّنُ﴾ (الصفوات: ١٠٦)، وكما في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وقد قال الخضر في آخرها: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ (الكهف: ٨٢)، وكما في محاسبة الناس على ما يكتمونونه من الخواطر مع أنها خارج قدرتهم، فأنزل الله في شأن ذلك: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، فمن لم يراعِ هذه الحكمة دخل في السفهاء المذكورين في الآية، وقد جاء بعدها ما يؤكد هذا في قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ بِاللَّهِ ..﴾ (البقرة: ١٧٧).

وكما تدخل هذه الحكمة في الأحكام العملية، تدخل كذلك في الأخبار المستغربة المستبعدة؛ فإن العبد لو لم يصدق إلا ما سوَّغه عقله بموازن الخلق لم تتجلَّ عبوديته في قبول أخبار الرسول، لذلك جاء الرسل بكثير من الأخبار المحيرة للعقول، امتحاناً وابتلاءً وتمحيصاً لرسوخها في الإيمان، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ (الكهف: ٩)، يعني في آيات الله ما هو أعجب من خبرهم<sup>(١)</sup>.

فإذا تقرر مما سبق حقيقة معنى العبودية لله تعالى وأن مبنائها على الجمع بين الحب والذل ظهر أن عبادة الله تعالى لا تتجلى في الشعائر والفرائض وحسب، بل إنها تشمل كل ما تؤثر فيه هذه الحقيقة من حياة الإنسان، فكل تصوراته وتصرفاته إذا كانت خاضعة لهذه الحقيقة فإنها مشمولة باسم العبادة، فكل حياة المؤمن إذن عبادة لله، بالمعنى الواسع للعبادة، وهو محبة الله تعالى والخضوع التام لأمره.

(١) انظر: تفسير الطبري ١٥/١٩٧.



وقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣) لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)، فجعل الحياة كلها لله وحده. كما دل عليه ما رواه أبو ذر رضي الله عنه ( أن ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون، إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليل صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرا) <sup>(١)</sup>، فهم لما توهموا أن القرية التي يكون عليها أجر وثواب تنحصر في شعائر الصلاة والصيام والصدقة صحح لهم النبي صلى الله عليه وسلم هذا الفهم، وبين لهم أن العبادة التي يُطلب بها الأجر أوسع مما توهموا بكثير، فهي تتسع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة <sup>(٢)</sup>، ولو لم يكن متعبداً بصفته وهيئته كالشعائر، بل تكفي فيه النية الصالحة، حتى لو كان من قبيل الشؤون العامة التي لا تختص بالعبد وعلاقته بربه كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحتى ما يوافق شهوة العبد ورغبته من المأكل والمشرب والمنكح إذا كان ذلك مراعى في ذلك ما شرع الله، مبتغيا ثواب الله.

وبهذا نعلم أن ما عليه فهم كثير من الناس اليوم من حصر عبادة الله في الشعائر الظاهرة والمواسم المحدودة مخالف للمعنى الصحيح لحقيقة العبودية في الإسلام، كما أن من يسعى لجعل المجتمعات الإسلامية مجتمعات علمانية لا تستظل بالشرع في جميع شؤونها الدنيوية هو في الحقيقة مصادم لصلب العقيدة الإسلامية التي لا تبقى قدرا من حياة المسلم خارج إطار العبودية لله وحده.

### المبحث الرابع: مفهوم القضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، وهو داخل في الإيمان بالله من جهة أن معناه الإيمان بقدرة الله تعالى على أفعال العباد الاختيارية، وأن كل ما يأتون أو يذرون

(١) رواه مسلم في صحيحه حديث رقم ١٠٠٦.

(٢) هذا هو تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية للعبادة كما في رسالته "العبودية" ضمن مجموع الفتاوى ١٤٩/١٠.

فقد سبق به علم الله تعالى، ومع ذلك فهو لا يخرج عن عموم مشيئة الله تعالى وخلقه كل شيء، فلا يحدث شيء في ملكوت السموات والأرض رغما عن الله تعالى، وإنما يحصل بإذنه الكوني. ومع أن هذا المعنى داخل في الإيمان بكمال قدرة الله ونفاذ مشيئته إلا أنه أُفرد ذكره ضمن أصول الإيمان وأركانه<sup>(١)</sup> لكثرة ما لبس الشيطان فيه على الناس.

والذين ضلوا في هذا الباب إنما ضلوا لما عارضوا بين مقتضى الحكمة والعدل الإلهي، وبين مقتضى القدرة والمشيئة والملك، فمن غلب الأولى أفضى به الأمر إلى إنكار القدر السابق، متوهماً أنه يلزم منه ارتفاع مسؤولية العباد عن أفعالهم الاختيارية، فيكون حسابهم وعقابهم إذاً ظلماً، ومن غلب الثانية أفضى به الأمر إلى إنكار حقيقة الحكمة والعدل الإلهي، متوهماً أن هذا مقتضى الربوبية المطلقة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، والحق الذي جاء به الأنبياء يجمع ما عند الطائفتين من الحق، ويراعي مقتضى صفات الله جميعاً، فالإنسان له قدرة وإرادة حقيقتان مؤثرتان، لكنهما من خلق الله، ولا تخرجان عن مشيئته العامة وقدرته التامة<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان هذا الانحراف باتجاهيه وقع غالباً لدى المشتغلين بالعلم، فإن لونا آخر من الانحراف في فهم عقيدة القضاء والقدر تَفَسَّى بين كثير من عامة المسلمين، وذلك حين فهموا أن مقتضى هذه العقيدة الاستسلام للواقع ولو كان سيئاً، وعدم السعي في تغييره والتعاس عن العمل وإيثار السلبية، وأن ذلك من الرضا بأقدار الله المأمور بها شرعاً، ولم يدركوا الفرق بين الرضا عن التقدير الذي هو علم الرب وكتابته ومشيئته وخلقه للمقدور، وبين المقدور الذي هو مخلوق مُراد للرب تكويناً لا ديناً، فالأول وصف الرب وفعله، يجب الرضا به على كل حال، والآخر لا يجوز الرضا عنه إلا في المصائب دون المعائب، ويجب السعي في تغييره، وهذا السعي من قدر الله<sup>(٣)</sup>؛ ولذا قال النبي ﷺ: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ حَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ حَيْرٍ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ

(١) تقدم الكلام عن هذا الركن وأدلته ومراتبه في المقرر الأول للثقافة الإسلامية.

(٢) انظر: "شرح العقيدة الطحاوية" لابن أبي العز الحنفي ص ٤٩٤.

(٣) انظر: المرجع نفسه ص ٢٨٧.

أَنْيَّ فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ (١)، فالعجز والكسل والاستسلام والوهن ليس من صفات المؤمن الذي له الخيرية عند الله. ولهذا لما وقع الطاعون بالشام زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه امتنع من دخولها، فقال أبو عبيدة ابن الجراح: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ (٢).

ولما قال النبي ﷺ: ( ما منكم أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. قال له الصحابة: يا رسول الله، ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ﴾ الآيات (الليل: ٥-١٠) (٣).

### المبحث الخامس: مفهوم التوكل:

التوكل على الله تعالى من أعظم العبادات القلبية، ومن أجل حقائق الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٢٣)، فجعل التوكل على الله شرطا في الإيمان، فأصله شرط لصحة الإيمان، وكماله شرط لكمال الإيمان (٤)، ولذا قيل أن التوكل نصف الدين، ونصفه الثاني العبادة؛ لأن الدين استعانة وعبادة، كما قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاحة: ٥)، وقال تعالى: ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (هود: ١٢٣)، وقد ورد التوكل في كثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴾ (الفرقان: ٥٨)، وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٣١٧﴾ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٣١٨﴾ وَتَقَلُّبِكَ فِي السُّجُودِ ﴿٣١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٣).

(١) أخرجه مسلم حديث رقم ٦٩٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه حديث رقم ٥٣٩٧، ومسلم حديث رقم ٢٢١٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه حديث رقم ٤٦٦٦، ومسلم حديث رقم ٢٦٤٧.

(٤) انظر: "التسهيل لعلوم التنزيل" لابن جزى الكلبى: ١٢٢/١.

وجاء في الصحيحين في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب (هم الذين لا يستترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتنون، وعلى ربهم يتوكلون) (١).

وقد جاء في الترمذي وابن ماجة عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: ( لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً، وتروح بطاناً) (٢).

وحقيقة التوكل: الاعتماد على الله عز وجل وحده في جلب المنافع ودفع المضار، والثقة بكفائته، والتبرؤ من الحول والقوة إلا به، مع فعل الأسباب المأذون فيها من غير اعتماد عليها ولا ركون إليها؛ فخالق الأسباب ومسببها هو الله وحده. فلا ينفعه قوله ( توكلت على الله ) مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء) .

وقد وقع الانحراف في هذا العمل العظيم من أعمال القلوب، وكانت له أثر سيء على بعض أبناء الأمة في عجزهم وضعفهم، أو تعلقهم بغيرهم تعلق أورثهم خوراً وذلاً، أو تركهم لما يجب الأخذ به من أسباب القوة والعزة..

وكان للفكر الصوفي المنحرف، وظهور الفرق: أكبر الأثر في انتشار هذه المظاهر من الانحراف، يضاف إلى ذلك: ما ساهم به الغزو الفكري لهذه الأمة من نشر للمذاهب المادية، التي لا تربط النتائج إلا بالمادة المحسوسة، وتلغي جانب الغيب والإيمان بالله عز وجل وقضائه وقدره وملكه وقهره وعظمته...

وما كان لهذه الأفكار كلها أن تؤثر لو كان العلم وفهم العقيدة الصحيحة منتشراً بين الأمة، ولكن لما وافق هذا جهلاً عند بعض المسلمين بحقيقة هذا الدين وأصوله: نشأ من ذلك بعض المفاهيم الخاطئة للتوكل كما نشأ الضعف في التطبيق لهذه العبادة العظيمة من ذلك ما يلي:

أولاً: النظر إلى التوكل على أنه تواكل وترك للأسباب:

والذين وقعوا في هذا الانحراف على صنفين:

أ/ صنف يبرر عجزه وكسله وتفريطه على أنه توكل مع علمه التام أن التوكل لا ينافي فعل الأسباب والأمر واضح عنده بلا شبهة، ولكنه ينطلق من هذا الفهم المنحرف في تبرير عجزه،

(١) رواه البخاري حديث رقم ٥٧٠٥، ومسلم حديث رقم ٥٤٦.

(٢) رواه الترمذي حديث رقم ٢٣٤٤، وقال حسن صحيح وصححه الألباني.

فهذا عجزه توكل، وتوكله عجز، وهذا الصنف من الناس لا ينقصه إلا أن ينقي الله ﷻ، ولا يبرر شهوته بشبهة، وفي ذلك يقول ابن القيم: (وكثيراً ما يشتهه في هذا الباب: الحمدُ الكامل بالمذموم الناقص. ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، وإلقاء حمل الكَلِّ فيظن صاحبه أنه متوكل، وإنما هو عامل على عدم الراحة... )<sup>(١)</sup>.

ب/ أما الصنف الثاني: وفهم قوم أن التوكل يتطلب ترك الأخذ بالأسباب، فقد أتى من جهله بحقيقة التوكل على الله ﷻ، وجهله بسنن الله ﷻ في ارتباط المسببات بالأسباب، حتى روج بعض المتصوفة أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل على الله، بل وصل الحال ببعضهم إلى ترك العمل والاكتساب بدعوى التوكل على الله، ولو كان هذا الفهم صحيحاً لكان أولى الناس بتطبيقه سيد المتوكلين، فقد كان عمل النبي ﷺ كله قائماً على اتخاذ الأسباب مع التوكل الكامل على الله، فاتخذ للنصر أسباباً، واتخذ الأدوية لنفسه ولغيره، واتخذ الأسباب الكريمة لعيشه، يقول ابن القيم - رحمه الله - عن توكل الرسول وصحابته الكرام مع أخذهم بالأسباب، فيقول: (... وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد، وجميع أصحابه، وهم أولو التوكل حقاً... فكانت همهم ﷻ أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي؛ فيجعله نصب عينيه، ويحمل عليه قوى توكله)<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألو الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَآتَقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧)<sup>(٣)</sup>، وزوي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله أعقلها وتوكل أو أطلقها وتوكل؟ - يعني ناقته -، قال: اعقلها وتوكل<sup>(٤)</sup>. وتواتر عن النبي ﷺ أنه كان يأخذ بالأسباب، كاتخاذ دليلاً في الهجرة، واختبائه في الغار، وأعماله وأوامره العسكرية يوم بدر، ومظاهرتة بين درعين يوم أحد، وحفره الخندق يوم

(١) مدارج السالكين، ١٢٣/٢، ١٢٤.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ١٣٤/٢، ١٣٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ١٤٢.

(٤) رواه الترمذي في سننه حديث رقم ٢٥١٧ وابن حبان في صحيحه حديث رقم ٧٣١، وحسنه الألباني في

"صحيح الجامع الصغير وزيادته": حديث رقم ١٠٦٨.

الأحزاب، واتخاذها جميع الأسباب الشرعية والمادية للنصر في جميع غزواته، وهو أكمل الخلق توكلًا عليه الصلاة والسلام<sup>(١)</sup>.

ولا يكون التوكل شرعياً إلا إذا أخذ بالأسباب المادية المألوفة وإلا فهو تواكل، وقد قال تعالى عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾ (٨٤) ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيلًا﴾ (الكهف: ٨٤ - ٨٥)، قال السعدي: "أي أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه ما به يستعين على قهر البلدان وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها أي استعملها على وجهها فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادراً على السبب، فإذا اجتمعت القدرة على السبب الحقيقي والعمل به حصل المقصود وإن عدما أو أحدهما لم يحصل"<sup>(٢)</sup>.

فإن هذا الانحراف في مفهوم التوكل والأخذ بالأسباب ومعرفتها أضعف التفكير العلمي عند المسلمين، وتوقفوا عن السير في كشف سنن الكون، فأهملت العلوم وفقد الإبداع العلمي الذي عرف به المسلمون في القرون الأولى للإسلام في شتى مجالات العلوم الدينية والدنيوية، وانتشرت الأمية في كثير من ربوع العالم الإسلامي، وتخلفت الصناعة، وأصبحت السيادة لأهل الدجل والأساطير والحرافة، واصحبنا لا نرى تعلم علوم الصناعة والزراعة والطب ونحوها عبادة بها يكون صلاح الدنيا وقوة الأمة؛ ولذا فإن الأخذ بالأسباب بضوابطها الموضحة سابقاً لا ينافي التوكل، بل إن تركها قدح في حكمة الله ﷻ، ونقص في العقل، وما علم صاحب هذا الفهم أن التوكل عليه ﷻ هو أقوى الأسباب في حصول المطلوب ودفع المكروه، يقول الإمام ابن رجب . رحمه الله .: "واعلم أن تحقيق التوكل لا يُنافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، كما قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء: ٧١) " (٣) .

ثانياً: الاعتماد الكلي على الأسباب:

(١) انظر مثلاً عن أخذه بالأسباب في تدابير الحرب: "زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن القيم: ٩٥/٣ وما بعدها.

(٢) تفسير السعدي ٤٨٥/١.

(٣) جامع العلوم والحكم، ص ٤٩٨ .

ويقابل الانحراف السابق انحرافاً في الجانب المقابل، ألا وهو الاعتماد على فعل الأسباب والتعلق بها محبةً وخوفاً ورجاءً، وتعليق تحقيق الأمور عليها، ومعلوم ما في هذا الانحراف من خطر شديد على التوحيد، فهو إما شرك أكبر: إذا اعتقد فاعل الأسباب أنها تؤثر استقلالاً، وإما شرك أصغر: إذا لم يعتقد ذلك، ولكنه تعلق بها وحابي من أجلها، وجعل أكثر اعتماده عليها في حصول المطلوب وزوال المكروه؛ ولذا كثر في المجتمعات الإسلامية الركون للأسباب دون النظر لمسبب للأسباب القوي العزيز، الفاعل لما يريد، الغالب على أمره، فركن بعض الموظفين في رزقه على وظيفته، وأصبح يحابي في دينه من أجل المحافظة عليها، وركن بعض التجار في طلبه للمال على الأسباب التي يبذلها، وظن بعض الناس أن الأمة لن تنصر إلا إذا ما ملكت جميع الأسباب التي يمتلكها العدو، فأورث ذلك ذلاً وخوراً وهلعاً وتبعية وضعفاً، لأننا لم ناوي إلى ركن شديد، لأن الوسائل وإن ضعفت فهي مع التوكل على الله قوية، والوسائل وإن قوية فهي بدون التوكل على الله ضعيفة، قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٠)، وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِسَارِكِيْ ءَ الْهَيْتَانَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَ الْهَيْتَانَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنْ يَتُوكَلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ءَ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ هود: ٥٣ - ٥٨)؛ لهذا قال تعالى ممثنا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٣)، أي قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد، وقال تعالى في الآية الأخرى التي تدل على قوة الأسباب: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَسَتْ مَدْرِيْنِ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: ٢٥ - ٢٦).

وهذا الضعف القادح في التوكل على الله ﷻ عند كثير عند كثير من الناس، وهم ما بين مُقِلٍّ ومكثّر أورث في الأمة ضعفاً وخوراً، وأفقد كثيراً من الجهود بركة وتوفيقاً.

## المبحث السادس: مفهوم الزهد:

يرجع معنى الزهد إلى القلة وعدم الرغبة، يقال: زهد في الشيء، وزهد عنه، أي لم يرغب فيه<sup>(١)</sup>، ومنه الزهد في الدنيا المأمور به شرعا في نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ (النساء: ٧٧)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (لقمان: ٣٣)، وقوله ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)<sup>(٢)</sup>.

والزهد في الدنيا لذاته غير مشروع ولا يجوز، وإنما المراد الزهد في الدنيا المانعة من إرادة الله والدار الآخرة، والزهد بهذا المعنى خصلة شريفة ومرتبة سامية من مراتب الإيمان، إلا أن الخلل قد دخل على كثير من المسلمين في فهمه من جهة تصور أن الزهد لا يمكن أن يجتمع مع الاهتمام بأمور الدنيا ونيل متاعها الزائل وزينتها الفانية، فيما أن يؤثر العبد الآخرة ويعرض عن الدنيا تماما، وإما أن يعتني بدنياه على حساب دينه وآخرته.

وقد دلت على انحراف هذا التصور أدلة كثيرة من القرآن والسنة تؤكد على أن الزهد المعتبر شرعا لا يكون بالإعراض الكلي عن الدنيا، وإنما يكون بالأخذ بما يحتاجه ويشتهي المرء من متاعها المباح على وجه الاقتصاد، مع الحذر من الافتتان بها والركون إليها. ومن تلك الأدلة:

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢٩)، وما ذكره الله تعالى من قول قوم قارون له: ﴿وَأَبْتَعْ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧) ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ (المائدة: ٨٧، ٨٨)، وما في معناها من الآيات التي فيها الأمر بالأكل من الطيبات.

(١) انظر: "لسان العرب" ١٩٦٣/٣-١٩٨٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٦٠٥٣.



وما رواه البخاري عن أبي جحيفة قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال: كل فيأني صائم. قال: ما أنا بأكل حتى تأكل. فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن. قال: فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: صدق سلمان (١)، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجَعَلْتُ قِرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) (٢).

وعن عمرو بن العاص قال: بعث إلي رسول الله ﷺ فقال: خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني، فأتيته وهو يتوضأ فصعد في النظر ثم طأطأه فقال: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأزعب لك من المال رغبة (٣) صالحة. قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله ﷺ. فقال: يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح (٤).

وفي معنى هذا الحديث النصوص التي تحث على الجهاد بالغنائم الدنيوية وأنها منة من الله تعالى ومن الرزق الحلال، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْزَنْتُمْ أَرْضَهُمْ وَدَيْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا ﴾ (الأحزاب: ٢٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ (الفتح: ٢٠)، وقوله ﷺ: (وأحلت لي الغنائم) (٥)، وما في معناه، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قد كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول أعطه أفقر إليه مني حتى أعطاني مرة مالا فقلت

(١) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٥٧٨٨.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ١٢٨/٣، والنسائي في السنن الصغرى حديث رقم ٣٩٣٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣١٢٤.

(٣) أي أدفع لك دفعة من المال، وأصل الزعب الدفع، انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣٠٢/٢، مادة زعب.

(٤) رواه أحمد في مسنده: ١٩٧/٤، وابن حبان في صحيحه: ٧/٨، حديث رقم ٣٢١٠، والبخاري في الأدب المفرد: ١١٢/١، حديث رقم ٢٩٩، وقال محققو المسند (٢٩٩/٢٩): إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٥) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٤٢٧، ومسلم حديث رقم ٥٢١.

أعطه أفقر إليه مني فقال رسول الله ﷺ خذه، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تُتبعه نفسك<sup>(١)</sup>.

والأدلة على ذلك كثيرة لا تدخل تحت حصر، تشهد بأن الأخذ بما أحله الله من متاع الدنيا لا منقصة فيه، ولا مذمة إذا كان من غير سرف ولا مخيلة، ولم يكن ذلك بوجه حرام، وجماع ذلك في دعاء النبي ﷺ: ( اللهم إني أسألك القصد في الفقر والغنى )<sup>(٢)</sup>، فلم يسأل الفقر، بل ثبت أنه استعاذ منه<sup>(٣)</sup>، وإنما سأل القصد، وهو القوام المذكور في قوله تعالى عن عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٧)، كما ثبت عنه ﷺ أنه سأل الله الغنى فقال: ( اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى )<sup>(٤)</sup>. فالحاصل أن الشرع أرشد إلى التوفيق بين مطالب الدارين، ودعا إلى الموازنة بين متعلقاتهما، فلم يزهّد في الدنيا مطلقاً، بل أباح الاستمتاع بطبيعتها، والأخذ بأسباب القوة والعيش فيها، وإنما حذر من تعلق القلب بها واطمئنانه إليها حتى كأنه لا يرتقب الآخرة، على حد قول ابن عمر رضي الله عنهما: ( أحرص لدياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً )<sup>(٥)</sup>.

وقد أدت المفاهيم الخاطئة في مفهوم الزهد إلى ظهور أفكار ودعوات مضلة من ذلك الدعوة التزهيد في جمع المال مع الإشادة بالفقر، وترك العمل والمناصب الإدارية مع الانصراف إلى العبادة بمفهومها الضيق، حتى كثر نتيجة ذلك العطالة والبطالة في مجتمعات المسلمين، وانتشر الفقر والحاجة حتى أورثوا الأمة بلاء وضعفاً، جهلاً منهم بمبدأ الإسلام الذي يدعو إلى إثارة الآخرة على الدنيا، والعمل في الدنيا على أساس أن الحياة الآخرة هي الغاية، وأن الدنيا وما فيها لا تقصد لذاتها ولا تكون هدفاً أو غاية إنما هي وسيلة، وأن السعي لكسب الرزق وتحصيل المال مطلوب لكف النفس عن السؤال، وسد حاجة العيال، ونفع العباد، ونصرة الإسلام، والتقرب إلى الله من خلال الإنفاق، فهو قوام الحياة كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾ (النساء: ٥).

(١) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ١٤٠٤، ومسلم حديث رقم ١٠٤٥.

(٢) رواه النسائي في السنن الصغرى حديث رقم ١٣٠٥، وابن حبان في صحيحه حديث رقم ١٩٧١، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم ١٣٠١.

(٣) انظر سنن أبي داود حديث رقم ١٥٤٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث برقم ١٢٨٧.

(٤) رواه مسلم حديث رقم ٢٧٢١.

(٥) رواه الحارث في مسنده كما في المطالب العالية لابن حجر: ٣١٤/١٣.

وقد أوضح العلماء أن المقصود من ذم الدنيا الوارد في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ليس ذمًا لذاتها، وإنما هو تحذير من الانشغال القلبي بها؛ بأن يجعلها المؤمن غاية يسعى إليها بكل إمكانياته، ناسياً غايته الأساسية، وهي الفوز برضا الله تعالى، فنعمت الدنيا مطية المؤمن ووسيلة إلى التقرب إلى الله تعالى، وبغست الدنيا إذا كانت معبوده. وفي هذا المعنى قال العلامة المناوي رحمه الله: (فالدنيا لا تُدَمَّ لذاتها فإنها مزرعة الآخرة، فمن أخذ منها مراعيًا للقوانين الشرعية أعانته على آخرته، ومن نَمَّ قِيل: لا تركز إلى الدنيا، فإنها لا تبقى على أحد، ولا تتركها فإن الآخرة لا تنال إلا بها) (١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " فلا حمد على ترك الدنيا لغير عمل الآخرة كما لا حمد لطلبها لغير عمل الآخرة فثبت أن مجرد الزهد في الدنيا لا حمد فيه، كما لا حمد على الرغبة فيها وإنما الحمد على إرادة الله والدار الآخرة، والذم على إرادة الدنيا المانعة من إرادة ذلك... إذا قدر أن شخصين أحدهما يريد الآخرة ويريد الدنيا، والآخر زاهد في الدنيا والآخرة، لكان الأول منهما مؤمناً محموداً، والثاني كافراً ملعوناً، مع إن الثاني زاهد في الدنيا والأول طالب لها لكن امتاز الأول بفعل مأمور مع ارتكاب محذور والثاني لم يكن معه ذلك المأمور به فثبت أن فعل المأمور به من إرادة الآخرة ينفع والزهد بدون فعل هذا المأمور لا ينفع.

فالمحمود في الكتاب والسنة إنما هو إرادة الدار الآخرة، والمذموم إنما هو من ترك إرادة الدار الآخرة واشتغل بإرادة الدنيا، فأما مجرد مدح ترك الدنيا فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله (٢). فليس المقصود بالزهد في الدنيا رفضها، فقد يكون العبد أغنى الناس لكنه من أزهدهم؛ لأنه لم يتعلق قلبه بالدنيا، وقد يكون آخر أفقر الناس وليس له في الزهد نصيب؛ لأن قلبه يتقطع على الدنيا، فالزهد مرتبة قلبية؛ إذ هو إخراج حب الدنيا من القلب، بحيث لا يلتفت الزاهد إليها بقلبه، ولا ينشغل بها عن الغاية التي خلقه الله من أجلها، ولذا قال السلف: " أخرج الدنيا من قلبك وضعها في يدك أو في جيبيك، فإنها لا تضرك"، فالزاهد الحق هو النابع من الكتاب والسنة، المراعى فيه ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد وما يكرهه من ذلك، بنية صادقة تقربه إلى الله.

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٣/ص ٥٤٥.

(٢) لمجموع الفتاوى ج ٢٠ / ١٤٩.

## المبحث السابع: مفهوم الحرية:

الحرية تطلق ويراد بها مقابل العبودية، وهي في أصلها اللغوي تعني الأفضل والأكمل من كل شيء<sup>(١)</sup>، وقد جاء الإسلام والعرب يعرفون العبودية من خلال الرق، فالحر عندهم خلاف العبد وهو الرقيق المملوك الذي لا يتصرف كما يريد، وإنما وفق ما يريده سيده خلافاً لمن خرج من هذه العبودية إلى الحرية فأصبح حراً يتصرف كيف يشاء، وعليه فمفهوم العبودية لديهم مفهوم واضح<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء الإسلام ليخرج الناس من العبودية إلى الحرية، جاء لتحرير البشر والرقي بهم؛ تحريرهم من العبودية الباطلة والارتقاء بهم من خلال العبودية الحقة التي لا يحيا الإنسان حياة صحيحة إلا بها؛ وهي العبودية لله جل وعلا وهي التي تحفظ للإنسان كيانه وكرامته وحماه من كل ما يخرم هذه الحرية، جاء ليحرره من العبودية للشهوات والرغبات التي تملكهم وتحكم تصرفاتهم وتمنحهم شعوراً وهمياً بالحرية؛ وهي حرية زائفة لا قيمة لها، إلى الحرية الحقيقية التي يشعر معها الإنسان بحقيقة الحرية؛ إذ الحرية الحقيقية ليست في الفعل فقط بل هي أقوى وأظهر أحياناً في الترك، فالحرية لا تهتم فقط بما يجب أن يعمل بل ربما تهتم أكثر بما يجب أن لا يعمل.

والعرب في جاهليتهم قبل بعثة المصطفى كانوا يدركون المعنى الحقيقي للحرية، بعيداً عن مفهوم العبودية لله جل وعلا؛ وذلك أنهم كانوا يقولون بأن الإنسان ليس هو الذي أوجد نفسه، ولا هو الذي يبقيا وأن علمه مكتسب وهو علم ناقص، وأنه يعتمد في استمرار حياته على ظروف لا قبل له بالسيطرة عليها: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَئَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١)، فالضياء يأتيه من الشمس، والماء من المطر، والزرع من الأرض وهكذا، فإنسان

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: (٢٦٤/١).

(٢) الثقافة الإسلامية (ضمن سلسلة مناهج وإصدارات العلوم الشرعية، فئة المسلمين الجدد)، عبدالرحمن الزبيدي: ص(٨٥).

لا يملك من ذلك شيئاً أنى يكون حرّاً؟! وأنى يكون مستقلاً بقراره؟! وهؤلاء المقرون بوجود الخالق مقرون بأن الله وحده ذو العلم الكامل، والقدرة الكاملة والاستغناء الكامل فهو وحده الفعال لما يريد، أما الإنسان فهو مخلوق وبما أنه مخلوق فهو مملوك لخالقه والمملوك عبد، فالصفة التي تدل على حقيقة الإنسان هي كونه عبداً لا حرّاً، لكنه عبد لخالقه لا لمخلوقات مثله<sup>(١)</sup>.

وكذلك أن معنى العبودية لله في كل شؤون الفرد الذي جاء الإسلام يقرره ويؤكد عليه لم يثر إشكالات لدى الصحابة في مفهوم الحرية؛ بل بقي مفهوم الحرية والعبودية التي هي عبودية الاسترقاق بين البشر مستقلاً عن العبودية المتقررة للخالق سبحانه<sup>(٢)</sup>. وبقي متقرراً في مفهوم المسلمين أن العبودية هي لله تعالى ألم يقل رباعي بن عامر لرستم: ( جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد )، فهي هدف من الأهداف التي جاء الإسلام لتحقيقها وهو منح الناس حريتهم ورفع العبودية عنهم وتحقيقهم العبودية الحقّة لرب العباد سبحانه وتعالى.

كما لم تكن مسألة الحرية تمثل إشكالاً في القرون المفضلة كلها، حيث فهم الصحابة ومن بعدهم حقيقتها وعاشوا بها؛ لكن عند من بعدهم -لاسيما في المرحلة التي دخلت فيها علوم الكلام والمنطق والفلسفة إلى العالم الإسلامي- ظهرت تساؤلات جديدة حول حرية الإنسان إزاء قدر الله جل وعلا أي: هل الإنسان حر في أفعاله الإرادية أو أن إرادة الله مسيرة له حتى في هذه الأفعال، فهو يمارسها قسراً دون تصور أو أنه مختار؟ وبذلك ظهرت فرق منهم الجبرية الذين يرون أن الإنسان مجبور في كل حركاته وأنه كالريشة في مهب الريح، وفرقة القدرية الذين زعموا أن الإنسان طليق لمشيئته في أفعاله ولا سلطة لله عليه إلا في كونه سبحانه يعلم مسبقاً بفعله، وبقي أهل السنة وسطاً حيث قالوا: إن الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان وأمدّه بالعقل والإرادة وقوة الفعل والترك، وأنه سبحانه محيط بعلمه السابق وكتابته في اللوح المحفوظ ومشيعته الغالبة بكل شيء، وأنه سبحانه هو الذي يخلق أفعال العباد التي بها يأخذون ويتركون، ومع ذلك فكل إنسان في مقاله الاختيارية حر لا مكره يشعر بذلك بنفسه وهو يقبل أو يرفض<sup>(٣)</sup>.

(١) الإسلام لعصرنا (المجموعة الثالثة)، جعفر شيخ إدريس: ص ٢١.

(٢) الثقافة الإسلامية، عبد الرحمن الزنيدي: ص (٨٥).

(٣) الثقافة الإسلامية، عبد الرحمن الزنيدي: ص (٨٦).

وغير هذا الطرح لا نجد نقاشاً يدور حول الحرية في التراث الإسلامي القديم، ذلك أن مفهوماها واضح جلي لا يحتاج إلى مزيد بيان، لكن مع انتشار الأفكار الغربية وظهور الانحرافات الفكرية في ظل الانفتاح الإعلامي؛ ظهرت الدراسات والأبحاث التي تناقش الحرية أو من وجهة نظر غربية أو من وجهة نظر الإسلامية.

ولا شك أن فكرة الحرية لدى الغربيين اليوم هي إفراز لظروف وتحولات عاشها العالم الغربي، وهي في واقع الفكر الغربي المعاصر مثار نزاع حيث تتعدد لها المفاهيم وتتشعب حولها الرؤى، والشيء الظاهر فيها أنها مشتملة على شيء من الغلو الفاحش في الواقع الفكري المعاصر، وهو يعد ردة فعل عنيفة لأوضاع القرون الوسطى في مجالات التفكير والسياسة والمال، حيث كانت تمارس الكنيسة ضغوطاً رهيبية تتحكم من خلالها بحياة الناس، فنجدها قد سلبتهم حريتهم في تلك الجوانب، ولأجل ذلك جاءت الدعوة إلى الحرية المطلقة كتنقيض للفلسفة التسلطية؛ فقالت بالحرية المطلقة وهي الخلوص من كل قيد، والقدرة على الفعل المطلق<sup>(١)</sup>، وأشار هنا إلى أن هذا أيضاً لم يطبق، بل هي دعوة لم تتحقق على ما يريدون؛ لأن هذه الحرية المطلقة لا يمكن تطبيقها حيث يحدها القانون الذي وضعه المشرعون وهم بشر، بحدودٍ لا بدّ من الوقوف عندها وعدم تجاوزها، فالحرية المطلقة المنطلقة من جميع القيود غير معقولة وغير موجودة<sup>(٢)</sup>.

ولعلّ من المهم الإشارة إلى أن الإشكال في الحرية التي يدعو إليها الغرب يكمن في ظل استغلالها البشع لقيمة الحرية المحببة للقلوب من أجل ترويج الضلال وتفكيك القيم المحافظة لدى الأمم التي لم تصل إلى تحلل الغرب الأخلاقي وتحتكه؛ ومن أبرز صور ذلك ما يتعلق بالمرأة والأسرة: حيث جعل من مقتضيات الحرية الشخصية للمرأة حقوق مصادقة الرجال حتى بغير رضا زوجها، والإجهاض، وإنجاب أطفال خارج إطار الزواج؛ فضلاً عن التعري والسفور والاختلاط المطلق، ومن صورها الخطيرة كذلك ما يسمى بحرية الكتابة والإبداع التي جعلت وسيلة لنشر الضلال والسخرية بالله ودينه وإعلان الكفر، ووصم من يقاوم هذه الشطحات بأنه

(١) انظر: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، محمد البهي: ص(١٠٥).

(٢) الإنسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد: ص(٤٦).

عدو للحرية رافض للإبداع وغيرها من التهم<sup>(١)</sup>. وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أمرين مهمين هما:

أ - أن ردة الفعل التي حصل بسببها هذا التطرف في مفهوم الحرية وتطبيقها المطلق لدى الغرب نتج عنها الثورة الفرنسية التي أخذت تبطل كثيراً من النظريات الخلقية، وتهدم قواعد المدنية والدينية، وما فكرة الحرية عند سارتر الفرنسي التي تجعل الحرية هي التحلل من كل سلطة خارج نزعاته المادية سواء أكانت أعرافاً أو تقاليداً أو أدياناً أو قيماً إنسانية إلى غير ذلك إلا دليلاً ومظهراً من مظاهر الغلو البالغ في توظيف ردة الفعل تلك في مجال الانحلال والفساد<sup>(٢)</sup>.

ب - من الإنصاف الإشارة إلى أن الحرية في الغرب كان لها جوانب إيجابية ودعت إلى ما دعا إليه الإسلام من أمور خيرة صالحة، لكن الفرق بينها وبين دعوة الإسلام لتلك الأمور أن الحرية التي دعا إليها الغرب ليست بتلك الصورة الزاهية التي تبدو لاسيما في المجالات الخيرة التي تدعو إليها إذ أن هناك قيود كبيرة تفرض عليها بحجة وقاية الأمن العام والنظام؛ وذلك لخدمة بعض أصحاب المصالح الكبرى من أرباب السياسة والمال الذين صاروا يتحكمون بالصحافة ويؤثرون على القضاء ويملكون وسائل الإعلام ويوظفونها لتحقيق رغباتهم فأصبحت الحرية ملكاً لهؤلاء الفئة القليلة المسيطرة<sup>(٣)</sup>، يقول د. محمد البهي: (أصبحت الحرية الفردية يمارسها في نطاق واسع: أصحاب المال وهم في الوقت نفسه رجال السياسة وهم أصحاب دور النشر والإعلام، ويمارسها في نطاق ضيق أو قد لا يمارسها أصلاً حتى في حق العمل والسعي في الحياة بقية الأفراد في المجتمع)<sup>(٤)</sup>.

وعند الحديث عن حدود وحقيقة الحرية لابد من استحضار أمور من الأهمية بمكان:

**أولها:** أن الإنسان لا يمكن أن يخلو من التزام؛ إما بدين يتضمن معتقداً وتشريعاً؛ يستقيم عليه مبادئه ويستجيب لأوامره ونواهيه، وإما لنظام وقوانين يتقيد بمضامينها، ولا يمكن أن يخلو من ذلك؛ إذ لا يخلو منها إلا الكائنات التي لا تعقل، عندها يكون قد انحط إلى مستوى متدنٍ

(١) الثقافة الإسلامية، عبد الرحمن الزبيدي: ص(٩٦).

(٢) العدوان على المرأة، فؤاد العبد الكريم: ص(٣٢).

(٣) الثقافة الإسلامية، عبد الرحمن الزبيدي: ص(٨٩).

(٤) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، محمد البهي: ص(١٠٩).

للغاية؛ ولأجل ذلك فلا بدّ من قيود تقيّد حرية الإنسان وضوابط تضبطها سواء أكانت نابعة من دين أو معتقد أو مبدأ أو نظام أو قانون أو غير ذلك.

ثانياً: الطبيعة الاجتماعية للإنسان التي يراها البعض طبيعية ويراهم آخرون ضرورية إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش منفرداً، هذه الطبيعة الاجتماعية لها التزام وهو أن الإنسان في مجتمعه لا بدّ أن يراعي في تصرفاته عدم التجاوز في حق الآخرين؛ إذ لا يتصور وجود حرية مطلقة من جميع القيود؛ لأن حرية إنسان واحد تنطلق بغير قيد هي قيد لكل إنسان سواه؛ وكيف يأتي هذا الإنسان الواحد بحريته المطلقة منفرداً بها بين أمثاله من المقيدين؟ أما أن يوجد جميع الناس بحرية مطلقة لكل منهم على سواء فهذا مستحيل عقلاً في الفرض والتقدير قبل الوصول بها إلى الإيجاد والتحقيق، ولا بدّ من التأكيد على أن الحرية للإنسان ذات مفهوم اجتماعي فلا بدّ من القواعد التي ترعاها بمبرراتها الاجتماعية؛ وإلا صارت ظلماً وجوراً؛ فالحرية لكل إنسان في المجتمع بضوابطها وإلا ذهبت الحرية والإنسان معاً؛ ولذلك لا بدّ من السيطرة على النفس للمحافظة على حرية الجميع، والحرية شُعب؛ ولكل حرية حدودها التي ينبغي أن يكون احترامها مبنياً على أساس من الدوافع الذاتية الصحيحة وأن لا تكون عن نزوات وشهوات<sup>(١)</sup>.

والحديث عن الحرية في مفهومها الصحيح في الإسلام يطول ولكننا نكتفي هنا بذكر خطوط عريضة لا بد من معرفة من ذلك:

أولاً: كل ما دعا إليه الغرب من الحريات المقبولة المستقيمة ففي الإسلام دعوة إليها ولا ريب، ولو أردنا تتبع ذلك لطلال الأمر جدّاً.

ثانياً: هناك شرائع فرضها الإسلام قد يفهم منها البعض أنها تتضمن حجراً على حريات البشر، أو تدخلاً في شؤونهم الخاصة، وأبرزها شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحق الذي لا شك فيه هو أنها تمثل حماية لحرية الآخرين، فليس من المقبول أن تُطلق لأحدٍ حريته على حساب جمع من الناس فضلاً عن المجتمع بأكمله، هذا من جانب، ومن جانب آخر فيها

(١) انظر: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، عبد الرحمن المطرودي: ص(٣٧٧)، والإنسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد: ص(٤٥).



حماية لذات الفرد من أن يضر بنفسه في النواحي الفكرية أو الصحية أو الاجتماعية أو غير ذلك، فالإسلام جاء يحفظ الفرد ويحميه ويحفظ المجتمع ويحميه<sup>(١)</sup>.

**ثالثاً:** الإسلام يقرر أن الإنسان مخلوق لله خلقه الله جل وعلا وكرمه وجعله الأكرم بين مخلوقاته، وحدد له الهدف والغاية من خلقه وأوضحها في القرآن حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ (الذاريات: ٥٦)، وبناء على هذا الأمر يقرر الإسلام أمراً آخر وهو: مبدأ المسؤولية، فهو يعطي للإنسان مطلق الحرية فيما يأتي وما يذر، ولكنه مسؤول عن كل ذلك، وهو مطالب بنهج يسير عليه لتحقيق الهدف الأسمى الذي خلق لأجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ٢١)، فلا بد أن يسأل عما قدم ولأجل ذلك كان لا بد أن يعمل العاقل على محاسبة نفسه، وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا المبدأ مهم غاية الأهمية للبشر لأمر من أبرزها:

أ - مبدأ المسؤولية يعطي للإنسان قيمة، ويرتفع به عن باقي الكائنات التي لا تعقل ولا تحاسب، وفقدانه لهذا الأمر بمعنى عدم إحساسه به والتزامه بمسؤوليته يسفل به لدرجة تلك الكائنات، ولأجل ذلك نجد أن المرء لا يقبل أن يوصم بأنه عديم الإحساس بالمسؤولية، بل ويعدّها في غاية الذم، وكذا لا يقبل بأن يعده الآخرون غير مسؤول عما يفعل لما يترتب على ذلك من أحكام مثل إقامة ولي له، فهذا مما يسقط قيمته في مجتمعه.

ب - مبدأ المسؤولية كذلك يحفظ المرء من نفسه أن يضر بها ويحفظ كذلك المجتمع من تجاوزاته؛ لاسيما إذا أدركنا أن بعض ما يضر بالنفس أو بالمجتمع محبب للأنفس كالشهوات والملذات المضرة المحرمة؛ فشعوره بالمسؤولية عن أفعاله يجعله يعيد النظر مراراً قبل الوقوع فيها وممارستها.

ج - ليس للعقل أي قيمة ما لم يكن المرء مسؤولاً عما يفعله، إذ ما مزية العاقل على من سواه إذا لم يكن هناك مسؤولية تُرعى، وحقوق تُحفظ، بهذا المبدأ يتحقق إقامة العدل حيث لا يساوى من كان أهلاً للمسؤولية مراعيها لها، قائماً بحقوقها؛ بمن هو على خلاف ذلك، أما إذا

(١) الإنسان وحرّيته في الإسلام، محمود بابلي: ص(١٥).

عُدت المسؤولية فإثما سواء؛ إذ لا يملك أحد محاسبة أحد على أمر لم توضع عليه مسؤولية ولم تقرر له حدود.

رابعاً: حرية الإنسان في اختيار طريقه في الحياة ومنهجه؛ فلم يكره الإسلام أو يرغم أحداً على التزام منهج بعينه بل جعل للإنسان كامل الحرية، والتزم له ببيان الخير والشر، وأما الاختيار فهو للإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣)، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨)، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠)، والأمر كما بينه جل وعلا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

خامساً: حرية الذات، فالإسلام حفظ لكل إنسان كرامته الإنسانية وأن يكون حرًا في التصرف في شؤونه الشخصية دون مصادرة أو إهانة، بل جاءت النصوص التي تعظم الاعتداء عليه في دمه أو ماله أو كرامته، ففيه الحديث الصحيح يقول ﷺ: ( فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا )<sup>(١)</sup>، بل حتى غير المسلم في المجتمع المسلم له حرمة ويحرم التعرض لحياته، ففي الصحيح قوله ﷺ: ( مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا )<sup>(٢)</sup>، وحرّم الإسلام جميع أنواع الاعتداء على الإنسان سواء أكان اعتداء بالضرب أو الجرح أو السجن أو الجلد أو بالسب والشتم والتخويف بل وظن السوء والسخرية واللمز، يقول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِنْ قَوْمٍ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْنَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١١-١٢).

سادساً: حرّيته في مجال الرأي والتعبير: الإسلام في هذا لا يكتفي بمجرد فتح المجال ليقول الإنسان الحق بل يوجبه عليه إذا كان تركه يفوت مصلحة شرعية، وهو يأجره عليه ويثيبه بكل حال، ويجذر من التعرض للناس في هذا أو منعهم منه أو أذيتهم بسببه.

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: قول النبي ﷺ (رب مبلغ... حديث رقم ١٠٤).

(٢) صحيح البخاري كتاب: الديات، باب: إثم من قتل ذمياً بغير جرم حديث رقم ٦٩١٤.

ولذا كان يبايع رسول الله ﷺ الصحابة على: أن يقولوا بالحق حيث كانوا لا يخافون في الله لومة لائم<sup>(١)</sup>، كل ذلك وفق ضوابط جاءت لتحقيق مصالح العباد؛ ولأجل ذلك فحرية الرأي في الإسلام لا يمكن بسببها الفرد حتى يقع في العبث بضروريات الحياة الإسلامية وأهمها الدين وأعراض المسلمين، كما أنه في هذا الإطار حرم الإسلام الرذائل الخلقية كالكذب وتلبيس الحق بالباطل وفحش الكلام أو إثارة الفتن في المجتمع المسلم أو تهديد أمنه.

### المبحث الثامن: مفهوم التجديد:

يتردد كثيراً في الآونة الأخيرة مصطلح جديد على الساحة الثقافية وهو التجديد، ويطلق في المطالبة بتجديد الخطاب الديني أو تجديد الدين أو تجديد الفكر الإسلامي، وتأتي هذه المطالبات في سياق مطالبة الغرب بإخضاع بعض القضايا الشرعية لتتناغم مع العولمة الثقافية التي يُراد فرضها على العالم الإسلامي.. كما هي تأتي ضمن مشروع إسلامي من بعض الدعاة المصلحين، فما المفهوم الحقيقي للتجديد؟ وما المفاهيم الباطلة له؟

يرجع التجديد في اللغة إلى الجدة نقيض البلى يقال شيءٌ جديد، وجد الثوب والشيء يجد بالكسر صار جديداً وهو نقيض الخلق، وتجدد الشيء صار جديداً وجدده صيره جديداً<sup>(٢)</sup>، ومن خلال ما سبق يظهر معنى التجديد وهو إعادة الشيء إلى حالته التي كان عليها أولاً، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (الإسراء: ٤٩) ، وهو يستلزم أن الشيء المجدد كان موجوداً وللناس به عهد، ثم أصابه البلى وصار قديماً ليس كما كان يعهده الناس ثم أنه أعيد إلى حاله التي كان عليها قبل أن يبلى<sup>(٣)</sup>.

والتجديد في الاصطلاح الصحيح هو: إحياء ما اندرس من معالم الدين وبعثها من جديد لإصلاح الحياة العامة للمسلمين، و تجديد الدين هو أحد المصطلحات الإسلامية، نشأ من حديث صحيح من لفظ النبي ﷺ يقول فيه: ( إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها )<sup>(٤)</sup>. وبهذا يكون التجديد في المفهوم الصحيح ليس هو تغيير القديم وإحالاته

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب: الأحكام، باب: كيف يبايع الإمام الناس.

(٢) لسان العرب، ابن منظور: (١١١/٣) (مادة: جدد).

(٣) مفهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد: ص(١٤-١٥).

(٤) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، حديث رقم ٤٢٩٣، وهو حديث صحيح صححه الحاكم والبيهقي والحافظ العراقي وابن حجر والسيوطي ومن المعاصرين الشيخ ناصر الدين الألباني.

عن أصله أو الاستغناء عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر جديد، فهذا ليس من التجديد في شيء، فالتجديد في الإسلام ليس معناه الإتيان بإسلام جديد بل معناه العودة به إلى العهد الأول عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين إلى ينابيعه الصافية مع مراعاة ظروف العصر<sup>(١)</sup>.

والتجديد الصحيح يتحقق ببعث النصوص المتروكة وتصحيح الفهم لها، والعلم بها، وتسديد العمل بهذا العلم، وكذا رد النصوص المكذوبة وعدم العمل بها، وكشف الانتحال والغلو وبيانها<sup>(٢)</sup>، وبعث الاجتهاد والقضاء على الجمود الفكري والتعصب المذهبي ومقاومته.

ولكن هذا المفهوم الصحيح انحرف عنه بعض الناس، وهنالك أسباب أدت إلى الانحراف في مفهومه حيث واجهت اليهودية والنصرانية في العصر مشكلة كبيرة وهي التطور المادي الهائل والنتاج الفكري لدى الغرب بعد الثورة الصناعية الذي صادم تلك الخرافات المنسوبة إلى الدين دفعها إلى اتخاذ مواقف من تلك التطورات، فأما اليهود فقد ظهر بعض علمائهم في تشكلات تسمى باليهودية الإصلاحية أو المتحررة أو التجديدية، وقد حاولت تحوير المبادئ والتعاليم اليهودية في النصوص المقدسة لديهم بما يتواءم مع العصر بفلسفاته وقوانينه الفكرية والتطبيقية<sup>(٣)</sup>.

أما في النصرانية فقد ظهر عدد من العلماء من داخل الكنيسة يسعون إلى إعادة تفسير مفاهيم النصرانية التقليدية في ضوء ما يسمى معارف العصر كما كانت تدعو إلى التوفيق بين أسس العقيدة وبين العقل ونتائج النقد التاريخي التي لا تقبل الجدل<sup>(٤)</sup>.

من خلال ما سبق يتضح كيف فعلت دعوى التجديد باليهودية والنصرانية إذ جعلتها مجالاً للعبث وأخضعتها للمتغيرات مما يسمى بالتطورات، وهذا أمر طبيعي لأنها مما قد لعبت بها الأيدي قديماً وأخضعتها للمتغيرات فكان لزاماً أن يستمر هذا التغيير مع استمرار تغير الزمان.

(١) تجديد الفكر الإسلامي، الحسن العلمي: ص(١٣).

(٢) تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، محمد بن شاكر الشريف: ص(١٣).

(٣) حقيقة الفكر الإسلامي، عبد الرحمن الزبيدي: ص(١٩٨).

(٤) مفهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد: ص(١٠٧، ١١١).

أما عند المسلمين فقد قامت دعوات مماثلة لتلك التي قامت عند اليهود والنصارى متأثرة بصنيع أولئك يحاول أصحابها تحوير مبادئ الإسلام وتعاليمه لتتسق مع الفكر الغربي المعاصر<sup>(١)</sup>.

وعلى ذلك فالتجديد عند هذا الفريق هو إجراء التغيير - كلما احتيج إليه - في أصول هذا الدين وفروعه لتتوافق مع قيم هذا العصر ومعطياته ومنطلقاته المستمدة من الثقافة الغربية المعاصرة التي هي نتاج تفكير بشري محض ليس للوحي المعصوم فيه أثر إضافة إلى خليط رديء من تحريفات اليهود والنصارى ووثنية الرومان<sup>(٢)</sup>.

وتفاوت مناهجهم أرباب التجديد المنحرف حيث يذهب فريق منهم إلى منهج التجديد الذي يحاول فيه نسف الإسلام لعدم موافقته الفكر الغربي المادي، أو يقضي على ما فيه من مبادئ وتشريعات يشتمز منها الذوق الغربي المعاصر مثل: القصاص، الطلاق، وضع المرأة في الإسلام وغيرها، أو دون ذلك من يحاول تأويل ما لا يتسق مع النظرة الغربية تأويلاً يقربه منها.

وفي الآونة الأخيرة لجأ كثير من أتباع الاتجاه التجديدي العصري - المنحرف - إلى التراث - تراث الأمة الإسلامية، حيث وصلوا إلى ضرورة الانطلاق منه في الدعوة إلى التجديد من خلال توظيف بعض الأفكار المرجوحة والشاذة في تراثنا العلمي آراء الفرق المنحرفة والمندثرة في خدمة مشاريعهم التجديدية المنحرفة، وذلك لأجل تسويق أفكارهم وحركتهم التجديدية داخل المجتمعات الإسلامية، ذلك أن الدعوات التجديدية المنحرفة والتي هي في حقيقتها دعوات تغريبية تجاهر بنسف التراث الإسلامي نسفاً علمياً لم تحظ بتجاوب الأمة بل أدى ذلك على نفور الأمة منها<sup>(٣)</sup>.

ولا شك أن تحديد الدين على منهج الإسلام الصحيح مسألة مهمة وخطيرة لا يصلح أن ينهض بها أو يتناولها كل أحد، وذلك لجليل قدرها وعظيم شأنها، ولأجل ذلك لا بد من التنبيه إلى أمور من الضروري التنبه لها في التجديد الإسلامي الصحيح وهي:

(١) حقيقة الفكر الإسلامي، عبد الرحمن الزبيدي: ص(١٩٩).

(٢) تجديد الخطاب الديني، محمد بن شاكر الشريف: ص(٣٧).

(٣) حقيقة الفكر الإسلامي، عبد الرحمن الزبيدي: ص(٢٠٠).

**الأول:** ضوابط في المصدرية والمرجعية: والمراد بالمصدرية مشارب التلقي التي هي أساس الفكر والنظر ومنطلق العلم ومصدر نتائج الفكر وهي بالنسبة للفكر الإسلامي مصادر الوحي والتشريع من الكتاب والسنة النبوية وما استنبط منهما من أصول التشريع المتفق عليها بين علماء الملة.

وأما المرجعية فيقصد بها الوسائل الفكرية التي يرجع إليها في قراءة التراث الإسلامي وفهمه واستيعابه وانتقاء النافع منه للفكر والمعرفة وهو ما يقوم به العلماء والمفكرون الذين يعدون مراجع الأمة في هذا الشأن<sup>(١)</sup>، ولا يدخل في عداد هؤلاء من لم يعرف بالعلم والإيمان والصدق والورع والنصح للأمة، وهذا لا يعني أنه لا يستفاد إلا من فئة قليلة بل يستفاد من كل من قدم ما يمكن الاستفادة منه، كما لا يفهم منه التعامل مع علماء الأمة الأعلام على أنهم معصومون بل يعرض ما لديهم على الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح فما وافقهما أخذناه وما خالفهما رددناه وشكرنا لصاحب الصدق والنصح اجتهاده وسعيه للوصول إلى الحق.

**الثاني:** ضوابط في القائم بالتجديد "التأصيل قبل التنظير": وذلك من خلال الفهم والإدراك الجيد لما في التراث الإسلامي من ثروة علمية واستيعابها والرسوخ فيها وذلك قبل التصدي لاقتراح البدائل والنظريات والشروع في عملية تجديد الفكر الإسلامي، والمتأمل للواقع الفكري الإسلامي يدرك أن هناك من ركبوا موجة التجديد والمطالبة به وطرحوا البدائل فيه وليس لهم من العلم والمعرفة بعلوم الإسلام الأصيله شيء، فأفسدوا وأضروا أكثر مما نفعوا وقدّموا؛ لاسيما من أرباب الأقلام في الصحف الذين نالوا الدرجات العلمية العالمية لكنهم لم يلتزموا بتخصصاتهم وتكلموا فيما لا يعلمون فأتوا بالعجائب. هذا من جانب ومن جانب آخر لا بدّ أن يكون لعلماء التجديد الحق معرفة بأحوال الناس وفهم وإدراك لها بالإضافة إلى رسوخهم في العلم، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: ذلك "فهاهنا نوعان من الفقه لا بدّ للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز به بين الصادق والكاذب والمحق والمبطل ثم يطابق بين هذا وهذا فيعطي الواقع حكمه من الواجب ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع"<sup>(٢)</sup>. ويقول رحمه الله في أعلام الموقعين: "فالواجب شيء والواقع شيء، والفقيه من

(١) تجديد الفكر الإسلامي، الحسن العلمي: ص(٢٠-٢١).

(٢) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، ابن القيم: ص(٤).

يطبق بين الواقع والواجب وينفذ الواجب بحسب استطاعته لا من يلقي العداوة بين الواجب والواقع، فلكل زمان حكم والناس بزمانهم أشبه منهم بأبائهم<sup>(١)</sup>.

والواقع الإسلامي منذ وفاة المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام لم يستمر على حال واحدة بل أصابه ما أصاب الأمم السابقة قبل أمة الإسلام، وقد نبه إلى هذا المصطفى ﷺ بالحديث الذي سلف في أول الدراسة وهو ما رواه أبو داود أن رسول الله ﷺ قال: ( إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها )<sup>(٢)</sup>، فقله ﷺ: (يجدد لها دينها) فيها دلالة ظاهرة على أنه سيحصل نقص في دين الناس وخلل، وهذا من المعروف عند من تأمل جملة من الأحاديث وهو ما كان بالفعل؛ الأمر الذي ظهر معه مجددون على مر التاريخ الإسلامي اعتنى بهم أئمة الإسلام حيث بدأ الحديث عن التجديد والمجددين منذ القرن الثالث الهجري ليس ذلك فحسب بل عددوا المجددين وسموهم<sup>(٣)</sup>؛ حيث كان يظهر في كل عصر مجدد أو مجددون يحاولون أن يعيدوا للدين جدته ونضارته ويرجعوا الناس إليه تارة بالتجديد في العقيدة وتارة في الشريعة وثالثة في معالجة الانحراف في السلوك والدعوة إلى إعداد القوة وتارة علمية وتارة حضارية شاملة وتارة بالجهاد إلى غير ذلك من جوانب التجديد في حياة أمة الإسلام<sup>(٤)</sup>.

أما في العصر الحاضر فالحاجة إلى التجديد ظاهرة وعميقة وذلك بسبب ما اعترى الفكر الإسلامي من الجمود لاسيما مع نهاية الألفية الهجرية الأولى حيث بلغ الضعف والجمود الفكري مبلغاً عظيماً فظهرت الحاجة إلى تجديد ما أندرس من معالم الدين وإعادة ترتيب العقل المسلم وتنظيم أولوياته في التعامل مع التراث والاستفادة منه في بناء الحضارة وحل مشكلات العصر والتخلص من الجمود الفكري والركود العلمي الذي اقتصر فيه العلماء على اجترار ما سبق من جهود علمية والتوقف عندها تهادياً وشرحاً واختصاراً مما أدى إلى توقف حركة الإبداع والإنتاج العلمي في الأمة إلى أن داهم الغزو الصليبي الحديث بلاد المسلمين يحمل معه أفكار المنصرين وعلومًا ونظريات حديثة للمدنية الغربية تغير على الفكر والحضارة والتاريخ والدين.

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم: (٤/١٩١-١٩٢).

(٢) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث: (٤/١٠٩).

(٣) المجددون في الإسلام، أمين الخولي: ص(٦-٧).

(٤) تجديد الفكر الإسلامي، محسن عبد الحميد: ص(٧٤).

ولقد استطاعت الحركات الإصلاحية التي ظهرت مطلع الألفية الهجرية الثانية في بقاع من العالم الإسلامي أن تبعث الفكر الإسلامي من جديد وعلى رأسها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية التي سوف يأتي الكلام عليها في القسم الثاني بإذن الله، إلا أن الاستعمار جاء فأعاد الإشكالات الحضارية والعلمية من جديد؛ الأمر الذي يستدعي القيام بنهضة تجديدية تعيد للفكر الإسلامي توازنه، وتحقق له الحماية من الأفكار الوافدة، وتطور وسائل ومناهج الفكر والنظر والعلوم لتواكب مستجدات العصر وترتقي إلى مدارك التفاعل مع واقع الحياة العلمية والفكرية في العصر الحديث<sup>(١)</sup>. مع الالتزام بأصول الإسلام ومبادئه وفق ما جاء في الكتاب والسنة. وقد قامت محاولات جادة من بعض الجمعيات والمؤسسات والمنظمات والأفراد في العالم الإسلامي للنهوض بالأمة كان لها الأثر الإيجابي في تجديد حركة البعث الإسلامي في نفوس أبناء الأمة، ولكنها جهود ما زالت في بداية الطريق وتواجهها تحديات إقليمية وعالمية كبيرة.



(١) تجديد الفكر الإسلامي، الحسن العلمي: ص(١٨١).



## القسم الثاني

( أحوال المجتمع المسلم المعاصر وسبل النهوض به )

مختار من بحوثه :

الفصل الأول : أحوال المجتمع المسلم المعاصر.

الفصل الثاني: دعوة الشيخ "محمد بن عبد الوهاب" الإصلاحية

الفصل الثالث : سبل الإصلاح والنهوض بالأمة.

## المبحث الأول

### الغزو الفكري وأثره على المجتمع المسلم

الغزو الفكري مصطلح حديث لم يسمع به ويتداول إلا في القرن الرابع عشر الهجري، ويقصد به كما هو ظاهر الغزو عن طريق الأفكار، ويمكن تعريفه بأنه: " محاولة إخضاع أمة لأخرى عن طريق تغيير أفكار الأمة المغزوة واستدراجها لاعتناق أفكار الأمة الغازية حتى تصير تبعًا لها منقادة لما تأمرها به أو توجهها إليه"<sup>(١)</sup>، أو هو باختصار تسلط أمة من الأمم على أخرى لتغيير أفكارها وقيمها ومعتقداتها.

ولا شك أن الغزو الفكري يستهدف البنية المعنوية للأمة المغزوة، ولأجل ذلك فهو يضربها في مقتل؛ لأنه متى ما سيطر على أفكارها ومعتقداتها واستطاع تغييرها أو العبث بها ألغى حقيقة وجودها؛ لأن ما حصل في الحقيقة هو إلغاء للهوية التي تمثل الكينونة المعنوية التي مع إلغائها سرعان ما تتغير الكينونة المادية للأمة، فتظهر بالمظاهر المادية للأمة الغازية في اللباس والبناء وغير ذلك؛ على الرغم من أن هذا الغزو لا يستهدف المظهر، بل على العكس هو يحرص كل الحرص على ترسيخ المظاهر الخاصة بكل أمة وتدعو دائماً لإحياء تراث الأمة المادي لتبقى الأمة خاوية بلا روح حتى لا يبقى فيها إلا الإطار. ولا شك أن الهدف من ذلك هو إشعار الأمة أن شيئاً لم يتغير، ولأجل أن تظهر الأمة بمظهر المتمسك بالتراث، والحق خلافه.

وأهم الأمور التي يستهدفها الغزو الفكري لإحداث هذا التغيير الخطير هي الجذور لا القشور والأصول قبل الفروع، وهو بالتأكيد لا يستهدفها ابتداءً بل يصل إليها متدرجاً من أمور أقل أهمية، ويبدأ بالتدرج حتى يصل إلى الجذور والأصول ويدخل فيها من التشكيك ما يزعزع الثقة فيها إلى أن يقتلعها ويلغيها.

ولعل من أعظم الإشكالات في قضية الغزو الفكري هو أنه يستهدف الأمة في عقيدتها وفكرها بصورة متدرجة تخفى على عامة الأمة بل وبعض مثقفيها، ولا يدرك خطرها إلا جهابذة

(١) جوانب من الغزو الفكري المعاصر، محمد أمين السماعيل: ص (١١).

الأمة وعظماء مفكرها والعلماء فيها، الذين يتحملون مهمتين عظيمتين:

**الأولى:** مقاومته في ذات أنفسهم.

**والثانية:** إقناع الأمة بفداحة الخطر القادم وعظيم ضرره، وهذا الأمر جليل عظيم قد لا تستوعبه الأمة بسهولة، كما أن تطور الغزاة المادي لا شك يقوي جهودهم في الإفساد، ويضعف جهود المقاومين لهم، لاسيما إذا أدركنا أن الأمة المستهدفة تقف على الدوام بوعي منها أو بدون وعي في حال من الانبهار يقودها غالباً إلى الاستسلام.

ولعلّ أخطر ما في الغزو الفكري اليوم أنه أصبح "ذا دفع ذاتي تلقائي"؛ حيث أنه يتم دون أن يدرك ضحية الغزو أنه معرض لأي خطر فيقبل في حماسة بلهاء لا على قبول الغزو فحسب، بل على اعتناقه واحتضانه دون الشعور بأنه مصدر خطر؛ ذلك أن الغزو الفكري المعاصر أصبح يتخذ شكل برنامج تلفزيوني، أو فيلم ييثر على الفضائيات، أو موضحة ما، أو فكرة تدعى نظرية، أو مؤلف لفيلسوف غربي، تسوق وتنتشر في العالم بصورة سريعة ودون أي تأخير، ويسوق لها في كل بلد وإقليم، دون التأمل في مضامينها وإدراك ما تحمله من خير أو شر، ولو تم ذلك قد يصعب التحكم في الحيلولة بينها وبين المتلقي المسكين في أي بقعة من العالم، بسبب التطور الهائل لوسائل المواصلات والاتصالات التي حولت العالم إلى قرية صغيرة.

**أبرز وسائل الغزو الفكري:**

لا شك أن الغزو الفكري حرب فكرية موجهة للعالم الإسلامي يشنها الغرب بمفكره ورجال الدين والسياسيين والاقتصاديين فيه؛ الذين يبذلون الجهود الكبيرة لتحقيق النجاح والنصر في هذه الحرب، وأخطر ما يعده المفكرون فيهم الأفكار والدراسات والبحوث التي يستهدفون بها استبدال ما لدى المسلمين من أفكار ورؤى وقيم ولكن بطريقة متدرجة ومؤثرة.

تلك الجهود يتم تسويقها من خلال وسائل يحاولون من خلالها فرض تلك الرؤى والأفكار، وأبرز تلك الوسائل هي:

**أ / الاستعمار:**

تلك الحركة التي بدأت مبكراً بعد الكشوف الجغرافية، وذلك في نهاية القرن الخامس عشر

الميلادي (القرن الثامن الهجري تقريباً)، واستمرت في التقدّم والتطور؛ إذ اهتمت أول الأمر بالسيطرة على الأطراف البعيدة من العالم الإسلامي تمهيداً للوصول إلى قلبه وهو ما وصل إليه الاستعمار لاحقاً، حيث تمت السيطرة على العالم الإسلامي كله إلا مناطق قليلة ومساحات محدودة، وتم تقسيمه بعد ذلك<sup>(١)</sup>.

ويعدّ الباحثون أن الاستعمار الحديث من أبعث وأعقد ألوان الاستعمار التي مرت بها البشرية؛ وذلك أن العلاقات الاقتصادية الاستغلالية وغيرها من العلاقات لا تزول بزوال السيطرة العسكرية أو بزوال الحكم المباشر وإنما أصبحت تمثل ميراثاً ثقيلاً يبقى بعد رحيل المستعمر، وواقع المستعمرات السابقة والحالية في العالم يشهد بذلك.

ومن المعلوم أن قوى الاستعمار في البلد المستعمر تسيطر عليه بقوة السلاح وتتحكم فيه غير أنها تختلف في حقيقتها وتنقسم إلى منهجين مختلفين:

أحدهما: الاستعمار المتحفظ، وهو الذي لا يتدخل مباشرة في نواحي حياة المستعمر جميعها، بل يطلق لأبناء المستعمرة بعض مظاهر الحرية.

والثاني: الاستعمار الاستبدادي، وهو الذي يتدخل تدخلاً مباشراً في جميع تفاصيل الحياة حتى الأكثر خصوصية منها وهي الدينية، فتدخله يمتد إلى كل شيء، بل يصل الأمر إلى أن يخصص لأبناء المستعمرات مدارس استعمارية يستعمر بها عقولهم<sup>(٢)</sup>.

يقول الأستاذ مالك بن نبي في وصف دور الاستعمار في الغزو الفكري: (إن الاستعمار ذو منهج وهو يخرج أعماله كلها إخراجاً فنياً خداعاً بحيث يصبغ البلاد المستعمرة بصبغة استعمارية وهو بذلك يزيل أية عقبة تعترض طريقه مستخدماً في ذلك علمه ومقدرته، ومن أصول الفن لديه أن يقصي صفوة الناس عن أماكن القيادة؛ لأنهم هم الذين يمثلون أسمى فضائل شعبهم ثم يستخدم لتحقيق مآربه طائفة من خالصته اصطفاهم ليمثلوا الشعب المستعمر<sup>(٣)</sup>).

(١) وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، حسان محمد حسان: ص(٣٠) وما بعدها (طبع ضمن سلسلة دعوة الحق التي تصدر عن رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة).

(٢) وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي: ص(١٢٠، ١٢١) (ترجمة: عبد الصبور شاهين).

(٣) نفسه: ص(١٢٢، ١٢٣).

لقد سلك الاستعمار إلى تحقيق التغيير في المجتمعات الإسلامية وتغريبها كل سبيل وتغلغل في كل الميادين، فشمّل السلوك الفردي والآداب الاجتماعية والفنون والآداب، واستعان عليها بالبرامج الدراسية وبالصحافة وبالمؤتمرات التي يتعاون فيها المسلمون والمستشرقون على توجيه الفكر الإسلامي وبهيئة الأمم المتحدة وبمؤسسة اليونسكو والتربية الأساسية فيها على وجه الخصوص.

### ب/ التنصير:

ويعرف بأنه حركة سياسية استعمارية بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية، ظاهرها نشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث وبين المسلمين بخاصة بهدف إحكام السيطرة عليهم<sup>(١)</sup>، ويعدّ المنصرون فصيل الطليعة أو الاستطلاع الذي يسبق الاستعمار المباشر أو الاحتلال العسكري، فهم عيون للاستكشاف وأوكرار للتلصص، وخلايا للتجسس، كما أنهم يكتسبون دعمًا قويًا في ظل وجود الاستعمار وتحت إدارته، ويحققون نجاحًا في غزو العقول، ويسعون في تحويلها عن دينها، ويجردونها من ثقافتها لتفقد القدرة على المقاومة وتصبح جاهزة للتبعية المطلقة.

ومما يؤكد على هذا الدور السياسي الاستعماري ما نطق به القس صموئيل زويمر وهو من كبار المنصرين في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٩٣٥م إذ يقول: (... لكن مهمة التبشير التي نديتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هدية لهم وتكريمًا وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله تعالى، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها)، ويقول: (... إنكم أعددتهم نشئًا لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي فقد جاء النشء طبقًا لما أراد الاستعمار لا يهتم بعظائم الأمور ويجب الراحة والكسل...) (٢).

وبهذا ينكشف الزيف ويظهر للعيان الهدف الحقيقي من عملية التنصير التي تدعمها الدول

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي: ص(١٥٩).

(٢) الموسوعة الميسرة: ص(١٦٢، ١٦٣).

الغربية أفرادًا وحكومات، فهي ليست إلا حركة باعت نفسها للشيطان تستخدم الدين غطاءً لاستعباد الناس والسيطرة عليهم والظهور بمظهر الدعوة إلى المحبة والتسامح.

ويهدف التنصير إلى تحقيق أهداف خطيرة من أبرزها:

١- **تنصير المسلمين:** وذلك بإخراجهم من دين الإسلام إلى النصرانية وقد أثبت التنصير من خلال تجربة طويلة الفشل الذريع في تحقيق هذا الهدف إلا من بعض المكاسب التي جاءت لظروف أسهمت في تحقيق هذا الهدف كالعامل في مناطق المجاعات وغيرها.

٢- **إحداث الذبذبة لدى المسلمين:** وذلك من خلال ما ينتقل للمسلمين من نتاج الحضارة الغربية المادي، بالإضافة إلى بعض مظاهر الحياة المدنية الغربية، بما تشتمل عليه؛ من عادات وتقاليد وأفكار وقيم تدخل في حياة المسلمين فتؤثر فيهم، وتحدث كثيرا من الخلل في المفاهيم والقيم، بل يصل الأمر إلى ضعف اعتزاز المسلم بدينه وانجذابه القوي لتلك الحياة وما تشتمل عليه؛ فيكسر الحاجز الديني أو يضعف لدى المسلم الأمر الذي يخل بالعلاقة الصحيحة التي ينبغي أن تربط المسلم بالنصراني<sup>(١)</sup>.

٣- **الإبعاد عن الإسلام مع بقاء اسم الإسلام:** وذلك من خلال حركات معروفة عصفت ولا تزال تعصف بالعالم الإسلامي، مثل: التغريب التحديث أو الحدائث، العلمانية، العولمة، وغيرها مما يحقق الهدف التنصيري الخطير بإبعاد المسلم عن دينه بحيث لا يملك منه إلا الاسم وأما الأفكار والمبادئ والرؤى والقيم والحياة برمتها غريبة متوائمة مع النصرانية مخالفة في مجملها للحياة الإسلامية.

### ج/ الاستشراق:

حركة علمية فكرية - في أساسها- تُعنى بالدراسات المتعلقة بالشرق الإسلامي<sup>(٢)</sup>، وتشمل الدين والحضارة والآداب واللغات والثقافة وغيرها، كان لها دورها في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي، والدافع الأساسي لهذه الحركة هو الجانب اللاهوتي النصراني الذي يسعى

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، علي جريشة: ص(٢٤-٢٩).

(٢) ولقد سعى أعداء الأمة بتسمية الشرق الإسلامي بالشرق الأوسط محاولة لنزع هذه الخصوصية المهمة منه.

لتحطيم الإسلام من داخله بالدس والكيد والتشويه من خلال هذه الحركة التي تظهر روح العلم والحياد وهي بخلاف ذلك<sup>(١)</sup>، ويذهب بعض الباحثين إلى أن أبرز الأسباب في ظهور الاستشراق هو التنصير، وذلك من خلال: دراسة الشرق لاسيما دين الإسلام، وإعداد الدعاة إلى النصرانية وتجهيزهم بالخلفيات اللازمة عن المسلمين والعالم الإسلامي ثم إرسالهم إليه، ولأجل ذلك فقد كانت طلائع المستشرقين من القسس والرهبان الذين انكبوا على تعلّم اللغة العربية ثم بقية علوم المسلمين ليلموا بها ثم يعلموها من وراءهم، وكذا ليستطيعوا مقارعة المسلمين بما يقدمونه من مؤلفات<sup>(٢)</sup>.

ولعل من أهم الأمور التي تجدر الإشارة إليها لإيضاح حقيقة الاستشراق هو التحوّل الذي طرأ على اهتمام المستشرقين حيث تحول من العناية بالدراسات الإسلامية القديمة إلى الدراسات الإسلامية الحديثة التي تتابع تطور الفكر الإسلامي والمجتمعات الإسلامية في مختلف بلاد المسلمين، بهدف مسايرة تطور السياسة الاستعمارية، وذلك من خلال هذه الدراسات التي توجه لمعرفة خصائص الشعوب الإسلامية ومعرفة أمثل الطرق في التعامل معها، وذلك لخدمة المصالح الاستعمارية؛ ولاسيما بعد ظهور حركة البعثات العلمية؛ التي تم فيها استغلال الطلبة الذين تم ابتعاثهم لمواصلة الدراسة في الغرب لهذا الغرض.

ولعل مما يجدر ذكره في هذا السياق هو أن الاستشراق خضع خضوعاً مباشراً في تاريخه القديم والحديث لقوتين مهمتين من قوى العالم الغربي: هما: القوة السياسية الاستعمارية، والقوة الدينية الكنسية، وخضع في تاريخه الحديث لقوة جديدة هي: القوة اليهودية الصهيونية، فأصبحت ثلاث قوى تتحكم فيه، هي: الاستعمار والتنصير والصهيونية<sup>(٣)</sup>، وهذا الأمر حول الاستشراق إلى حركة تابعة للقوى السياسية والدينية الغربية في أغلب طروحاته، وإن كان يشذ عن ذلك بعض أفرادها فيتمرد على ما رسم له ويغلبه الإنصاف والاعتراف بالحقيقة. ولا يتمتع بالاستقلالية المطلوبة في أي حركة علمية منصفة متوازنة، بل وبلغ الأمر أن أضحي مسمى

(١) الموسوعة الميسرة: ص(٣٣، ٤١)، ومناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية (القرآن والمستشرقين، التهامي النقرة): ص(٢٥).

(٢) مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية، أحمد السايح: ص(٤٦، ٥٠).

(٣) أزمة الاستشراق الحديث، محمد خليفة حسن: ص(٢١-٢٢).

الاستشراق منبوذاً حتى لدى المستشرقين واستبدلوا به مسميات أخرى بسبب واقعه الذي استغل فيه لتحقيق أهداف استعمارية تنصيرية غير علمية ولا منصفة. ويستحسن بعد ذكر ما سبق ؛ بيان أهداف الاستشراق وهي تتمحور حول ثلاثة أهداف:

١. **الهدف الديني الصليبي:** والمراد هو الانتصار للنصرانية في صورتها المشوهة التي شوهدت حقيقة الدين الذي أنزل على المسيح عليه السلام، فالاستشراق يسعى ليحقق الهدف من الحملات الصليبية. ويمكن تلخيص ما قام به المستشرقون في هذا الجانب بما يلي:

أ الاستفادة من العلوم الشرعية في حركة التصحيح الدينية عندهم ، وهذه قد تكون الدافع الأقوى عند المستشرقين الأوائل الذين درسوا في جامعات الأندلس ، واستفادوا من علومها ونقلوها إلى أوروبا.

ب / تشويه صورة الإسلام لحماية الغربيين أنفسهم من اعتناق الإسلام ، والدخول فيه ، والحيلولة دون انتشار الإسلام بين الأوروبيين كما انتشر بين غيرهم من الشعوب ، ويظهر هذا في المقررات الدراسية عن الإسلام عندهم ، وما يكتب عنه في وسائل إعلامهم ، وهي معلومات منقولة من كتب المستشرقين التي تشوه الإسلام ، وتظهره في أبشع صورة.

ج/تشكيك المسلمين في دينهم وإضعاف القيم الإسلامية عندهم؛ لإضعاف قوتهم والحيلولة بينهم وبين مصدر قوتهم الحقيقية من جهة وبينهم وبين تصدريهم الأممي في القيم والأخلاق.

د/ إحياء ما اندثر من موروثات الفرق الضالة ، والآراء الشاذة لتسهل في تفريق كلمة المسلمين ، وإضعاف قوتهم ، وانشغال المسلمين ببعضهم ليتحقق لهم الفشل وذهاب الريح ؛ انتقاماً لما حصل لهم في الحروب الصليبية على أيدي المسلمين ، واستمراراً لهذه الحرب التي لم ولن تضع أوزارها حتى يقاتلهم المسلمون مع المسيح ابن مريم عليه السلام آخر الزمان فيكسر الصليب ويقتل الخنزير.

هـ / التمهيد للتنصير في بلاد المسلمين ، والعلاقة بين التنصير والاستشراق أوضح من أن تحتاج إلى دليل خاصة وأن أول قيامه كان على أيدي الرهبان كما تقدم ، بل ذكرت الإحصاءات أن عشرين من تسعة وعشرين من طلائع المستشرقين كانوا منصرين أو رهباناً أو عاملين في الأديرة.

و / تمجيد القيم الغربية من يهودية ونصرانية ، وذلك بمحاولة المقارنة بين الإسلام والديانات



السابقة ، ومحاوله نسبة الإيجابية والقيم الفاضلة في الإسلام إلى اليهودية والنصرانية ، وإصرارهم على اعتماد الإسلام عليهما. ويؤكد ذلك أنه بدأ على أيدي الرهبان ، ومعظم رجاله من رجال الكهنوت من اليهود والنصارى. وكان جيل همهم الطعن في الإسلام وتشريعته، وفي القرآن والسنة ونبينا محمد وصحابته لتنفير الناس من هذا الدين. وهذه المطاعن هي التي يرددها بعض الكتاب والإعلاميين في العالم العربي اليوم.

٢ . **الهدف العلمي:** وهو المتوقع من حركة علمية فكرية تُعنى بالدراسات والأبحاث ، والمراد هنا من سعى لتعلم علوم الإسلام بحثاً عن الحق وسعيًا للحقيقة والحقيقة فقط، ويمكن حصر هذه المرحلة ببدايات الاستشراق فقط على أنها لم تستمر زمنًا طويلًا إذ سرعان ما أصابها التحول والانحراف حيث جانبها هذا الهدف إلى الأهداف الأخرى، غير أنه لا بدّ من التأكيد على أنه لم تخلُ المراحل التالية من بعض من كان يسعى لأجل هذا الهدف وهم قلة قليلة. يقول أحدهم وهو "ثرينش": إن أكثرية هؤلاء جاءوا وهم يحملون الكره للإسلام ، وجاء آخرون يدعون أنهم أبناء الإسلام ، أما الباقون فجاءوا وفي نيتهم أن يستغلوا الإسلام ، لكن أحداً منهم لم يغادر هذه الأرض إلا وهو يكن للإسلام احتراماً عميقاً إلى أبعد الحدود ، والبعض أشهر إسلامه ، أما أولئك الذين لم يتغيروا خلال هذه التجربة العميقة فقد ماتوا بأيديهم<sup>(١)</sup>. ومن الإنصاف أن لبعضهم جهوداً إيجابية ومن أهمها حفظ كثير من تراث أمتنا الزاخر وصيانه والعناية به بعد أن فقدنا كثيراً من نفاثته<sup>(٢)</sup>.

٣- **الهدف الدفاعي:** وهذا الهدف غلب على المرحلة الأولى حيث حاول مقاومة الإسلام من أن يغزو بني جنسهم أو أن ينتشر في بلدانهم أو البلدان التي ليس لها ديانة خاصة.

٤ / **الهدف الاستعماري:** ولذلك قيل: إن الاستشراق كمنهج عقلي لقاح من أبوين غير شرعيين ؛ التنصير الذي خطط له ، والاستعمار الذي غذاه واستثمره. وفي هذا يقول الأستاذ أحمد سمائلوفتش في كتابه فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي: ( لقد ظل هدف

(١) قافلة الخير : في الجزيرة العربية والخليج، سمير عطا ص ٤٧ .

(٢) من كتاب " مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية " بيان وإيضاح لبعض الجوانب الاجابية في دراسات المستشرقين، وقد قام بنشر الكتاب مكتب التربية العربي لدول الخليج والمنظمة العربية للتربية والثقافة بالرياض عام ١٤٠٥ هـ .

الاستشراق والاستعمار واحداً لفترة طويلة من الزمن ، وإن كان الأول يسبق الثاني ليكون طلائع جيشه وأعين أمنه ليصيب أهدافه ويحقق آماله فما عليه إلا أن يبدأ بالتشكيك في قيم الشعوب المغلوبة والسخرية منها ومن دينها وشخصية نبيها وهدم الإسلام فكراً وحضارياً ، وعلى الثاني أن يقوم بتنفيذ ذلك الحكم واقعياً وعملياً كما كان الاستشراق حريصاً على تدريب باحثين ودبلوماسيين ومهنيين يحملون جميعاً أيديولوجية الغرب وعقليته ضد الشرق وحضارته، وعلى الاستعمار أن ينبي هؤلاء ويساعدهم وينفذ خططهم " . بل يعلنها المستشرق " ماسنيون" صريحة بقوله عن أبنائنا المبتعثين للدراسة هناك: " إن هؤلاء الطلاب المسلمين الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غريبة خالصة حتى يكونوا أعواناً لنا في بلادهم" (١) لكن الله سيخيب آمالهم بإذن الله.

**٥/ الأهداف السياسية والاقتصادية:** وهذا ظاهر جلي في اعتماد صانعي القرار السياسي إلى حد كبير على الدراسات التي يقوم بها المستشرقون عن بلاد المسلمين ودينهم ، أما العاملون في الملحقيات الثقافية والإعلامية في السفارات والقنصليات الغربية في البلاد الإسلامية وما يرفعونه لحكوماتهم من تقارير عن المسلمين وأوطانهم وعمما يثبونه من أفكار استشراقية استعمارية تخدم أهدافهم عن طريق وسائل إعلام البلاد الإسلامية والسماعين لهم من المتنفذين في تلك الوسائل ، وعن طريق إقامة العلاقات والطروحات الفكرية والثقافية بينهم فهو أمر غير خاف على متأمل وهو صورة من صور واقع الاستشراق اليوم ، علماً بأن هناك فيهم من كان هدفه العلم المجرد ، ومنهم من كان هدفه شخصياً أو تجارياً لكنهم قلة بالنسبة لأصحاب الأهداف السابقة.

### واقع الاستشراق اليوم:

لعلّ واقع الاستشراق اليوم والتحويلات التي طرأت عليه تبرهن التبعية الكاملة للاستعمار، ذلك أنه قد طرأت عليه تغييرات كبيرة حيث نجد أن هذه المسميات قد اختفت وظهرت مسميات أخرى تتفق معه في الهدف وتختلف في الطريقة والمسمى على النحو التالي:

(١) من التبعية إلى الأصالة، أنور الجندي ص ٦ .

١. ضعف الانتماء لدى المستشرقين إلى النصرانية كديانة، وذلك مع انتشار موجة العلمانية؛ من خلال السعي إلى تغريب العالم الإسلامي؛ لا بتحويله إلى النصرانية بل لفرض الثقافة الغربية ونظم الحضارة الغربية بين المسلمين، وهذا لا يعني اختفاء الاستشراق الخادم للتصوير؛ بل إنه لا زال موجوداً من خلال تحقيق الاستراتيجية التنصيرية التي تهدف إلى إبعاد المسلم عن دينه وهذا ظاهر هنا، وأيضاً وجود مدارس أخرى في الاستشراق مستمرة على النهج القديم التنصيري.

٢- غياب الاستشراق التقليدي وظهور لون جديد من الاستشراق يتمثل في ظهور مراكز علمية جديدة ذات طابع مختلف نوعاً ما اتخذت مسميات مختلفة منها: مراكز بحوث الشرق الأوسط، وبعضها اتخذت مسميات أكثر إقليمية أو تخصصت في مجال معين من مجالات الدراسة في الشرق الأوسط كالسياسي أو الاقتصادي أو الأدبي أو غيرها.

كما يلاحظ أيضاً غياب المستشرق التقليدي وظهور الباحث الأكاديمي أو ما يسمى بالخبير الغربي في شؤون الشرق الأوسط، أو الخبير الغربي في الأقاليم العربية والإسلامية، وتحول اهتمامها من أن يكون منصباً على الجوانب الدينية بالدرجة الأولى إلى العناية بالأوضاع السياسية والاقتصادية الحديثة للعالم الإسلامي والعربي والتركيز على الجوانب الدينية المرتبطة بالدور السياسي والاقتصادي للدين في الحياة بالمجتمعات الإسلامية، وهذا الدور كان يلعبه فيما مضى المستشرق التقليدي كجزء من عمله، لاسيما وأن جل المستشرقين القدماء عملوا في الدوائر الاستعمارية كسفراء ودبلوماسيين وموظفين في بلاد الشرق وأصبحوا خبراء يستعان بهم في هذا الأمر من قبل حكوماتهم<sup>(١)</sup>.

ولعلّ من أبرز إفرزات هذه التحولات التي طرأت على الاستشراق هو أنها دفعت المراكز الاستشراقية التقليدية إلى التحول إلى مراكز بحوث تعنى بما تعنى به مراكز البحوث الجديدة، ومن أبرز الأمثلة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن التي تحولت إلى عدد من مراكز بحوث الشرق الأوسط، وغابت مجلة جمعية الدراسات الشرقية، لتحل محلها مجلة شؤون الشرق الأوسط<sup>(٢)</sup>.

(١) أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، محمد خليفة حسن: ص(٨٤-٩٢).

(٢) مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية، أحمد السايح: ص(٥٧).

## المبحث الثاني: التيارات الفكرية المنحرفة وأثرها على المجتمع الإسلامي:

لا شك أن الإنسان اجتماعي بالفطرة وهي ضرورة لحياته، وهذه طبيعة غرسها المولى عز وجل فيه حينما خلقه، ولما هبط آدم إلى الأرض لم يهبط وحده بل مع زوجته، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (طه: ١٢٣)، وقال تعالى: ﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ٣٨)، ومن مقتضيات اجتماع البشر أن يتأثر بعضهم بأفكار بعض وسلوكهم، فلا يمكن الحجر على الفكر أو التحرز من تأثير الأفكار؛ وذلك لأنها ليست مادة يمكن السيطرة عليها ومنعها عن الناس، وقد حاول البشر ذلك فلم ولن ينجحوا.

ولقد طرأ على المجتمعات الإسلامية في عصور التأخر والتخلف كثير من الأفكار والمذاهب التي نشأت في المجتمعات الغربية المتطورة مادياً؛ مما سوغ كثيراً من تلك الأفكار حتى زعم البعض أن سر تطور تلك المجتمعات المادي يرجع إلى ما يطبقونه من أفكار ونظم اجتماعية، وسعوا جاهدين في تطبيق تلك الأفكار في المجتمعات الإسلامية ضارين عرض الحائط بما لدى المجتمعات الإسلامية من نظم وتشريعات سماوية متكاملة تشمل جميع مناحي الحياة؛ لاسيما الجانب الاجتماعي، لكنهم كانوا في اندفاع لا يفسرهم إلا ما ذكره ابن خلدون في مقدمته من أن المغلوب مولع أبداً بالاقْتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، وذكر أن السبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيم، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا كان ذلك انتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به<sup>(١)</sup>.

ولأجل ذلك فإنه لا يستغرب موقف كثير من أبناء المسلمين الذين أصيبوا بالهزيمة النفسية أمام التقدم المادي المذهل للغرب، حتى أصبح كل ما جاءهم من قبل الغرب من الأفكار والمبادئ والنظريات مدعماً ببأس الحديد معززاً بقوة الحجاج وشواهد العلم، ومزخرفاً بفاتن الألوان؛ أنزله ذوو العقول الفاترة والعقليات المغلوبة -هؤلاء- منزلة الحقائق التي يجب الإيمان بها واستقر في سويداء قلوبهم - من حيث لا يشعرون- أن كل ما يأتي من الغرب هو الحق وهو

(١) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون: ص (١١٦).

المقياس للصحة والصواب<sup>(١)</sup>.

هذا على الرغم من وجود كثير من التناقضات التي يبوء بها كاهل منهج الحضارة الغربية حيث تناقض في الأفكار وتناقض في القيم وتناقض في المواقف وتناقض بين الأقوال والأعمال<sup>(٢)</sup>، الأمر الذي أربك دعاة التغريب في المجتمعات الإسلامية - لاحقاً - لاسيما بعد ظهور زيف كثير من المبادئ والأفكار الغربية التي كان أولئك يدعون إليها ويبشرون بها بصورة جلية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما أعقبها من تدمير لأفغانستان ثم العراق بعد ذلك في تجلٍ واضح ومصادمة جلية للمبادئ التي كان يدعو إليها ويبشر بها.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا؛ موقف أولئك الذين خذلهم الغرب من خلال الممارسات التي جاءت مخالفة لما كان يبشر به دعائه في العالم؛ لاسيما البلاد الإسلامية إذ تنوعت ردود أفعالهم على ثلاثة أشكال:

- فريق رجع عن تلك الأفكار وإن بقي معه شيء من لوثتها.  
- وفريق حاول أن يؤسلم جملة من تلك الأفكار والمبادئ فظهرت العلمانية التي ترتدي ثوب الإيمان.

- وفريق استمر على غيه بل غلا وزاد فأصبح غريباً في أفكاره أكثر من الغربيين أنفسهم.  
ولعل من أبرز وأهم التيارات والمذاهب الفكرية المعاصرة التي دخلت على المجتمعات الإسلامية وكان لها أثر بالغ فيها ما يلي:  
أولاً: العلمانية:

تعرف ويكيبيديا "الموسوعة الحرة" على الشبكة العالمية للمعلومات العلمانية بقولها: تأتي كلمة علمانية من الكلمة الإنجليزية Secularism (سيكيولاريزم) وتعني إقصاء الدين والمعتقدات الدينية عن أمور الحياة<sup>(٣)</sup>، ويذهب آخرون إلى أن العلمانية هي الترجمة العربية

(١) نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي: (١/١٢٢) (طد، ت د).

(٢) الإسلام لعصرنا، جعفر شيخ إدريس: ص (٨١).

(٣) موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، <http://ar.wikipedia.org> (مفردة العلمانية)

لكلمة [Secularism, Secwarita] في اللغات الأوروبية حيث يقصد بها: إقامة الحياة بعيداً عن الدين أو الفصل الكامل بين الدين والحياة، كما تعرف دائرة المعارف البريطانية العلمانية بأنها: حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها<sup>(١)</sup>.

من خلال ما سبق يتضح ضعف التعبير الشائع عن العلمانية بأنها فصل الدين عن الدولة إذ لا يعطي المدلول الكامل والحقيقي للعلمانية والصواب أن يقال: فصل الدين عن الحياة، فالعلمانية باختصار تدعو إلى إقامة الحياة على غير الدين، وهي تنقسم في الواقع التطبيقي بعد ظهورها إلى قسمين:

. علمانية غير معادية للدين ولا قامة له، ولكنها تكاد تلغيه؛ كعلمانية العالم الغربي.

. علمانية متطرفة محاربة للدين، كعلمانية الشيوعية والعلمانية الإلحادية في العصر الحاضر.

ولكن على الرغم مما بذله دعاة المنهج العلماني في العالم الإسلامي إلا أنه واجه حملة كشفت حقيقته في العالم الإسلامي مما جعله غير مقبول عند عموم الشعوب الإسلامية لمعرفة بحقيقته؛ الأمر الذي ألجأ دعاة العلمانية إلى الخروج ببدعة جديدة وهي إعطاء العلمانية زخم ديني لكي يمنحها قبولاً في المجتمعات الإسلامية فأطلقوا ما يسمى بـ "العلمانية المؤمنة" التي يعرفونها بأنها: حرية المعتقد على الصعيد الفردي، تسمح بممارسة الشعائر الدينية جماعياً لأي كيان اجتماعي مهما صغر أو كبير متمتعاً بقدر وافٍ من الاستقلالية عن سلطة الدولة وهي تعني مواطنة بلا دين<sup>(٢)</sup>، والمتأمل لهذا التعريف يجد أنه لا يقدم أي جديد، فهذه العلمانية في قسمها الذي لا يحارب الدين، الجديد فقط: الاسم الذي قد يسوغ عند بعض العوام أو أشباه العوام قبول المنهج العلماني لأجل أنه ألحق به مسمى (المؤمنة).

إن كل من اطلع على فكرة المنهج العلماني يستطيع أن يدرك أن هذا المنهج مخالف للإسلام جملة وتفصيلاً مهما حاولوا إظهاره بأنه لا يصادم الإسلام، فالإسلام كدين شمولي لا يقبل بحال

(١) مثل قاموس العالم الجديد: لوبستر، ومعجم أكسفورد، والمعجم الدولي الثالث الجديد: انظر العلمانية، د.سفر الحوالي: ص(٢١-٢٤).

(٢) جريدة الشرق الأوسط، عدد ٩٠١٠، الأربعاء ١٤٢٤/٥/١هـ، غانم جواد.

من الأحوال - في أصوله وجذوره ومرتكزاته - ذلك الفصل الذي يمثل العمود الفقري للعلمانية؛ إذ هم -العلمانيون- يحرصون دور الدين في علاقة العبد بربه ويفضون أن يتعدى ذلك لينظم باقي مناحي الحياة. وهذا يخالف منهج الإسلام وهو أمر يدركه من كان له أدنى بصيرة ومعرفة بحقيقة الإسلام كدين جاء ليكون حاكماً على الحياة في مختلف مناحيها وجوانبها.

ويكفي أن نعلم أن العلمانية ترتبط في ظهورها بعصر الثورة على الدين في الغرب في القرن الثامن عشر؛ وذلك على يد رجل يعرف بجورج هوليوافي وهو بريطاني ملحد؛ وذلك عام ١٨٤٦م<sup>(١)</sup>، كما ظهرت فكرتها في الهند وحصلت على دعم كبير من الهندوسيين، ففكرة العلمانية مرتبطة بمحاولة إضعاف دور الدين في الحياة.

ونظراً لكون العلمانية فكرة غريبة فقد تبناها الغرب وأصبحت من القضايا المسلم بها في الفكر الغربي السياسي، ومن ثم في الفكر السياسي العالمي الدائر في فلك الحضارة الغربية وأصبح الضغط منصباً على جعلها النظام السائد في كل دول العالم<sup>(٢)</sup>.

ويمكن أن نخلص مما سبق إلى الأمور التالية:

- العلمانية تُعد منهج حياة يهدف إلى فصل الدين عن الدنيا أو يمكن أن يقال عنها أنها: (إيديولوجيا-عقيدة- تشجع المدنية والمواطنة وترفض الدين).

- العلمانية حديثة الوجود غريبة الأصل، فرض وجودها ظروف عاشها العالم الغربي تحت ضغط الكنيسة التي وظف رجالها الدين في الضغط على الناس واستعبادهم.

- اضطراب تطبيقات العلمانية لدى المتبنين لها من العالم الإسلامي، فليس هناك رؤية واضحة ولا فكرة متفق عليها عندهم.

### ثانياً: العولمة:

فالعولمة في اللغة: العولمة تعني إكساب الشيء طابع العالمية أو أنها تصيير المحلي عالمياً.

أما تعريف العولمة وتوصيفها العقلي العملي فهو أمر مختلف فيه بشكل كبير حيث نجد أن

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، علي جريشة: ص(٧٥).

(٢) الإسلام لعصرنا، جعفر شيخ إدريس: ص(٩٠).

البعض يحرصها في جانب أو جوانب من النشاط الإنساني، فتجد من يقصرها على النشاط الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي أو التجاري أو الثقافي، والصحيح هو أن العولمة في مدلولها الأعم الأشمل هو: صيرورة العالم واحداً<sup>(١)</sup>، وهو ظاهر الدلالة على محاولة صبغ العالم بصبغة واحدة من خلال توحيد النظم والرؤى والمنطلقات بحيث تلغى قضايا التفرد والخصوصية الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ويصبح العالم بمختلف تقسيماته عالماً واحداً.

ويعرفها آخر بقوله: ( العولمة هي التداخل الواضح لأمر الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو انتماء إلى وطن محدد أو لدولة معينة ودون حاجة إلى إجراءات حكومية )<sup>(٢)</sup>.

فالعولمة ليست تعريفاً جامداً لحركة ثقافية فحسب، بل هي أكبر من ذلك بكثير فهي ليست مصطلحاً لغوياً قاموسياً جامداً يسهل تفسيره بشرح المدلولات اللغوية المتصلة بها، بل العولمة مفهوم شمولي يذهب عميقاً في جميع الاتجاهات لتوصيف حركة التغيير في سيرورتها المتصلة، ولأجل ذلك فالأمر المهم في الموضوع هو فهم كنه العولمة ومضمونها<sup>(٣)</sup>، إذاً فهي حركة تغيير شاملة من ناحيتين: الناحية الأولى أنها شاملة للجميع يعني للعالم كله لا مناص لأي أحد عنها، والناحية الأخرى أنها شاملة لكل جوانب الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها

هذا المفهوم وصل إليه جموع من المثقفين الغربيين وغيرهم ورأوا في العولمة أنها في حقيقتها إرادة للهيمنة من خلال القمع والقضاء على الخصوصي، إذن العالم الواحد الذي يُراد الوصول إليه هو المتمثل في النموذج الغربي والذي يحقق مصالح الغرب، وهذا أمر ظاهر وواضح غاية الوضوح وذلك أن العولمة تقتضي توحيد النظم والقيم وغيرها حسب النظام الغربي. فالغرب هو الذي سيتولى تحديد معايير القيم ومواصفاتها، وهو الذي يوجه هذه العولمة، فإن هذه العولمة ستكون مصبوغة بالصبغة الغربية فلسفة ونمط حياة، وهذا القول ليس استنباطاً فحسب بل هو

(١) العولمة والعالم الإسلامي أرقام وحقائق، عبد سيد عبد إسماعيل: ص(٣٨).

(٢) مقال بعنوان: الاقتصادي والسياسي والعولمة، مصطفى العبد الله الكفري: موقع الحوار المتمدن:

[www.rezgar.com/w.asp?l.349](http://www.rezgar.com/w.asp?l.349)

(٣) العولمة والعالم الإسلامي، عبد سعيد عبد إسماعيل: ص(٤٤).



الحقيقة المعلنة التي تظهر في أطروحات مثقفي الغرب وصانعي القرار فيهم، يقول أحدهم<sup>(١)</sup>: "يتعين على الولايات المتحدة ألا تتردد في الترويج لقيمها وسعيها لأن يكونوا مهذبين أو سياسيين ينبغي على الأمريكيين ألا ينكروا حقيقة أنه بين كل الأمم التي عرفها تاريخ العالم، فإن أمتهم هي الأكثر عدلاً والأكثر تسامحاً والأكثر حرصاً على إعادة تقييم الذات وتحسينها وهي النموذج الأفضل للمستقبل، ويتعين على الأمريكيين أن يروجوا لرؤيتهم للعالم لأن الفشل في القيام بذلك أو تبني موقف "عش ودع غيرك يعيش" يعنيان التنحي، فهل تبني قادة أجناب كنماذج تشجع النزعة الانفصالية والصدوع الثقافية التي تقوض الاستقرار، ويمثل تهديداً لصالح الولايات المتحدة وللسلام الإقليمي وللأسواق الأمريكية ولقدرة الولايات المتحدة على القيادة؟ إن الإجابة هي نعم بالتأكيد<sup>(٢)</sup>، وهي كذلك سوف تكون مفصلة على ما يحقق مصالح تلك القوى ويحفظ لها موقعها المتفوق وريادتها الحضارية ويُقيي عالم الضعفاء أتباعاً مهمشين منجذبين من أنفسهم أو بسطان العولمة نحو التبعية لتلك القوى .

ولعل من أبرز ما أسهم في فرض العولمة ما حدث في نهاية القرن التاسع عشر وعلى امتداد القرن العشرين من تطورات هائلة في مجال التكنولوجيا لاسيما في مجالي الاتصالات والمواصلات الدولية حيث أصبح من الممكن القول أن العالم أصبح قرية واحدة، من خلال سهولة التواصل العالمي بانتقال الأفكار والمبادئ والقيم فضلاً عن الأمور المادية المتعلقة بالاقتصاد وغير ذلك، وهذا يجزنا إلى الحديث عن الوسائل التي يتم فرض العولمة من خلالها، والتي من أبرزها:

أ - الإعلام: فالإعلام هو الوسيلة الأبرز لاسيما في الجانب الأخطر وهو الجانب الفكري والثقافي، الذي يهدف إلى إعادة بناء المنظومة الفكرية والثقافية في العالم بما يتوافق مع فكر معين، ولا شك أن الإعلام بمختلف جوانبه ومناشطه الصحفية والكتب والمؤلفات ومواقع الإنترنت والأفلام وغيرها استطاعت أن تحقق تقدماً رهيباً في هذا الباب وهو أمر مشاهد وظاهر في جميع دول العالم، ولعلي أشير هنا إلى ما تحققه أفلام هوليوود الأمريكية من تأثير بالغ على عقليات الشباب في محاولة إبراز الأمريكي والغربي عموماً وجعله النموذج المتميز الذي

(١) هو ديفيد روشكوف أستاذ جامعي ومسؤول في حكومة كلنتون سابقاً.

(٢) العولمة الغربية (الصحة الإسلامية)، عبد الرحمن الزيندي: ص(١٨-١٩) .

يستحق أن يسار على نهجه ويقتفى أثره.

**ب - الغزو والاحتلال والاستعمار:** وهي وسيلة قديمة حديثة حيث عادت بصورتها الجديدة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في محاولة لإزالة كل ما يعترض طريق العولمة وتنصيب من يسهم في امتدادها ويدعمها.

**ج - الضغوط الاقتصادية والسياسية والتهديدات العسكرية،** وهذا لا شك من الوسائل التي أتاحت فرض توجه واحد وفكرة واحدة، إلى غير ذلك من الوسائل. ولا بدّ هنا أن نقول إن العولمة لم تكن كما كان يرجى لها وذلك بأن تسود العالم ثقافة إنسانية تناسب كل الناس وتساعد على تعاونهم وتطورهم والاستفادة من خبرات بعضهم بعضاً، بل عادت العولمة أن تكون تغريباً بسبب هذا التفوق الغربي وعدم تسامح حضارته مع الحضارات الأخرى<sup>(١)</sup>؛ ولذا أفرزت سلبيات عظيمة. ولعل من أبرزها في الجوانب الاقتصادية والثقافية:

**أولاً: الاقتصاد:** ارتبطت العولمة بالمؤتمرات والمنظمات الاقتصادية كمنظمة " الجات " وبعدها منظمة التجارة العالمية والمؤتمرات الدولية التي تعقدها كمؤتمر دافوس وغيره مما كان على نسقه، وكلها تتجه إلى تحرير الأسواق وخصخصة المؤسسات وانسحاب الدولة من الدعم الاقتصادي للمؤسسات الوطنية بل وانسحابها حتى من وظائفها الاجتماعية المرتبطة بالجانب الاقتصادي كالرعاية الاجتماعية، وظاهر في تلك المنظمات والمؤتمرات سعيها الحثيث لفرض مصالح الدول الأقوى اقتصادياً على ما سواها، بل وسحق ما سواها لأجل مصالح الأقوياء وتحويل شعوب الأرض سوى الأقوياء إلى مستهلكين فقط يعيشون عالة - في الجانب الصناعي - على الأقوياء. والأمر الذي لا شك فيه أن السبق والغلبة ثم الهيمنة هي للأقوى اقتصادياً والاندحار ومن ثم الانهيار من نصيب الضعفاء اقتصادياً ، وهذا يفسر لنا سبب الإلحاح المستمر من الغرب وبالذات أمريكا على حشد دول العالم نحو الانخراط في المنظومة الاقتصادية الغربية تحت مظلة العولمة والترهيب من التخلف عن ذلك.

(١) الإسلام لعصرنا، جعفر شيخ إدريس: ص(١٤١).

ثانياً: الثقافة: المراد بالثقافة هنا هو ذلك الكل المتجانس والإبداعات والقيم والأفكار والمعايير والرموز والتعبيرات والإبداعات وأنماط العيش التي تشكل قوام حياة المجتمع<sup>(١)</sup>، وظاهرة خطيرة العولمة التي تسعى إلى صياغة ثقافة كونية شاملة تغطي مختلف جوانب النشاط الإنساني، فهناك اتجاه صاعد يضغط في سبيل صياغة نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية<sup>(٢)</sup>، التي تتوافق بطبيعة الحال مع نسق الحياة والثقافة الغربية حيث تسعى القوى الغربية وعلى رأسها أمريكا إلى إيهام الشعوب على المستوى العالمي والضغط على الحكومات بوجود الانتماء إلى ثقافة عالمية واحدة وطمس الفروق الحضارية بين المجتمعات مع الإيمان بأن الثقافة العالمية يجب أن تستمد من الثقافة المركزية الغربية المهيمنة نظراً لتفوقها التكنولوجي الهائل وتعاضمها الاقتصادي وامتلاكها لمعظم الإدارات الإعلامية وشبكات المعلومات المتقدمة على المستوى العالمي في خضم ذلك ستجد الشعوب نفسها سائرة في فلكها دون اختيار<sup>(٣)</sup>.

ولعل أبرز المخاطر الثقافية التي تواجهها شعوب الأرض التسلط على هوية الشعوب للعبث بها أو إلغائها؛ ذلك أنه لا يراد البقاء إلا لهوية واحدة وهي هوية القوى الذي لا يريد أي مقاومة، ولأجل ذلك فقد سخر العولمة لطمس المعالم الشخصية التي تميز كل أمة ثم ماذا؟ ثم صبَّ الجميع بالشخصية الغربية ثم التبعية الكاملة للغرب، والضرر يتفاوت من أمة لأمة ومن شعب لشعب، وذلك على مقدار بعدها وقربها من الأسس التي تقوم عليها ثقافة الغرب وقيمه وتطلعاته.

والمأمل لكثير من المجتمعات الإسلامية يجد طمسًا واقعيًا في كثير من معالم الشخصية الإسلامية، ولعل من أبرز ذلك ما يظهر من الزي واللباس الذي أصبح يلفظ المحلي ويتجه بقوة نحو الغربي لاسيما لدى الشباب، ثم اللغة التي ضعف الاهتمام بها في مقابل العناية الفائقة باللغة الإنجليزية، ولا شك أن ذلك وإن كان لا يبدو أموراً شكلية إلا أن التغيير غالباً ما يبدأ كذلك الأمر الذي لا بد أن يتنبه له هو أن مخاطر العولمة على الهوية إنما هي مقدمة لمخاطر

(١) العولمة، عبد الكريم بكار: ص(٨٣).

(٢) ظاهرة العولمة: ص(١٠٤).

(٣) الخروج من فخ العولمة، كمال الدين عبد الغني المرسي: ص(١٨).

أعظم على الدولة والوطن والثقافة والأمة إذ هي تعني بلا شك مزيداً من تبعية الأطراف للمركز تجميعاً لقوى المركز وتفتيتاً لقوى الأطراف ومن خالف ذلك أو لم يستجب له فإنه يجلد بسياط حقوق الإنسان، وحقوق الأقليات والحريات الدينية وحقوق المرأة بل يتجاوز الأمر ذلك للدعم المباشر للمتبنين للعولمة والتبعية المطلقة والضغط على الحكومات لأجلهم<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: الليبرالية:

هي كلمة أعجمية وليست عربية، ترجع إلى اللغة اللاتينية وهي مشتقة من (Liber) (ليبر) وتعني الحر، وهي تطلق الآن ويراد بها حركة أو مذهب له فكر معين لا نستطيع أن نحدد له تعريفاً دقيقاً يمثل مفهوم الليبرالية، والسبب في ذلك يرجع إلى عدم الثبات الذي يعاني منه هذا المذهب وهو أمر يعترف به أربابه والدارسون له، جاء في الموسوعة العربية العالمية: وتعتبر الليبرالية مصطلحاً غامضاً لأن معناها وتأكيدها تبدلت بصورة ملحوظة بمرور السنين<sup>(٢)</sup>، وجاء في الموسوعة الحرة (ويكيبيديا): الليبرالية تتعدد بتعدد الليبراليين، وكل ليبرالي فهو مرجع ليبراليته، وتاريخ الليبرالية المشحون بالتجارب الليبرالية المتنوعة والنتاج الثقافي المتمحور حول قيم الليبرالية كلها مراجع ليبرالية لكن أياً منها ليس مرجعاً ملزماً ومتى ألزم أو حاول الإلزام سقط من سجل التراث الليبرالي<sup>(٣)</sup>.

ولأجل ذلك نجد أن تحديد مفهوم دقيق لهذا المصطلح أمرٌ في غاية الصعوبة.

ولو أردنا العودة لتاريخ هذا المذهب لعلنا من معرفة تاريخه نستطيع أن نستوضح معالمه لقلنا: أن الليبرالية ظلت في الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى نحو ثلثي القرن التاسع عشر

(١) انظر: الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، حسن حنفي: ص(٣٣) (ضمن مطبوعات جامعة فيلادلفيا كلية الآداب والفنون، الأردن، ضمن مؤتمر (العولمة والهوية) منشورات الجامعة عام ١٩٩٩م، الأردن)، و العولمة، عبد الكريم بكار: ص(٨٥).

(٢) عن: الليبرالية نشأتها ومجالاتها، عبد الرحيم السلمي. (موقع ليبرالي [lebraly.com](http://lebraly.com)).

(٣) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) ([wikipedia.org](http://wikipedia.org)).

(القرن الذي برزت فيه الليبرالية<sup>(١)</sup>) تعني اعتناق المذهب الاقتصادي القائل بحرية العمل (Laissez Faire)، ثم تطورت مع مرور الوقت وأصبحت تحمل مبادئ مرشدة ومواقف موجهة أكثر رسوخًا من مجرد حرية العمل، لكنها لم تبعد عن المجال الاقتصادي على الرغم من النزعة الاجتماعية التي طرأت عليها إذ تفترض الليبرالية دائمًا أن زيادة الرفاهية المادية وإن لم تكن تضمن الفضيلة دائمًا إلا أنها تزيل السبب الأصلي للذيلة<sup>(٢)</sup>.

أما من الناحية السياسية -وكذا الاجتماعية- فنظرة الليبرالية كانت دومًا لها نظرة علمانية وهي تدعم بشكل قوي فصل الدين عن الدولة، بل وتنفر من سيطرة الدين وأهله على نواحي النشاط الاجتماعي والتعليم والسياسة.

ولعل من أبرز نتاج الفكر الليبرالي في المجال السياسي "الديمقراطية" حيث أنها تعطي جملة من الحريات السياسية مثل حرية الترشيح، وحرية التفكير والتعبير، وحرية الاجتماع وحرية الاحتجاج، كما تعطي جملة من الضمانات المانعة من الاعتداء على الأفراد وحريةهم مثل ضمان الاتهام، وضمان التحقيق وضمان التنفيذ وضمان الدفاع.

وعلى الرغم من صعوبة تحديد مفهوم دقيق لليبرالية إلا أن هناك جوهرًا أساسيًا يتفق عليه جميع الليبراليين يتكون من عناصر أهمها:

١- أن الفرد هو الأساس، ومن هذا الفرد وحوله تدور فلسفة الحياة برمتها وتنبع القيم التي تحدد الفكر والسلوك معًا يقول "تشارلز فرنكل": ( وقد دأب الليبراليون منذ لوك وفولتير على القول بأن تقييم رأي اجتماعي أو نظام سياسي لا يتطلب أكثر من استرشاد بمصالح الإنسان ومهامه وميوله في الحياة الدنيا )<sup>(٣)</sup>.

كما ترى الليبرالية مبدأ أولوية الفرد على الجماعة ويعد هذا الخط الرئيسي للفكر الليبرالي الأمر الذي دفع بعض الليبراليين إلى تعريف المجتمع باعتباره "مجموعة من الأفراد يسعى كل واحد منهم لتحقيق مصالحه واحتياجاته"، ويطلق على هذا الرأي المذهب "الذري" حيث ينظر

(١) الليبرالية، صلاح نيوف: (مقال) (موقع الرأي Arrae.com).

(٢) أزمة الإنسان الحديث، تشارلز فرنكل، ترجمة: نقولا زيادة: ص(٣٦، ٣٧).

(٣) أزمة الإنسان الحديث، تشارلز فرنكل، ترجمة: نقولا زيادة: ص(٣٧).

للأفراد كذرات متنافرة بداخل المجتمع، وهذا التفكير يؤدي إلى فكرة مؤداها أنه لا وجود للمجتمع بل هو متخيل فهو مجموعة من الأفراد المكتفين ذاتياً<sup>(١)</sup>، أو قد يقال أنه فكر يحمل أكبر حالات الصراع الكل ضد الكل<sup>(٢)</sup>، فالفرد كل فرد يسعى لتحقيق مصالحه واحتياجاته ويرى أنه لا يمكن لأحد أن يقف في طريقة والنتيجة صراع لا نهاية له.

٢- تنظر الليبرالية إلى العقائد الدينية والفلسفية على أنها أمور شخصية قد تكون لها أهمية قصوى في خلاص الفرد وفهمه معنى الحياة، ولكن دون أن يكون لها أي قيمة سياسية في حد ذاتها.

٣- ترى أن النزاع على السلطة هو الحقيقة الثابتة في الحياة السياسية، وقد طرح هذا عدد كبير من الكتاب الليبراليين من جون لوك إلى جيمس مل إلى برتراند رسل إلى ج.ك. غولبريت وتنطلق الفكرة من اعتقادهم أن المصدر الأكبر للظلم الاجتماعي هو احتكار السلطة في يد جماعة واحدة سياسية أو اجتماعية أو دينية والسييل الوحيد في نظرهم - لاتقاء قيام الظلم الاجتماعي هو أن توازن القوة بالقوة<sup>(٣)</sup>.

٤- لا تعترف الليبرالية بمرجعية مقدسة إذ ترى أنها لو قدست أحد رموزها إلى درجة أن يتحدث بلسانها، أو قدست أحد كتبه إلى درجة أن تعده المعبر الوحيد أو الأساس عنها لم تصبح ليبرالية ولأصبحت مذهباً منغلماً على نفسه.

ما سبق يعطي الملامح الأوضح لهذا الفكر المسمى الليبرالية، ولعل المطلع عليه وعلى أطروحات أربابه يلاحظ أموراً أهمها:

١- أن الفكر الليبرالي ينطلق في بنيته الأساسية من السعي الحثيث في محاولة معرفة الآخر من خلال ما قدمه هذا الآخر عن نفسه وليس من خلال قراءته نقدية ؛ متجاوزاً الأهم والأولى وهو معرفة الذات بجميع خصائصها ومميزاتها، بل متجاهلاً لها متجاوزاً إياها عن

(١) الجوهر الليبرالي: فردانية القيم والتصورات، هبة رؤوف عزت: (مقال) (موقع إسلام أون لاين [www.islamonline.net](http://www.islamonline.net)).

(٢) الليبرالية، صلاح نيوف: (مقال) (موقع الرأي: [Arraee.com](http://Arraee.com)).

(٣) أزمة الإنسان الحديث، تشارلز فرنكل: ص(٣٧).

عمد<sup>(١)</sup>، ولذلك نجد الأطروحات الليبرالية فيها من التمجيد والتعظيم والإجلال لنظريات لا ترتقي لما يوجد من أنظمة في الشريعة الإسلامية التي على الرغم من حسنها الذي شهد به الأعداء وكثرتها وتعدد مجالاتها لم تلفت نظر هؤلاء ولم يعنوا بها كعنايتهم بما يطرح في الغرب من أفكار لا ثبات لها ولا اتزان.

٢- الفكر الليبرالي من اسمه يلاحظ أنه منتج غربي كان نتاج واقع عاشه المجتمع الذي ظهر فيه هذا الفكر، وهذا الفكر قد يكون أثمر في ذلك المجتمع وأدى نتائج مقبولة فهو متميز بالنسبة للمستفيدين منه، ولكن قد لا يكون كذلك لدى مجتمعات لم تستفد منه، بل لا تحتاج إليه أصلاً، وهنا لا بد أن نشير إلى أن الفكر الليبرالي لم يقرأ قراءة نقدية ممن أعجب به من الليبراليين العرب بل أخذهم الإعجاب بالحضارة المادية الغربية فاعتقدوا أن الرقي بمجتمعاتهم لا يكون إلا بسلوك نفس الطريق والنسج على منوال القوم فركبوا موجة هذا الفكر دون وعي بمضامين - لدى البعض - وحاول غرسه في المجتمعات العربية، كما أن فئام منهم قد ضاقوا ذرعاً بمكانة الدين لدى المجتمعات العربية وإقبالهم عليه؛ فأروا أن وجود مثل هذا الفكر الذي يدعو إلى الحرية سبيلاً لتهميش الدين ومن ينتمون أو يدعون إليه فكانت عنايتهم بهذا الفكر؛ ولو أنهم قرؤوا هذا الفكر قراءة نقدية لوجوده خالياً من المقومات الأساسية للنظم الحقة التي تحمل طياتها أبرز أسس البقاء والتي على رأسها الثبات والتوازن؛ إذ هي منتج بشري ولا يمكن لأي منتج بشري أن يحمل الثبات، ولذا نجد أرباب هذا الفكر يعترفون بعدم ثباته ( الليبرالية تكاد تتعدد وتتعدد وتنوع وتعدد وتنوع من يتمثلونها، لا يمكن أن أحاسب ليبرالياً ما بقول يقول به ليبرالي آخر؛ لأن كلاً منهما مسؤول عن ليبراليتها وليس عن ليبرالية الآخرين كما أن تيارات الليبرالية متنوعة فمنها ما ينحو منحى إيمانياً يكاد أن يعم جميع أفراد التيار، ومنها ما ينحو على الضد من ذلك<sup>(٢)</sup>، فهل مبدأ كهذا يحمل في مضامينه نظام يمكن أن يسير عليه مجتمع ما.

أما التوازن فظاهر الشطط في هذا الفكر الذي يقدر الفرد ويجعله المحور الذي يدور عليه مهمشاً المجتمع بل موجداً للعداوة بين المجتمع والفرد، فالليبرالية كانت دائماً في الجانب الذي

(١) انظر: هل للفكر العربي الحديث من فلسفة، ماجد صالح السامرائي، (awu-dam.org) مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق (عدد ٢١، السنة ٨، شتاء ٢٠٠٥م).

(٢) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا). <http://ar.wikipedia.org>

يدعو إلى التحرر من القيود التي تربط الناس ربطاً وثيقاً بأي فئات اجتماعية، بمعنى أنهم يسعون لإلغاء أي سلطة يمكن أن تسيطر على الفرد<sup>(١)</sup>، وهذا أمر لا شك مدمر للمجتمع إذ لا تستقر المجتمعات بمثل هذه النزعة الفردية ولا بضدها، بل بهما معاً وسبق بيان شيء من ذلك.

٣- تضارب آراء مفكريهم في أساس الفكر الليبرالي وهي الحرية، فبينما لا يقبل الكثير من الليبراليين بالحرية المطلقة بل يذهب جون ستيوارت ميل إلى أن المبرر الوحيد لممارسة القوة بشكل صحيح تجاه أي عضو في المجتمع المتحضر والتي تكون ضد إرادته هو منع الضرر عن الآخرين بمعنى أنه هنا يسلب الحرية، ثم نجده يذهب في رأي آخر إلى رفض أي قيود تفرض على الفرد لمنعه من تدمير نفسه جسمانياً أو أخلاقياً، وبهذا يرفض القوانين التي تجبر سائقي العربات على ربط حزام الأمان أو سائقي الدراجات النارية ارتداء الخوذة، ويساويهما تماماً بالرقابة التي تمنع الأفراد من القراءة أو الاستماع إلى رأي ما، بل ويدافع أصحاب الفكر التحرري المتطرف عن حق الفرد ما يشاء بما في ذلك تناول المخدرات<sup>(٢)</sup>، ولا شك أن هذا من التضارب الذي يدل على وجود خلل في المنهجية التي يعتمد عليها أرباب هذا الفكر إذ كيف يتم فرض حماية الآخر من الفرد ولا يتم حماية الفرد من نفسه بمعنى كيف لفكر يعظم الفرد أن لا يسعى في حمايته والحفاظ على ذاته.

### تيارات الغلو والتكفير والتخريب:

في مقابل تلك التيارات الفكرية ذات الامتداد الايديولوجي الغربي فإنه في المقابل ظهر في بلاد المسلمين بعض التيارات الفكرية الغالية التي هي امتداد لظاهرة الغلو عند الفرق القديم كالخوارج والجماعات الحديثة الغالية كجماعة التكفير والهجرة، وقد اختزقت من قبل المشبوهين والعملاء ووقع في شباكهم وتأثر بشبهاتهم بعض الشباب الغر، قليلي الثقافة والتحصين الذين عندهم نزعة تدين وحب للخير حتى جيشوهم جنوداً لهم ينفذون أهدافهم بغير وعي ولا بصيرة من قتل وتفجير وتدمير في بلاد المسلمين.

والغلو هو مجاوزة الحد المشروع إفراطاً أو تفريطاً.

(١) أزمة الإنسان الحديث، تشارلز فرنكل: ص(٣٧-٣٨).

(٢) الجوهر الليبرالي، هبة رؤوف عزت: (مقال) (موقع إسلام أون لاين [www.islamonline.net](http://www.islamonline.net)).



وقد جاءت الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة في النهي عن الغلو والتنطع في العبادة ومن ذلك:

١/ قوله تعالى: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١)

٢/ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٧٧). فهذا التحذير وإن خوطب أهل الكتاب إلا أن المقصود به المسلمون أيضاً حتى يجتنبوا موجبات الغضب التي وقع فيها من سبقهم من الأمم<sup>(١)</sup>.

٣/ وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: ١١٢)، فالآية نص صريح على الأمر بالاستقامة، وهذه الاستقامة ليست حسب الأهواء أو اجتهادات البشر بل حددها الشارع بأن تكون (كما أمرت) أي كما أمر الله ورسوله. ثم أكد ذلك بالتحذير مما يقابل الاستقامة وهو الطغيان (ولا تطغوا) والطغيان مجاوزة الحد إفراطاً أو تفريطاً.

٤/ ومن الأحاديث ما جاء عن أبي العالبي قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما قال لي رسول الله ﷺ عِدَاةُ الْعُقْبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ: (هَاتِ الْقُطْبَ لِي. فَلَقَطْتُ لَهُ حَصِيَّاتٍ هُنَّ حَصِيَّاتُ الْخَذْفِ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ: بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ وَإِيَّاكُمْ وَالْعُلُوُّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْعُلُوُّ فِي الدِّينِ)<sup>(٢)</sup>، قال ابن تيمية: " وهذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبار بناء على أنها أبلغ من الصغار، ثم علله بما يقتضي مجانية هديهم، أي هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك"<sup>(٣)</sup> ..

٥/ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ،

(١) تفسير الطبري (٣٤/٦).

(٢) رواه أحمد في المسند ح رقم ١٨٥١، و النسائي ح رقم ٣٠٠٧، وابن ماجه ح رقم ٣٠٢٩، والحاكم في المستدرک ١/ ٢٣٧ وصححه، وصححه الألباني في حجة النبي ﷺ، ص: (٨١).

(٣) نقلاً من كتاب تيسير العزيز الحميد ص: ٢٧٥.

فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشُرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ، وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّجَةِ<sup>(١)</sup> (٢)، قال ابن حجر " وَالْمَعْنَى لَا يَتَعَمَّقُ أَحَدٌ فِي الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ وَيَتْرُكُ الرَّفْقَ إِلَّا عَجَزَ وَأَنْقَطَعَ فَيُعْلَبُ " (٣)، وقد رأينا ورأى الناس عواقب الغلو والتشدد، من ترك الالتزام، وعدم الثبات على الحق، وهذه من دلائل النبوة المشاهدة على مر العصور.

٦/ عَنْ الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (هَلْكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلَاثًا)<sup>(٤)</sup>، قال الإمام النووي: " المتنطعون: المتعمقون، المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم " (٥).

فمن خلال هذه الأدلة القرآنية، وما جاء من بيان إضافي في السنة المطهرة يتبين بصورة قاطعة النهي الصريح عن مجاوزة الحد، والزيادة على ما شرع الله جلَّ وعلا، فكما أن التفريط فيما شرع الله انحراف، كذلك الزيادة عليه انحراف أشد وأخطر، وأن الهداية في الاستقامة على الكتاب والسنة دون إفراط أو تفريط.

وكان لهذه الظاهرة من الأسباب إضافة إلى ما تقدم من كونها ردة فعل للتيارات التغريبية الأنف ذكرها وما تبثه من فساد وانحلال في بلاد المسلمين فهناك أسباب أخرى من أهمها:

١/ الجهل بالدين: ويشمل الجهل بالكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح في النظر والاستدلال. كما تقدم الجهل بعقيدة أهل السنة والجماعة. والجهل بمقاصد الشريعة والسنة الربانية ومراتب الأحكام ومناهج الاستدلال والجمع بين الأدلة.

٢/ الإعراض عن العلماء وعدم التلقي منهم والاستهانة بهم والطعن فيهم، واتخاذ رؤوساً جهالاً منهم يفتون بغير علم (فضلوا وأضلوا) كما أخبر النبي ﷺ.

٣/ الغلو والتشدد والتعصب للرأي والإعجاب به، والاستعلاء على الآخرين واحتقارهم

(١) الدُّجَةُ: سير ساعة من الليل، وهو إشارة إلى الرفق في العبادة، فتح الباري ١٣ / ٣٦٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ح رقم ٥٩٨٢، ومسلم ح رقم ٥٠٣٦.

(٣) فتح الباري ١١ / ٣٥٩.

(٤) رواه مسلم ح رقم ٤٨٢٣.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ / ٢٢٠.

والشعور بالكمال والأفضلية عليهم ، فهم في زعمهم من القاعدين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف... الخ مما أدى إلى القول بتكفير المجتمعات وعلمائها وقياداتها وسوء الظن بالمسلمين.

٤/ الاضطراب النفسي والسلوكي وعدم التوازن والتركيز على بعض الجوانب دون الجوانب الأخرى ، وعدم النظر في عواقب التصرفات ومآلاتها والمبالغة في الأمور بحيث يصعب معها تقبل النقاش والحوار حولها.

٥/ قلة الصبر واليأس والإحباط والبطالة والفراغ مع ثورة الشباب غير المنضبطة والجروح إلى العنف والقوة.

٦/ التقصير الحاصل في بعض المجتمعات المسلمة من ضعف التدين والتساهل في الالتزام بأحكام الشريعة مع ضعف التربية والتحصين وقلة في المحاضن التربوية المؤثرة إضافة إلى الطروحات الفكرية المنحرفة في الإعلام وغيره والمثيرة لغيرة الشباب الدينية وحماسه.

وقد ترتب على هذا زعزعة الأمن وعدم الاستقرار في بلاد المسلمين إضافة إلى ما ترتب على ذلك من إزهاق للأرواح وتدمير للممتلكات وإثارة للفوضى والخلافات ، وتشويه لحقائق الدين وشعائره العظيمة كالجهاد والتدين، وتعطيل كثير من المصالح الشرعية والدينية والطاقات البشرية وتأخير عجلة التنمية وخدمات المجتمع وغير ذلك مما يحزن الصديق ويفرح العدو.

ومن المؤكد أن هذه الظاهرة إذا لم تكن ذات صلة مباشرة بأعداء الأمة في الغرب أو الشرق فمما لا شك فيه أنهم يستثمرونها ويوظفون أتباعها لتحقيق أهدافهم التي من أهمها زعزعة الأمن والاستقرار في أوطان المسلمين ليكونوا عالة عليهم في حماية أمنهم والرضوخ لمطالبهم الاستعمارية. فهل يعي شبابنا ذلك فيحذرون مكائد الأعداء ويكونون لبنات صالحة في مجتمعاتهم وأوطانهم يلتفتون حول علماءهم وقادتهم وأهل الرأي والحل والعقد منهم للمشاركة في البناء والإصلاح وقطع الطريق على العدو المتربص بالإسلام والمسلمين.

### الموقف من تلك التيارات المعاصرة المنحرفة:

ما سلف من الاتجاهات والمذاهب الفكرية لا شك أن لها تواجد كبير في البلدان الإسلامية، وينتمي لذلك الفكر بعض المسلمين، ومنهم من يدعو لتلك الضلالات، ومعلوم ما تشتمل عليه تلك الاتجاهات والمذاهب من مبادئ في حقيقتها كفر بالله وبما جاء عنه من الشرع

المطهر، فهل يصح إطلاق الكفر على كل من انتسب لذلك الفكر سواء أعلن ذلك أم لم يعلنه؟ وهل يجوز تصنيف الناس لمجرد رأي أبداه أو فكرة طرحها؟ الجواب على ذلك في أمور:

أولاً: مسألة تكفير المعين من المسائل الخطيرة التي لا يجوز للمرء أن يتكلم فيها إلا عن علم وبصيرة ووفق ضوابط وقيود لا بدّ من مراعاتها كما سبق الحديث عن ذلك في النقطة السابقة وفي مبحث المفاهيم المنحرفة في الإيمان والكفر، فلا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على أحد حتى لو فعل مما يشرك أو يكفر أو يلعن فاعله لأن الحكم بذلك له أسباب وموانع؛ إذ أن الحكم المعلق على الأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقيق شروط انطباقه وانتفاء موانعه.

ثانياً: قد يطرح البعض آراء أو أفكاراً توافق بعض ما لدى العلمانيين أو الليبراليين أو غيرهم من رؤى وأفكار فلا يعني هذا أنه ينتسب إليهم، أو أن يصنف معهم، بل الصحيح الواجب على المسلم أن لا يتعجل في مثل هذه الأمور، أو يتبين من صاحب المقال، ولا يجوز له بحال من الأحوال أن يشتغل بتصنيف الناس على الظن والهوى حتى لو كان بناءً على دافع عقدي في حسبانته<sup>(١)</sup>، بل لا بدّ له أن يرجع للعلماء الموثوقين في ما يشكل عليه ليعرف وجه الحق في المسائل وقائلها، كما أنه لا بدّ أن يعلم أن تجريح الناس وتصنيفهم بغير وجه حق، شعبة من شعب الظلم فهو من كبائر الذنوب والمعاصي، وقد جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: ( الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ )<sup>(٢)</sup>، وقوله: ( كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ )<sup>(٣)</sup> وغيرها، فهناك فرق بين كشف الباطل والرد عليه، وبين الحكم على من يفعل الباطل.

وهنا تساؤل هام: هل يعني ما سبق السكوت عن طعن في الدين أو هاجمه أو جاء بآراء فاسدة يدعو لها في مواجهة الشريعة؟! لا شك أن الجواب لا بالتأكيد، فالقيام لله نصيحة له ولرسوله ﷺ ولدينه ولكتابه واجب لا يجوز التخلي عنه، وكذلك مواجهة دعاة الباطل من أهل

(١) تصنيف الناس بين الظن واليقين، بكر أبو زيد: ص(٤٠٦) (ط ١، ١٤١٤هـ، دار العاصمة، الرياض).

(٢) صحيح البخاري، باب: الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ح رقم ٦٤٨٤.

(٣) صحيح مسلم، باب: تَحْرِيمُ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ وَخَذْلِهِ وَاخْتِقَارِهِ وَدَمِهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِ ح رقم ٦٧٠٦.

البدعة والضلال واجب وأمر لا شك فيه ؛ لكن هذا لا بد لمن يقوم به أن تتوفر فيه شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يكون أمره بالمعروف معروفاً، ولا يكون نهيه عن المنكر منكراً.

## الفصل الثاني

### دعوة الشيخ: محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية

مدخل: أسباب دراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

المبحث الأول: أحوال العالم الإسلامي والجزيرة العربية قبل ظهور دعوة الشيخ.

المبحث الثاني: نشأة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وطلبه العلم.

المبحث الثالث: الدعوة الإصلاحية للشيخ نشأتها وحقيقتها.

المبحث الرابع: آثار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب العلمية والدعوية

المبحث الخامس: شبه المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

## مدخل عن أسباب دراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

هنالك عدة أسباب دفعت العلماء عامة وأهل هذه البلاد خاصة لدراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية من ذلك ما يلي:

❖ لأنها تمثل نموذجًا للحركات الإصلاحية التي هدفت إلى إصلاح واقع المسلمين بعد أن ساء كثيراً، وقامت بتجديد الدين من خلال إحياء ما أندثر من معالمه خاصة في جوانب العقيدة، وقد صححت الكثير من المفاهيم الخاطئة عن الإسلام في عقول أبناء الأمة، وهي نموذج للبناء والإصلاح لواقع الأمة المسلمة، والنهوض به نحو الأفضل.

❖ أنها من أوائل إن لم تكن أول الحركات الإصلاحية ظهوراً في العالم الإسلامي.

❖ أنها أفضل الحركات الإصلاحية منهجاً وأسلمها طريقة، إذ أنها تدعو إلى الرجوع الصادق للكتاب والسنة والعمل بهما في الاعتقاد والعبادة والسلوك والأخلاق متمثلة منهج أهل السنة والجماعة في ذلك.

❖ خفي حقيقتها على كثير من المسلمين حتى أصبح الفهم الخاطئ هو الأصل في تصور كثير من المسلمين لها ؛ وذلك بسبب محاربتها من كثير من أصحاب الأهواء، ولأجل هذا كان لا بد من الفهم الصحيح لحقيقة هذه الدعوة ومعرفة ما ينقمه الآخرون عليها والدفاع عنها ببيان حقيقتها دون زيادة أو نقصان.

❖ امتدادها حتى يومنا هذا ، فهي تمثل الواقع الديني والثقافي لبلادنا الحبيبة، بلاد الحرمين الشريفين، وذلك من خلال هذه الدولة المباركة التي تتبنى منهجها القائم على الكتاب والسنة.

❖ أنها الأقوى أثراً بين تلك المحاولات الإصلاحية التجديدية حيث قامت عليها دولة وأصبح لها دور كبير في نشر المبادئ التي أحيتها تلك الدعوة الإصلاحية.

أحوال العالم الإسلامي والجزيرة العربية قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

كان القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي يعد حقيقة من أسوء عصور الانحطاط التي مرت بالعالم الإسلامي من جميع نواحيه الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى وصلت إلى حال من الضعف كبيرة ؛ فكانت الدولة العثمانية تعيش مرحلة شيخوختها، حتى سميت "بالرجل المريض"، وتوالت عليها الهزائم من قبل الدول النصرانية من النمسا وروسيا والبندقية وغيرها، وضعف سلطانها على كثير من الأقاليم، مما جرأ بعض الولاة على الخروج عليها والانفصال عنها، وتكونت حكومات ضعيفة ومستبدة لا تستطيع إخضاع من في حكمها، ولا تحقيق الأمن والاستقرار لرعاياها.

أما الجزيرة العربية فلم تكن أحسن حالاً من تلك الأمصار، فكان وسط الجزيرة والأقاليم النجدية بعيدة عن نفوذ الدولة العثمانية وسلطانها، فكانت ممزقة بين إمارات صغيرة متعادية ومتفككة، وصل بهم الحال حتى أصبح أحياناً في كل قرية أمير مهدد من طامعين في إمارته، ربما يكون ذلك من أقرب الناس لديه، حتى وصل الحال إلى أن القرية الواحدة تمزق بين أميرين متعادين أو ثلاثة أو أكثر، كل يدعى لنفسه الولاية<sup>(١)</sup>، أما الحجاز فقد كان يحكمها الأشراف تحت سلطان الدولة العثمانية، ولكن كان هؤلاء الأشراف في منازعات بينهم وحروب كانت تقوم بين الأخ وأخيه والعم وابن أخيه، وتهدر فيها الدماء وتستحل الحرم، فكان معدل ولاية الأمير على مكة سنة أو سنتين لكثرة الاغتيالات والغدر والخلاف، وقد تعاقب على إمارة مكة خلال القرن الثاني عشر وحده ثلاثون شريفاً لم ينعم واحد منهم بالاستقرار، وصارت السلطة مثار نزاع لا نهاية له<sup>(٢)</sup>، ولم تكن كذلك الأحساء بعيدة عن غيرها حيث انفصل زعيم بني خالد براك بن غرير بالأحساء عن الدولة العثمانية سنة (١٠٨٠ هـ)، فكانت معظم البلاد تعيش وضعاً سيئاً في جميع الجوانب الدينية والدنيوية، وظهرت غربة الإسلام، فانتشر الجهل، وكثرت البدع والخرافات، وشاع التقليد الأعمى والتعصب المذهبي، ووقع كثير من الناس في الشرك بالله تعالى، وصرفوا العبادة التي هي محض حق لله تعالى صرفوها لغيره من حجر أو شجر

(١) انظر: عنوان المجد لابن بشر ١/١٢٤، وتاريخ البلاد العربية د. منير العجلاني ص ٢٨، وحركة التجديد والإصلاح في نجد، د. عبد الله محمد العجلان ص ٢٠.

(٢) انظر: عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٢٤.



أو قبر أو غير ذلك بتأويلات واهيات كالتى ذهب إليها أهل الجاهلية، وردّوا بها دعوة الحق التى جاء بها رسول الله ﷺ؛ كما انصرفوا عن القيام بالواجبات الشرعية التى افترضها الله عليهم، وأهمها الصلاة، وما ذكره العلماء والمؤرخون عن تلك الانحرافات كثير سنقل هنا ما ذكره مؤلف غربي عن أحوال العالم الإسلامي في تلك المدة -على ما فيه من بعض المبالغة- وهو الكاتب الأمريكي لوثرروب ستودار (Lothrop Stoddard) فيقول في كتابه حاضر العالم الإسلامي في وصف العالم الإسلامي إبان القرن الثامن عشر: " في القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعع أعظم مبلغ، ومن التندني والانحطاط أعظم دركة؛ فارتدّ جوه، وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي؛ واستغرقت الأمم الإسلامية في اتباع الأهواء والشهوات؛ وماتت الفضيلة في الناس؛ وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة؛ وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال؛ فليس يرى في العالم الإسلامي ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين، كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول في الهند؛ يحكمون حكماً واهناً فاشي القوة متلاشي الصبغة؛ وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التي هم في حكمها وينشئون حكومات مستقلة ولكن مستبدة كحكومة الدولة التي خرجوا عليها؛ فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع من في حكمهم من الزعماء هنا وهناك؛ فكثر السلب والنهب؛ وفقد الأمن؛ وصارت السماء تمطر ظلمًا وجورًا، وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون الرعايا إرهابًا فوق إرهاب، فغلت الأيدي؛ وقعد عن طلب الرزق؛ وكاد العزم يتلاشى في نفوس المسلمين؛ وبارت التجارة بوارًا شديدًا؛ وأهملت الزراعة أيما إهمال.

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء؛ فألبست الوحداية التي علمها صاحب الرسالة الناس سجفًا من الخرافات وقشور الصوفية؛ وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمامم والتعاويد والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء؛ ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور؛ وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون في كل مكان؛ وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء. ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرها من سائر مدن الإسلام؛ فصار الحج

المقدس الذي فرضه النبي ﷺ على من استطاعه ضرباً من المستهزآت؛ وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار؛ فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهى الإسلام؛ لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين؛ كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان). ويعلق الأمير شكيب أرسلان على كلام الكاتب الأمريكي بقوله: (لو أن فيلسوفاً نقرباً من فلاسفة الإسلام أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية أراد تشخيص حالته في هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب المحز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأمريكي ستودارد)<sup>(١)</sup>.

ومع هذا فقد كان في نجد وغيرها فطاحل من العلماء كان جلّ اهتمامهم بكتب الفقه ومختصراته وحواشيه، والأدب واللغة والنحو والفرائض والتفسير والحديث، أما عنايتهم بالعقيدة فكانت قليلة، وما وجد منها فعلى طريقة المتكلمين الجامدة، ولذلك قلت عنايتهم بتوحيد العبادة على وجه الخصوص، وبال دعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وإن وجد ذلك من بعض أفرادهم ففي محيط ضيق وأثر محدود.

في ظل هذه الأوضاع السيئة التي سبق وصف جملتها كان ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته الإصلاحية التي سعى من خلالها إلى تصحيح شيء من الخلل الذي أصاب الأمة.

## المبحث الثاني: نشأة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وطلبه العلم:

في ذلك الجو المظلم ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي من آل مشرف سنة (١١١٥هـ، ١٧٥٣م) في العيننة، في أسرة ترجع في نسبها إلى القبيلة العربية المعروفة (تميم) التي يقول عنها أبو هريرة رضي الله عنه: (لَأَزَالُ أَحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ مِنْ ثَلَاثٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «هُمْ أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَى الدَّجَالِ»، قَالَ وَجَاءَتْ صَدَقَاتُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذِهِ صَدَقَاتُ قَوْمِنَا». قَالَ وَكَانَتْ سَبِيَّةً مِنْهُمْ عَائِشَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد: ج١/ (٢٥٩-٢٦٠ ج١)، تحقيق وتعليق: لأمير شكيب أرسلان، وللاستزادة في هذا الموضوع انظر: تاريخ نجد للشيخ حسين ابن غنام، ورسالة للإمام محمد بن علي الشوكاني بعنوان: الدواء العاجل في دفع العدو الصائل، وغيرها من المؤلفات التي كتبت في تلك المدة قبل ظهور الشيخ بدعوته الإصلاحية.

« أَعْتَقِيهَا فَإِنَّهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ »<sup>(١)</sup>.

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشأ في أسرة علمية مرموقة، وفي بيت عرف بإخراج العلماء والقضاة، فجدده هو الشيخ سليمان بن علي الذي قدم العيننة من روضة سددير التي كان قاضيًا فيها، وكان أفقه من نزل نجدًا في وقته<sup>(٢)</sup>، انتهت إليه الرئاسة العلمية فيها، وكان علماء زمانه فيها يرجعون إليه فيما أشكل عليهم في الفقه وغيره<sup>(٣)</sup>، بل كان يعد مفتي الديار النجدية في وقته<sup>(٤)</sup>، وكان يملك كثيرًا من الكتب النفيسة في الفقه وغيره من الفنون<sup>(٥)</sup>. أما والده فهو الشيخ عبد الوهاب قاضي العيننة وحرّيماء بعده، وكان من أعلم أهل زمانه<sup>(٦)</sup>.

في هذه الأسرة العلمية المتميزة ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتشرب العلم منذ نعومة أظفاره، مع ما وهبه الله تعالى من نبوغ فذ وعبقريّة وذكاء، فحفظ القرآن قبل بلوغه العاشرة من العمر، وأتقن كثيرًا من العلوم والمعارف قبل بلوغ العشرين من عمره على يد أبيه وعمه وبعض علماء نجد، حيث كان سريع الحفظ، وقاد الذهن، حاد الفهم، كما كان فصيحًا فطنًا جريئًا غير هباب، كثير الإطلاع، محبًا للعلم يسأل عما يشكل عليه، وي طرح رأيه ويُناقش عليه، وذكر والده أنه استفاد من ولده محمد فوائد في الأحكام<sup>(٧)</sup>، ففي هذه الأسرة العلمية نشأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتأثر بها في حياته.

بعد أن استفاد الشيخ محمد من والده الشيخ عبد الوهاب وعمه الشيخ إبراهيم وتلقى عنهما العلم الغزير رأى أن يسلك مسلك العلماء في الرحلة لطلب العلم، فبدأ الشيخ محمد رحلته في طلب العلم بمكة المكرمة حيث أدى مناسك الحج والتقى فيها ببعض علماء الحرم الشريف<sup>(٨)</sup>، وكان منهم الشيخ عبد الله بن سالم البصري حيث أخذ عنه علم الحديث الشريف، ومن مكة

(١) رواه البخاري ح رقم ٤١٠٨، ومسلم ح رقم ٦٦١٢ .

(٢) رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في: الدرر السنية: (٢١٥/٩).

(٣) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (٦٢/١).

(٤) مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام، عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: ص (١٥٤) .

(٥) علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن بن بسام: (٦٥/١).

(٦) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص (٨٢-٨٣).

(٧) نفسه: ص (٨١).

(٨) محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته، عبد العزيز بن باز: ص (٢٠).

خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب ووصل إلى المدينة المنورة وهناك التقى بعلماء المسجد النبوي ومن أبرزهم الشيخ العالم عبد الله بن إبراهيم بن سيف الشمري النجدي<sup>(١)</sup>، وقد تلقى عنه علم الحديث وحصل منه على إجازات في رواية الحديث الشريف<sup>(٢)</sup>، وكان بين الشيخ عبد الله وبين الشيخ محمد توافق في الأفكار حول ما أصاب الناس من انحراف عن التوحيد والتألم لأجل ذلك<sup>(٣)</sup>. وفي المدينة أيضاً التقى الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن طريق شيخه الشيخ عبد الله بن إبراهيم النجدي بالشيخ المحدث محمد حياة السندي المتوفى سنة ١١٦٥ هـ من علماء الحديث الكبار المنكرين للبدع والأعمال الشركية ومن المعارضين للتعصب المذهبي، فتلقى عنه علم الحديث ولازمه وصار من خواص تلاميذه وتأثر به كثيراً<sup>(٤)</sup>، وأخذ كذلك عن الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني، وعن الشيخ علي الداغستاني<sup>(٥)</sup>، وعن الشيخ عبد الكريم أفندي الداغستاني، والشيخ محمد البرهاني، والشيخ عثمان الديار بكري نزيل المدينة المنورة<sup>(٦)</sup>.

وبعد أن أقام الشيخ في المدينة ما شاء الله له عاد إلى حرملاء وهو يحمل هم الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنه لم ير أنه قد شفي غليله من سلاح العلم، لأن تلك الجاهلية والمنكرات تحتاج مزيداً من التسليح والرسوخ في العلم؛ ولذا لم يلبث أن تجهز لمواصلة رحلة الطلب، فخرج إلى البصرة يريد بعدها الشام، وفي البصرة سمع الحديث والفقهاء من جماعة كثيرين وقرأ بها النحو وأتقنه، وكتب الكثير من اللغة والحديث<sup>(٧)</sup>، واستفاد كثيراً من عالم جليل فيها هو الشيخ محمد المجموعي فلزمه مدة يقرأ عليه<sup>(٨)</sup>، وقد استفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب أعظم الفائدة من بقاءه في البصرة فاشتغل بمطالعة الكتب التي لا يجدها في نجد، وألف فيها كتابه المميز الذي شهد بفضله في تصنيفه القريب والبعيد، ذلك هو كتاب "التوحيد الذي

(١) الحطة في ذكر الصحاح الستة، صديق حسن خان: ص (١٦٦-١٦٨).

(٢) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص (٨٢).

(٣) الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحمد بن حجر آل طامي: ص (١٠١٦).

(٤) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص (٨٢).

(٥) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، عبد القادر بن أحمد "ابن بدران الدمشقي": ص (٢٣٠).

(٦) توحيد الخلاق في جواب أهل العراق، ص (١٩).

(٧) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص (٨٢).

(٨) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (٣٦/١).

هو حق الله على العبيد" فيتضمن هذا الكتاب الكثير جداً من النصوص الشرعية، لاسيما الأحاديث والآثار التي أخذها من كتب الحديث والآثار التي في مدارس البصرة<sup>(١)</sup>.

بعد أن مكث في البصرة مدة من الزمن خرج منها يريد الشام لكن حصل له ما منعه من الذهاب إليها فانثنى عائداً إلى نجد ومر بطريقه إليها على الأحساء ونزل فيها على الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي<sup>(٢)</sup>، ومكث لديه مدة من الزمن وتذاكر معه شيئاً من التفسير والحديث والتوحيد<sup>(٣)</sup>، وسمع فيها من غيره وكانت إذ ذاك أهلة بالعلماء<sup>(٤)</sup>، وبعد خروجه من الأحساء عاد إلى نجد ليبدأ حياته الدعوية منها.

### المبحث الثالث: الدعوة الإصلاحية للشيخ نشأتها وحقيقتها:

#### المطلب الأول: نشأة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

في ظل الأوضاع المؤلمة التي كان يعيشها العالم الإسلامي كان مولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشأته؛ ولأنه من أسرة علم بدأ منذ نعومة أظفاره يسلك سبيل العلم ودرج فيه مثله مثل أي طالب علم، فتوجه لدراسة الفقه الحنبلي الذي يعد من أهم العلوم وأكثرها رغبة لدى طلبة العلم، وفي أثناء تلقيه حدث ما جعل الشيخ محمد بن عبد الوهاب يتوقف ويعيد النظر في واقعه، ولندع الشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب يروي لنا ما ذكره الشيخ عن نفسه إذ يقول: «وقد أخبر شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان في ابتداء طلبه للعلم وتحصيله في فن الفقه وغيره لم يتبين له الضلال الذي كان الناس عليه من عبادة غير الله، من جن أو غائب أو طاغوت أو شجر أو حجر أو غير ذلك، ثم إن الله جعل له نعمة في مطالعة كتب التفسير والحديث وتبين له من معاني الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة أن هذا الذي وقع فيه الناس من هذا الشرك أنه الشرك الذي بعث الله رسله، وأنزل كتبه بالنهاي عنه وأنه الشرك الذي لا يغفر الله لمن لم يتب منه، فبحث في هذا الأمر مع أهله وغيرهم من طلبة

(١) رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في الدرر السنية: (٢١٥/٩).

(٢) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٨٣).

(٣) رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب: مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، القسم الخامس (الرسائل الشخصية): ص(٢٥٠).

(٤) مصباح الظلام، عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: ص(١٥٥).

العلم فاستنار قلبه بتوحيد الله الذي أرسل الله به رسوله وأنزله به كتبه..»<sup>(١)</sup>، وهنا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب بين أمرين: إما أن يستسلم للواقع الذي يعيشه الناس حتى لو كان منحرفاً؛ فيكون في نفسه وقلبه وعقله ميداناً للمتناقضات، فما يعرفه من الحق يناقض ما يعيشه من الباطل، وإما أن ينهض بواجبه فيسعى بجهدته إلى نشر الحق والسنة وتنبية الغافلين والسادرين في غيهم حتى يعودوا إلى الحق ويستقيموا عليه<sup>(٢)</sup>.

وبالفعل اختار أصعب الأمرين وأحسنهم عاقبة ونهض بأمر الدعوة إلى الله تعالى، فبعد أن عرف الحق وتحقق منه من خلال أمرين مهمين: مداومته على مطالعة كتب التفسير والحديث وتأمله لما فيها من معاني الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة، التي تدل على حقيقة التوحيد ومعامله ومظاهر الانحراف عنه، والأمر الثاني هو: أنه بحث الأمر الذي توصل إليه مع العلماء من أهله وغيرهم من طلبة العلم ووجدتهم قد استحسنوا ما توصل إليه لكنهم ما كانوا ينهون الجهال من العوام عن فعل ما يعلمون أنه باطل ولم يدعواهم إلى الحق الذي يعرفونه، عندئذ بدأ هو بالقيام بواجبه فأنكر على الناس تلك الأفعال المخالفة لحقيقة التوحيد لكنهم لم يستجيبوا له بل أعرضوا عنه<sup>(٣)</sup>، وبرز له علماء السوء وعارضوه وأصبح مرمى شبهاتهم وتلبساتهم، واتهاماتهم إياه بالانحراف ومن ثم تأليب العوام عليه<sup>(٤)</sup>، وما هي إلا فترة وجيزة حتى كتب الله لدعوته القبول، وأصبحت الدرعية مناراً يقصده كل طالبي العلم الصحيح القائم على الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح، وأخذ الناس يتوافدون إليها من كل صوب، يتعلمون على يد الشيخ ثم يصدرون إلى أهليهم وبلدانهم دعاة إلى الحق والصلاح، حتى أثمرت دعوته وآتت أكلها مبكرة.

وقد حرص الشيخ محمد بن عبد الوهاب على أهمية وجود سلطان ناصر ومعين له في دعوته في ظل تلك الأوضاع السيئة محلياً وعالمياً خاصة بعد ما انتقل إلى العيينة، يقول ابن غنام عن

(١) رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ تسمى (المقامات في: الدرر السنية في الأجوبة النجدية)، جمعها عبد الرحمن بن قاسم: (٢١٨/٩).

(٢) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، صالح بن عبد الله العبود: ص(٨٠، ٧٩).

(٣) عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن عبد الله بن بشر: (٣٥، ٣٤/١).

(٤) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، صالح العبود: ص(٨٠).

هذا: « فانتقل الشيخ من حريملاء إلى العيينة ورئيسها يومئذ عثمان بن حمد بن معمر... ولما عرض على عثمان دعوته اتبعه وناصره، وألزم الخاصة والعامّة أن يمتثلوا أمره... وهكذا لم يبق وثن في البلاد التي تحت حكم عثمان وعلت كلمة الحق وأحييت سنة رسول الله ﷺ... »<sup>(١)</sup>.

ولما أُخرج الشيخ من العيينة وتخلّى عنه ابن معمر قصد الدرعية يبحث عن النصرة أيضاً، فكان يسمع عن حسن سيرة أميرها محمد بن سعود، مما جعله يطمع في حسن استقباله ومناصرتة للدعوة، وهو ما كان بالفعل بعد أن شرح الشيخ محمد بن عبد الوهاب للأمر الدين الحق والمتمثل بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ثم ذكر له ما عليه كثير من أهل نجد من انحرافات عن الشرع والسنة على الشرك والبدعة، قال له الأمير: « يا شيخ إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه، فأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به والجهاد لمن خالف التوحيد »<sup>(٢)</sup>، وفي هذا يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في وصف حال الدعوة في أول أمرها: « فهاجر إلى الدرعية بلد محمد بن سعود، فتلقاه هو وأولاده بالقبول وتابعهم على ذلك أكثر أهل بلده وقبيلته على قلة منهم وضعف كما قدمناه، فصبروا على مخالفة الناس والملوك من حولهم والبعيد عنهم... ولهذا تحمّل هذا الرجل وأتباعه عداوة كل من معادى هذا الدين... »<sup>(٣)</sup>. وبسبب مناصرتة للدعوة تسلط عليه الأعداء وحاربوه وفيها قتل اثنان من أولاده، فيصل وسعود ابنا محمد بن سعود<sup>(٤)</sup>، ومع كل ذلك لم يتراجع أو يتخاذل مثلما فعل ابن معمر، بل ثبت، ومن هنا ظهر الارتباط الوثيق بين دعوة الشيخ وأسرة آل سعود وذريته من بعده إلى يومنا هذا، فتحق لهذه الدعوة الانتشار العظيم في الجزيرة العربية وخارجها بفضل الله ورحمته ثم بفضل تلك المؤازرة العظيمة من آل سعود لهذه الدعوة الصافية المباركة، فرحم الله الجميع وجزاهم خير الجزاء على ما قدموا في خدمة الإسلام وأهله .

### المطلب الثاني: حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأهدافها:

(١) نفسه: ص(٨٥).

(٢) نفسه: ص(٨٧).

(٣) رسالة له: ضمن الدرر السنية: (٢١٨/٩).

(٤) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٩٨).

لم تكن الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجهولة الحقيقة، بل كانت واضحة جلية أبان الشيخ فيها ما لديه، فهي دعوة أساسها العودة الصادقة للكتاب والسنة على فهم السلف الصالح، مع العناية بتصحيح المعتقد من خلال تحقيق التوحيد الخالص، ونبذ الشرك ووسائله والذرائع المؤدية إليه، ومحاربة البدع والخرافات التي شوهدت جمال الإسلام وصرفت الناس عن الدين الحق، مع العمل على نشر السنن وإحيائها، إضافة إلى تحكيم شرع الله ومحاربة ما يخالف الشريعة من العادات والتقاليد والقوانين، مع الدعوة إلى الوحدة والجماعة والطاعة لولاة الأمر في طاعة الله ونبذ الفرقة والخلاف التي تؤدي إلى زعزعة الأمن والاستقرار، فهو لم يدع إلى خلاف ذلك، ويظهر ذلك واضحاً من كلام الشيخ نفسه وأتباع دعوته، وحكم الدارسين المنصفين عليها، يقول الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في بيان حقيقة الدعوة: «... ولست والله الحمد أدعو إلى مذهب صوفي أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم مثل: ابن القيم والذهبي وابن كثير وغيرهم؛ بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأدعو إلى سنة رسول الله ﷺ التي أوصى بها أول أمته وآخرهم»<sup>(١)</sup>.

ويقول في رسالة أخرى: « وأخبرك أي -ولله الحمد- متبع ولست بمبتدع، عقيدتي وديني الذي أدين الله به مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة، لكني بينت للناس إخلاص الدين لله ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين وغيرهم وعن إشراكهم فيما يُعبد الله به من: الذبح والنذر والتوكل والسجود وغير ذلك مما هو حق الله لا يشركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة... وأنا صاحب منصب في قريتي مسموع الكلمة فأنكر هذا بعض الرؤساء لأنه خالف عادة نشئوا عليها، وأيضاً ألزمت من تحت يدي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض الله، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر وأنواع المنكرات...»<sup>(٢)</sup>.

ويقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: «... فإن الشيخ محمد بن عبد

(١) الرسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، لابن غنام: ص(٢١١).

(٢) نفسه: ص(٣٢٠-٣٢١).



الوهاب إنما دعا الناس إلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا يشركوا به شيئاً، وهذا لا يرتاب فيه مسلم أنه دين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه...»<sup>(١)</sup>.

ويقول أحد المتخصصين في دراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «إن ما كتبه الشيخ من المصنفات والرسائل يؤكد يقيناً بأن الشيخ لا يدعو إلا لعقيدة السلف الصالح في جميع أبواب الاعتقاد، وليست مصنفاته ورسائله فحسب هي الجواب على هذا فقط، بل إن سيرة الشيخ الإمام وأفعاله وسلوكه جواب آخر...»<sup>(٢)</sup>.

كما يقول أحد الكتاب الغربيين الذين عنوا بدراسة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «ولم يكن في دعوة الشيخ جديد؛ لأنه كان يرى علاج المشكلات جميعاً في العودة إلى سنة النبي محمد وأصحابه من السلف الصالح، وكان جل همه أن يخلص العالم من شرين عظيمين هما: الشرك والبدع، وهو ما قضى حياته هو وأتباعه يناضل في سبيل تحقيقه في حماس شديد»<sup>(٣)</sup>. ويقول: «بل إن كثيراً من الرحالة استشهدوا بأقوال العلماء عن اعترافهم بأن الدعوة الوهابية هي نفسها المذهب السني في الإسلام...»<sup>(٤)</sup>.

ويقول دارس آخر عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فقد كان الإسلام الذي دعا إليه الشيخ أساساً هو الإسلام الذي دعا إليه النبي ﷺ...»<sup>(٥)</sup>. ويقول: «...أن مبادئ الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت في الأساس ذات مبادئ خاتم الأنبياء الذي حمل رسالة الإسلام في القرن السابع الميلادي...»<sup>(٦)</sup>.

ومن أولئك الدارسين أيضاً لوثرروب ستودار الأمريكي حيث يقول: «فالدعوة الوهابية إنما

(١) رسالة له ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام: (٣/٣٦٧).

(٢) دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عبد العزيز العبد اللطيف: ص(١٩).

(٣) الحركة الوهابية في عيون الرحالة الأجانب، القسم الأول: كتابات الرحالة الأجانب كمرجع لدراسة الحركة الوهابية في القرن التاسع عشر الميلادي، لي ديفيد كوبر، ترجمة عبد الله الوليعي: ص(٤٨).

(٤) نفسه: ص(٩٧).

(٥) الحركة الوهابية في عيون الرحالة الأجانب، القسم الثاني: محمد بن عبد الوهاب وإمبراطورية الموحدين في شبه الجزيرة العربية، جورج رينتز، ترجمة عبد الله الوليعي: ص(١٣٧). أثنى الشيخ محمد الجاسر في مقدمة الكتاب على جورج رينتز ووصفه بالمنصف، انظر: المقدمة: ص(١٣).

(٦) نفسه: ص(١٣٨).

هي دعوة إصلاحية خالصة بحتة، غرضها إصلاح الخرق... وعلى الجملة هي الرجوع إلى الإسلام والأخذ به على أوله وأصله ولبابه وجوهره، أي إنما الاستمسك بالوحدانية التي أوصى الله بها إلى صاحب الرسالة...»<sup>(١)</sup>. ويقول الشيخ محمد رشيد رضا عن دعوة الشيخ أيضاً: «دعا إلى عبادة الله وحده والرجوع إلى أصل الإسلام الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه...»<sup>(٢)</sup>. ويقول الشيخ مسعود الندوي: «بعبارة موجزة نستطيع أن نقول: إن شيخ الإسلام كان يجب أن يرى الدين في صورته الأصلية، وكان مولعاً باتباع السلف الصالح في العقائد والأعمال...»<sup>(٣)</sup>، ويقول: «فكانت دعوته دعوة التوحيد وكان شعاره "لا إله إلا الله"»<sup>(٤)</sup>.

ومن كل ما سبق يتضح أن ما قام به الشيخ محمد بن عبد الوهاب إنما هو تجديد ما اندثر من معالم التوحيد والدين الذي بعث به نبينا وسيدنا محمد بن عبد الله عليه وآله والصلاة والسلام.

### المطلب الثالث: العوامل التي أسهمت في نشأة دعوة الشيخ محمد وظهورها:

لا شك أن هناك عدداً من العوامل أسهمت بشكل فاعل في نشأة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وظهورها في أرض الواقع وانتشارها ونجاحها بعد فضل الله ورحمته، إذ حركت تلك العوامل والأسباب الشيخ رحمه الله ودفعته للقيام بدوره الإصلاحي مما نتج عنه قيام هذه الدعوة الإصلاحية التي كان لها دورها الفاعل وأثرها الحقيقي في تجديد الدين وإشعال جذوة العمل الإصلاحي في العالم الإسلامي، ولعلّ أبرز تلك العوامل ما يلي:

أولاً: الواقع المرير للعالم الإسلامي وشبه الجزيرة العربية: الواقع المرير الذي كان يعيشه العالم الإسلامي بصورة عامة ووسط الجزيرة العربية بصورة خاصة من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لكن أهمها والدافع الذي حرك أغلب الحركات الإصلاحية هو الواقع السيئ في الجانبين الديني والعلمي، إذ بلغت - كما سبق بيانه - درجة من الانحطاط مزرية.

(١) حاضر العالم الإسلامي، لوثرروب ستودار: (٢٦٤/١) (ط٢، ١٣٥١هـ، دار الفكر العربي).

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام، مقدمة الشيخ محمد رشيد رضا: ع.

(٣) محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم، مسعود الندوي: ص(١٨٠).

(٤) نفسه: ص(١٨٦).

ولقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب أحد أفراد ذلك المجتمع الإسلامي، يرى ويشاهد ما وصل إليه الواقع المرّ، سواءً أكان ذلك في نجد؛ والعينة على وجه الخصوص أو من خلال وعيه رحمه الله بواقع العالم الإسلامي من خلال الانحرافات التي شاهدها خلال تنقله في رحلاته لطلب العلم حيث زار مكة والمدينة والبصرة والأحساء، وفي كل بلد يزوره يجد الانحراف والضياع اللذين يعيشهما الناس في تلك البلدان.

غير أن الشيخ رحمه الله تعالى لم تنعكس عليه تلك الانحرافات سلبيًا، من خلال بناء تصور سلبي داخلي لديه يدفعه - كما كان حال كثير من علماء عصره - إلى السلبية البالغة التي تمنعهم من محاولة الإصلاح والسعي في تصحيح ما لدى الناس من خلل وما أصاب واقعهم من انحراف، بل دفعته تلك الانحرافات إلى السعي الجاد للإصلاح، بل تجاوز الأمر ذلك إلى ما هو أعظم وأجل، حيث كوّن ذلك الواقع السيئ للأمة عزيمة لدى الشيخ ومثابرة وإصرارًا على تصحيح الواقع السيئ للأمة.

فعلى الرغم من تعرضه للعديد من المعوقات والأذى في سبيل الدعوة إلى الله والعمل في سبيل الإصلاح إلا أنه استمر ولم يأبه بكل تلك الصعوبات، ولعلّ من أبرز ما تعرض له طرده من البصرة بسبب إنكاره للأعمال الشركية التي يفعلها أهلها حول القبور<sup>(١)</sup>، ومع هذا يستمر في الدعوة إلى الله، ويتعرّض بعدها للأذى البالغة ومحاولة القتل في حرملاء<sup>(٢)</sup> إلا أن هذا لم يمنعه من الاستمرار في الدعوة، فيخرج من حرملاء إلى العينة وفيها يتعرض لطرد أميرها له<sup>(٣)</sup>، ومع ذلك يستمر حتى منّ الله عليه بمن ينصره ويثبت على تلك النصرة حتى أتمّ الله له الأمر وحقق الدعوة ما كانت تصبو إليه من إصلاح.

**ثانياً: مشايخه ومعلموه:** سعى الشيخ محمد بن عبد الوهاب منذ نعومة أظفاره في طلب العلم، فتلقى عن عدد من كبار العلماء في زمانه، وكان له معهم مراجعات وكلاماً حول القضايا الأساسية التي نهض بدعوته لإصلاحها بين الناس، ولقد كانوا يشدون عزمته موافقة له على

(١) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (٣٦/١). ينكر الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ هذه القصة ويقلل من شأنها انظر: مصباح الظلام: ص(١٥٣).

(٢) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٨٤).

(٣) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (٤٠/١-٤١).

المبدأ الذي قامت دعوته ونهضت لأجله وهو مبدأ التوحيد وتصحيح ما وقع الناس فيه من انحراف، وأول ذلك والده وعمه الشيخ إبراهيم إذ هما أول من تلقى العلم عنهم؛ حيث ذكرنا فيما سبق أن الشيخ محمداً لما فتح الله عليه في معرفة التوحيد وأدرك مخالفة واقع الناس له وانحرافهم عنه لم يعتمد على مجرد رأيه بل رجع إلى العلماء من أهله: والده وعمه؛ وغيرهم من طلبة العلم والعلماء، وناقشهم في الأمر فأيدوه ووافقوه على ما ذهب إليه<sup>(١)</sup>.

ولما التقى بالشيخ عبد الله بن إبراهيم النجدي إبان تلقيه عنه في المدينة المنورة، حصل بينهما توافق في الأفكار حيث أيده في ما ذهب إليه في أمر التوحيد<sup>(٢)</sup>، أما الشيخ محمد حياة السندي فقد كان ممن شدّ عزيمته بأمر التوحيد، ووجهه إلى إخلاص توحيد العبادة<sup>(٣)</sup>. بل إنه ذات مرة كان واقفاً عند الحجرة النبوية وحوها المستغيثون وغيرهم، إذ مرّ به أستاذه الشيخ محمد حياة السندي فسأله الشيخ: "ماذا تقول في هؤلاء؟ فأجاب الأستاذ: {إِنَّ هَؤُلَاءِ مُبْتَدِعٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الأعراف: ١٣٩)"<sup>(٤)</sup>

ليس ما سبق وحسب بل إن المشايخ الذين درس عليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلقى عنهم العلم ومنهم الشيخ محمد البرهاني والشيخ علي أفندي الداغستاني والشيخ عثمان الديار بكري حرر على أيديهم علم التوحيد وعرض أفكاره عليهم فأقروه بل زاد على ذلك بأن كاتب الشيخ محمد السفاريني وهو بالشام بما لديه فوافقه وأيده<sup>(٥)</sup>، ولما زار البصرة وتلقى عن علمائها، لم يعجبه ما كان الناس فيه من البدع والخرافات والانحراف عن توحيد العبادة فكان ينكر تلك الشراكيات والبدع، فاستحسن شيخه محمد المجموعي منه ذلك، ووافقته على ما ذكره له من مسائل التوحيد<sup>(٦)</sup>.

وخاتمة المطاف في الأحساء حيث لقي فيها الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف،

(١) رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في الدرر السنية: (٢١٨/٩).

(٢) الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحمد بن حجر آل أبو طامي: ص (١٦).

(٣) مصباح الظلام، عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: ص (١٥٤).

(٤) محمد بن عبد الوهاب مصلح، مسعود الندوي: ص (٤١)، على أن بشراً ذكر العكس في السائل والمجيب ومؤداهما واحد.

(٥) توحيد الخلاق: ص (١٩).

(٦) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (٣٦/١).

وتلقى عنه العلم ولاسيما التوحيد، حيث أخرج له الشيخ عبد الله كراريس من البخاري كتبها ونقل على هوامشها من الشروح، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن ذلك مخاطبًا الشيخ عبد الله: « وقلت في مسألة الإيمان التي ذكر البخاري في أول الصحيح: هذا هو الحق الذي أدين الله به. فأعجبني هذا الكلام لأنه خلاف مذهب أئمتكم المتكلمين»<sup>(١)</sup>.

كل ما سبق وغيره كثير كان من الأمور التي شدّت من أزر الشيخ محمد وقوة عزيمته ليقوم بعمله الإصلاحية وليبذل جهده في محاولة تصحيح ما عليه الناس ذلك الوقت من انحراف وابتعاد عن جادة الصواب وهو ما كان بالفعل.

**ثالثاً: رحلاته لطلب العلم:** لا شك أن رحلته لطلب العلم كان لها أكبر الأثر في نشأة هذه الدعوة الإصلاحية وظهورها، وذلك يتضح من ما سبق بيانه، إذ أنه أفاد منها الاطلاع على واقع العالم الإسلامي على الحقيقة، وما يقع فيها من أعمال مخالفة للتوحيد ومنحرفة عن حقيقة الدين، كما هي أكسبت الشيخ الكثير من الصفات الشخصية وزادت من قدراته على العمل والنجاح في العمل، كما أنها كان لها دور في انفتاح الشيخ على الآخرين، سواء أكان من المذاهب أو الأشخاص، بل أصبح لديه قدرة على استيعاب المخالف والتعاطي معه بشكل إيجابي وجيد، الأمر الذي لا يجيده من لم يخرج عن بلده ولم يعرف رأياً غير رأيه، يقول الشيخ رحمه الله لبعض مخالفيه: « فقد وصل إلينا من ناحيتكم مكاتيب فيها إنكار وتغليظ عليّ، ولما قيل: إنك كتبت معهم وقع في الخاطر بعض شيء ؛ لأن الله سبحانه نشر لك من الذكر الجميل، وأنزل في قلوب عباده لك من المحبة ما لم يؤته كثيراً من الناس، لما يذكر عنك من مخالف من قبلك من حكام السود... وقد دعوت لك في صلاتي وأتمنى من قبل هذه المكاتيب أن يهديك الله لدينه القيم... »<sup>(٢)</sup>. إلى غير ذلك مما اكتسبه الشيخ محمد بن عبد الوهاب من رحلاته لطلب العلم ويأتي تفصيله.

كما تزوده خلال هذه الرحلات بالعديد من المراجع والكتب المهمة جداً للداعية التي لا

(١) رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الرسائل الشخصية): (٢٥٠/٥).

(٢) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب في مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الرسائل الشخصية): (٢٥٠/٥)، (٢٥٧).

يجدها في نجد وإنما يجدها في العواصم العلمية، كمكة والمدينة والبصرة، تلك البلدان التي تتوفر فيها المراجع والكتب العلمية في مدارسها ومكتباتها ولدى علمائها؛ إذ استطاع من خلال تلك الرحلات أن يتحصل على العديد منها، ولعل مما يدل على هذه الفائدة أنه ألف كتابه الجليل كتاب التوحيد في البصرة<sup>(١)</sup>، حيث توفرت له المراجع العلمية التي استطاع من خلالها أن يؤلف تلك الرسالة العظيمة، لاسيما وأنها تشتمل على الأحاديث والآثار الكثيرة التي يحتاج في نقلها إلى المراجع العلمية في الحديث والآثار.

**رابعاً: صفاته الشخصية:** تميز الشيخ محمد بن عبد الوهاب بصفات شخصية متميزة تؤهله للقيادة والتميز والريادة، وهذه الصفات كان لها دور كبير في نهوض الشيخ محمد بعمله الإصلاحية هذا، في وقت فقد كثير من علماء زمانه هذه الصفات، فعجزوا عن تحقيق ما حققه الشيخ محمد من خلال هذه الدعوة الإصلاحية المباركة، ولعل أبرز تلك الصفات هي:

**أ / المرونة والمداراة وحسن التعامل مع المخالف:** فقد كان لدى الشيخ محمد قدرة على تفهم الخلاف واستيعابه، والمراد هنا المخالف الذي لديه شبه يحتاج إلى إزالتها وليس المعاند الذي يعرف الحق ولا يقبل به، وهذه المرونة وحسن التعامل قلّ أن تجد من يحسنها ممن لم يخالط الناس بشكل يؤهله لفهم ذلك؛ إذ من لم يخرج من بلده ولم يعرف غير أهله يعتقد خطأ أن كل الناس على ذلك الفكر وتلك الآراء، كما يغلب على بعض المصلحين الضيق بالمخالف وعدم الاعتداد برأيه بل ورفضه بالكلية، بخلاف من خالط الناس فإنه يعرف من تنوع آرائهم وتعدد وجهات نظرهم ما يؤهله ليكون لديه القدرة على استيعاب تلك الأفكار وحسن التعامل معها بشكل إيجابي وعقلاني، وهو ما كان من الشيخ محمد رحمه الله، ولعلّ من الأمثلة على ذلك: ما ذكره عن رجل من أشدّ المناوئين له من أهل نجد قال: «استدعيته أولاً بالملاطفة وصبرت منه على أشياء عظيمة»<sup>(٢)</sup>. ويقول لأحدهم: «... ونداريكم ودنا إن الله يهديكم ويهديهم...»<sup>(٣)</sup>.

(١) رسالة للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في الدرر السنية: (٢١٨/٩)، وقد ذكر حسين بن غنام أنه ألفها في حريملاء، والجمع بينهما أنه ابتدأها في البصرة وأتمها في حريملاء. والله أعلم.

(٢) رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٢٥٧).

(٣) نفسه: (٢٢٦/٥).

ب / الجرأة والشجاعة: تعدّ هذه الصفة الشخصية من الصفات المهمّة التي تميز بها الشيخ محمد، وأسهمت بشكل كبير في ظهور هذه الدعوة الإصلاحية، ففي الوقت الذي كان يتهيب كثير من العلماء مخالفة الناس، وبطشهم وسطوتهم وعدم قبولهم لداعي الحق، ممن دعاهم إليه، تجرأ الشيخ محمد بمواجهة الناس ببطلان ما يعملون بكل أسلوب حسن، ودفع ثمن ذلك طردًا وأذية ومحاوله قتل، لكن ذلك كله لم يكن مانعًا له من بيان الحق.

يقول الشيخ محمد رحمه الله في رسالة له عن بعض مخالفيه: « إذا كانوا أكثر من عشرين سنة يقرون ليلاً ونهارًا سرًا وجهارًا أن التوحيد الذي أظهر هذا الرجل هو دين الله ورسوله لكن الناس لا يطعيوننا... هذا كلامهم على رؤوس الأشهاد...»<sup>(١)</sup>، ويقول في رسالة أخرى عمن عرف التوحيد ولم يعمل به خوفًا من سطوة الناس ومداراة لهم: « يقولون: هذا حق ونحن نفهم هذا ونشهد أنه حق ولكن لا نقدر أن نفعله ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم... ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة...»<sup>(٢)</sup>، ويقول: « وإن كنت تعرف أن هذا هو الكفر الصراح والردّة الواضحة ولكن تقول: أخشى الناس - فالله أحق أن تخشاه »<sup>(٣)</sup>، ويقول في بيان حال علماء العالم الإسلامي أيضًا: « أن هذا الذي أنكروا عليّ وأبغضوني وعادوني من أجله إذا سألوا عنه كل عالم في الشام واليمن أو غيرهم يقول: هذا هو الحق وهو دين الله ورسوله ولكن ما أقدر أن أظهره في مكاني لأجل أن الدولة ما يرضون وابن عبد الوهاب أظهره لأن الحاكم في بلده ما أنكره بل لما عرف الحق اتبعه... »<sup>(٤)</sup>.

ولقد أوضح الشيخ محمد رحمه الله أنه تعرض لإنكار الناس عليه بسبب مخالفته لما تعود عليه الناس حيث لم يستطيعوا أن يتقبلوا القول ببطلان ما كانوا عليه وآباؤهم فأنكروا على من بين لهم ذلك، يقول الشيخ رحمه الله: « وأنت لا تستهون مخالفة العادة على العلماء فضلًا عن العوام »<sup>(٥)</sup>، ويقول: « لأن بعض المسائل التي ذكرت أنا قلتها لكن هي موافقة لما ذكره

(١) نفسه: (٢٦/٥).

(٢) رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٢٤١).

(٣) نفسه: ص(٢٦٢).

(٤) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموع مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٣٢/٥).

(٥) رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٢٧٥).

العلماء في كتبهم: الحنابلة وغيرهم، ولكن هي مخالفة لعادة الناس التي نشأوا عليها فأنكرها علي من أنكرها لأجل مخالفة العادة...»<sup>(١)</sup>، ولقد صرح بعضهم بعجزه عن التغيير حيث يقول له: «واعتبر لنفسك حيث كتبت لي فيما معنى إن هذا هو الحق الذي لا شك فيه لكن لا نقدر على تغييره»<sup>(٢)</sup>.

**ج/ الإصرار على الحق والثبات عليه:** فلما منّ الله على الشيخ محمد بن عبد الوهاب بما منّ عليه به من معرفة التوحيد الذي لم يكن يعرفه قبل ذلك<sup>(٣)</sup>، وراجع العلماء وناقشهم فيه فأقروه عليه - كما سبق بيانه - لما ثبت له أن ذلك هو الحق الذي يحب الله ورسوله ﷺ سعى في نشره والدعوة إليه، لكن تطاول الزمان على الناس وهم في انحراف عن التوحيد جعلهم يرفضون الدعوة الإصلاحية لمخالفتها لما كانوا عليه هم وآباؤهم من قبلهم، ولمخالفتها لما عليه كثير من الناس في ذلك الوقت؛ الأمر الذي جعلهم يتصدون بقوة لدعوة الشيخ محمد الإصلاحية، وأول ذلك كان في البصرة حيث اجتمع عليه أناس فيها من رؤسائها وغيرهم، فأذوه أشدّ الأذى وأخرجوه منها وقت الظهيرة حتى كاد يهلك من العطش وأشرف على الهلاك حتى منّ الله عليه بمن ساعده<sup>(٤)</sup>، هذه التجربة كانت كفيلاً بأن تضع حدّاً للعمل الإصلاحية لدى الشيخ محمد وتجعله يكون مثل غيره من العلماء الذين يخشون مخالفة العوام في وقت كان يوافق بعض العلماء هوى العوام<sup>(٥)</sup> ولا يخالفونه، لكن الشيخ محمداً لم يتخل عن مبدئه وهدفه، فكرر المحاولة في حرملاء حيث تحرك بالدعوة إلى الإصلاح وواجهه العابثون والمنحرفون، لكنه تعرض هنا لما هو أخطر حيث أراد سفلتهم أن يفتكوا بالشيخ محمد ويقتلوه سرّاً بالليل<sup>(٦)</sup>، فخافهم على نفسه فخرج منها إلى العيننة، وفيها وجد الترحيب والنصرة والتأييد، لكن الأمر لم يدم طويلاً حيث أقر به بعض العلماء أمير الإحساء الذي كان له قوة، فكتب لأمير العيننة يدعوه

(١) نفسه: ص(٢٧٤).

(٢) نفسه: ص(٢٧٧).

(٣) نفسه: (١٨٧/٥).

(٤) عنوان المجد، عثمان بن بشر: (٣٦/١).

(٥) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموع مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٤٠/٥).

(٦) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٨٤).



لطرده الشيخ محمد وبالفعل نفذ أمير العيينة الأمر وطرده الشيخ محمد<sup>(١)</sup>.

مع كل ما سبق - ولعل ما خفي كان أعظم - نجد الشيخ محمداً يخرج مطروداً من العيينة باحثاً بعد كل ذلك العناء عن ناصر ومعين يساعده ليبلغ ويدعو إلى الله تعالى؛ وهو ما يسره الله ﷻ من خلال إكرامه وتفضله على الأمير محمد بن سعود الذي قام مع الشيخ محمد وأيده وساعده حتى بلغت الدعوة الإصلاحية مبلغاً عظيماً ونفع الله بها نفعاً كبيراً.

**د/الصبر:** لم يكن طريق الدعوة للشيخ محمد مفروضاً بالورود، وليس أمر الدعوة إلى الله كما هو معلوم أمراً يسيراً، بل أمرها شاق وعسير، خاصة في زمن الشيخ محمد أشد وأشق إذ الناس في ذلك الزمان قد درجوا على أمر وجدوا عليه آباءهم وتغيير العوائد وما درج عليه الناس من أمور هو من أصعب الأمور، ولأجل ذلك سكت أفذاذ من العلماء في ذلك الزمان لعلمهم بموقف الناس منهم وردة فعلهم وأنهم لن يقبلوا منهم حتى أن الشيخ عبد الله ابن عيسى بن عبد الرحمن الذي كان يعد من أجل علماء زمان الشيخ محمد في نجد والعارض لما كتب نصيحة للناس يوجههم فيها لبعض ما خفي من أمور التوحيد والديانة قال في معرض كلامه منبهاً إلى المسألة التي ذكرناها أعلاه: « ولا يهولنكم أن هذا الأمر غريب... »<sup>(٢)</sup>، ويقول الشيخ محمد في التأكيد على هذه المسألة: « وتعلمون أعزكم الله أن المطاع في كثير من البلدان لو تبين العمل بهاتين المسألتين أنها تكبر على العامة الذين درجوا هم وإياهم على ضد ذلك... »<sup>(٣)</sup>.

ولأجل ما سبق فقد تعرض الشيخ محمد لكثير من الصدد وحاربه الكثير من أنداده وأقرانه الذين أظهروا أول الأمر القبول ثم لم يلبثوا أن انقلبوا على الشيخ وحاربوه وسعوا بكل ما يستطيعون إلى تشويه سمعته وتقبيح صورته أمام القاصي والداني، يقول رحمه الله: « فلما أظهرت تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به سبوني غاية المسبة وزعموا أنني أكفر أهل الإسلام وأستحل أموالهم »<sup>(٤)</sup>.

ويقول: « إن هذا الذي أنكروا عليّ وأبغضوني وعادوني من أجله إذا سألوا عنه كل عالم في

(١) رسالة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية: (٣/٣٤٠).

(٢) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموعة من مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٥/١٩٣).

(٣) نفسه: (٥/٤١).

(٤) تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٢٦٥).

الشام واليمن أو غيرهم يقول هذا هو الحق..»<sup>(١)</sup>، وعلى الرغم من هذا كله كان صابراً محتسباً مجاهدًا في سبيل الله تعالى لم تنته هذه العداوات ولا الأحقاد عن هدفه السامي، كذلك لم يجعلها ضغائن شخصية بل كان يدافع عن نفسه ببيان الحق ويؤكد أن كل تلك الافتراءات والشتم لشخصه إنما هي لتنفير الناس عن التوحيد الذي يدعو الناس إليه، يقول رحمه الله: «وأما القول أتا نكفر بالعموم فذلك من بهتان الأعداء الذين يصدون به عن هذا الدين ونقول سبحانك هذا بهتان عظيم»<sup>(٢)</sup>.

يضاف إلى ما سبق أذية العوام التي كادت أن تهلك الشيخ محمد حيث حاولوا قتله في حرملاء كما سلف ذكره وقبلها طرده من البصرة، وهو مع هذا كله صابر طلباً لما عند الله جل وعلا حتى مكن الله له ونصره على أعدائه.

#### ه/زهده في أمر الدنيا وإعراضه عنها في سبيل القيام بدعوته الإصلاحية:

مع العلم أنه كان في وضع متميز<sup>(٣)</sup> فهو من أسرة علم وقضاة فلو أراد رغد العيش لسكت عن ما لا يرضاه العوام ولتحدث بما يرضيهم لينال عندهم حظوة ومحبة وتقديرًا وإجلالاً، وما يتبع ذلك من هباتٍ وأعطياتٍ، يقول الشيخ محمد رحمه الله في ذلك: «وهذه المسألة -يعني التوحيد- تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس: ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة»<sup>(٤)</sup>. ويقول عن معاناته: «فقد جرى عندنا فتنة عظيمة بسبب أشياء نهيته عنها بعض العوام من العبادات التي نشأوا عليها وأخذها الصغير عن الكبير مثل عبادة غير الله وتوابع ذلك من تعظيم المشاهد..»<sup>(٥)</sup>.

وعلى الرغم من انصراف بعض علماء زمانه إلى إرضاء العوام طمعاً بما لديهم، وإعراض الشيخ محمد عن ذلك إلا أن الله جل وعلا وهبه من المنزلة والمكانة والمال والجاه ما لم يمنحه لمناويهم وبقي ذكره رحمه الله وزال ذكرهم فكأنهم ما كانوا.

(١) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموعة من مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٣٢/٥).

(٢) نفسه: (١٠١/٥).

(٣) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموعة من مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (٣٦/٥).

(٤) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب في تاريخ نجد، حسين بن غنام: ص(٢٤١).

(٥) رسالة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مجموعة من مؤلفاته (الرسائل الشخصية): (١٧٦/٥).

## المبحث الرابع: آثاره العلمية والدعوية:

## أولاً: آثاره العلمية:

ومع أن الشيخ إمام دعوة ومعروف أن أئمة الدعوة في الغالب يشتغلون بالجهاد والعمل وأنهم لا يكتبون ولا يؤلفون إلا ما تدعو إليه ، ومن ثم فهم غير مكثرين في الكتب والتأليف إلا أننا نجد الشيخ قد ترك كماً من الكتب والرسائل المفيدة تتميز بما يلي:

١/ التركيز على القضايا والمسائل المهمة في الجوانب العلمية والعملية وأهمها القضية الكبرى وهي تحقق التوحيد وإخلاص لله وحده ومحاربة الشرك والبدع والخرافات والتركيز على محكمات الملة وأصولها الكلية ، وهذه سمة ظاهرة في كل كتابات الشيخ الأصولية والفرعية.

٢/ الاعتماد الكلي على الدليل الشرعي من الكتاب والسنة والإجماع وربط القارئ بالفهم المباشر من النصوص الشرعية ، وتعظيم الدليل الشرعي في نفسه وضرورة احترامه وتعظيمه والتسليم له ، وترتب على هذا خلو هذه المؤلفات من المصطلحات الكلامية والتعقيدات الفلسفية والتعابير الصوفية.

٣/ سلاسة الأسلوب ووضوح العبارة والبعد عن التطويل وحشو الكلام وتفصيل الجزئيات وفروعيات المسائل.

٤/ قوة التأثير في العبارة ، وشعور القارئ بصدق اللهجة وبذل النصيحة ومحبة الهداية للقارئ، وفي هذا يقول الأستاذ مسعود الندوي: "فإن كل سطر من سطوره ممتلئ بالتأثير ، ولعل سببه كامن في ذلك الشعور الديني الوقاد الذي كان يقض مضجعه طوال حياته... وبالجملة فإن جميع مؤلفاته الصغيرة والكبيرة مليئة من هذا التأثير ، ويظهر هذا أشد وأكثر في رسائله (١)".

٥/ تنوع التأليف وعدم الاقتصار على فن واحد ، فألف في العلوم التالية:

أ/ التوحيد ، وأكثر رسائله ومؤلفاته في هذا الموضوع ، ومنها: كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، وكشف الشبهات ، وثلاثة الأصول ، والقواعد الأربع ، ومسائل الجاهلية

(١) محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفتري عليه، مسعود الندوي : ص(١٦٥).

، وأصول الإيمان...

ب/ الفضائل فألف في فضائل الإسلام ، وفضائل القرآن.

ج/ السيرة ، وغلب عليه الاختصار من المتقدمين كابن هشام وغيره فألف السيرة المختصرة ، والسيرة المطولة ، واختصر زاد المعاد.

د/ الحديث ، فألف مجموعة الحديث على أبواب الفقه ، وكتاب الكبائر ، ومختصر فتح الباري.

هـ / التفسير ، وله فيه تفسير سورة الفاتحة ، ومختصر سورة الأنفال.

و/ الفقه ، وله فيه آداب المشي إلى الصلاة ( وهو مختصر في فقه الصلاة والزكاة والصيام ) واختصر الإنصاف ، والشرح الكبير في الفقه الحنبلي.

ز/ كما اختصر مجموعة من كتب العقيدة لشيخ الإسلام ابن تيمية كالعقل والنقل ، وكتاب الإيمان ، وكتاب المنهاج ، وتلميذه ابن القيم كمختصر الصواعق المرسله.

وله خلاف ما ذكر العديد من الرسائل والفتاوى وقد قامت جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بجمع هذه المؤلفات وقد بلغت ما يقارب عشرة مجلدات.

وبعد أن أفنى الشيخ من عمره قرابة الثنتين والتسعين عاماً حافلة بالدعوة والجهاد والتعليم والعمل اختاره الله إلى جواره فوافته المنية في يوم الاثنين آخر شهر شوال<sup>(١)</sup> سنة ست ومئتين وألف من هجرة المصطفى ﷺ ودفن في الدرعية ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ، فلم يوزع بين ورثته مال ولم يقسم<sup>(٢)</sup> وإنما ورث هذا العمل النافع والأثر العظيم في إيقاظ الأمة من رقدتها وتجديد ما اندرس من أمور دينها ، والعودة بها إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ كما ورث هذه السلسلة المباركة من أبنائه وتلاميذه الذين قاموا بنشر هذه الدعوة بمساعدة ومؤازرة آل سعود فرحمة الله على الجميع وجزاهم عنا وعن الإسلام خير الجزاء ، وكان له من الأبناء حسين وعبد الله وعلي

(١) على رواية ابن غنام في الروضة (١٥٤/٢) وابن قاسم في الدرر السنية ، وعلى رواية ابن بشر في آخر ذي القعدة من السنة نفسها . عنوان المجد (٩٥/١) وينظر عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب للعبود (ص ١٤٦) .

(٢) روضة الأفكار (١٥٥/٢) .

وإبراهيم رحمهم الله تعالى<sup>(١)</sup>.

توفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ولكن دعوته لم تمت ، فبقيت حية خالدة من ذلك الزمن إلى يومنا هذا ، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بإذن الله تعالى ؛ لأنها دعوة التوحيد.

### ثانياً: آثاره الدعوية في الداخل والخارج:

لقد كانت لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب آثار مباركة في داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، وقد تمثل هذا الأثر في جوانب متعددة من أهمها:

١. إحياء الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، ونبذ الشرك ووسائله والذرائع المؤدية إليه، فقد كان من أثارها محاربة كل صور الشرك في الجزيرة العربية والقضاء على مظاهره ووسائله المؤدية إليه. كما انتظمت الدعوة إلى التوحيد في كثير من دول العالم وذلك من خلال ظهور علماء وجماعات وجمعيات تدعو للتوحيد الخالص متأثرة بدعوة الشيخ في كل من دول الخليج ومصر والعراق والشام واليمن والهند وفارس وكثير من دول العالم، بعد أن سادت مظاهر الشرك معظم تلك البلدان<sup>(٢)</sup>.
٢. الرجوع بالأمة إلى الكتاب والسنة على هدي السلف الصالح، وتنقية مصادر التلقي، ونشر العلم الصحيح، ومحاربة الجهل، مع إحياء ونشر السنن، ونبذ البدع وإنكارها، لأن دعوة الشيخ قائمة على التغيير من خلال الدعوة، وحث الناس على العودة الصادقة للكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، وتحمل واجب الدين من خلال التصدر للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد والمجاهدة على ذلك.
٣. تحكيم شرع الله تعالى ومحاربه ما يخالف الشريعة من العادات والتقاليد والقوانين، وقد تحقق في ذلك نموذجاً فريداً في العصر الحديث.
٤. تحقيق الجماعة وتوحيد الكلمة على كلمة التوحيد، ونبذ الفرقة والخلافات، بعد ما كانت تعاني الجزيرة العربية وغيرها من التفرق والاختلاف.

(١) عنوان المجد (٩٢/١) .

(٢) انظر : عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم للدكتور صالح العبود (٦٣١ - ٦٩١) .

٥. تحقيق الأمن والسلطان، فظهر نور الحق في نجد والجزيرة العربية وما جاورها وعم الأمن والاستقرار سائر ربوعها، وقامت عليها دولة عظيمة متحدة، على نهج قويم، وهي دولة آل سعود، " فإن دولة آل سعود التي عظمت إنما أصلها الدين، أصلها الدعوة إلى الإسلام والسنة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقبلوها وأقاموها خالصة من أي شيء يخالف عقيدة الصالح ونهجهم القيم"<sup>(١)</sup>، فجعل الله لهم عاقبة حميدة ونصرهم في نهاية جهادهم، وذلك لتمسكهم بمنهج هذه الدعوة المباركة.

٦. عمارة الأرض والحث على الكسب الحلال ومحاربة البطالة والتواكل.

### المبحث الخامس: شبه المناوئين دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

المتأمل لتاريخ الدعوات الإصلاحية والحركات التجديدية في العالم الإسلامي في القرون المتأخرة يلاحظ أنه لم تتعرض دعوة لهجوم مثل ما تعرضت له دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، حتى أضحت هذه الدعوة والقائمون بها شيئاً مخيفاً، وتهمة لكل مخالف، وذلك لأنها قامت في ظل واقع سياسي تتعارض معه هذه الدعوة؛ ولذا شنت عليها حرباً لا هوادة فيها، كما أنها واجهت واقعاً مليئاً بالطرق الصوفية وزعماء الفرق الأخرى من أصحاب الديانات المنحرفة، والمصالح والأغراض الخاصة، ولذلك تمالأ المستشرقون والحكام والصوفية والرافضة على النيل من هذه الدعوة وإثارة الشبه والافتراءات والأكاذيب حولها.

وحقيقة الأمر أن غالب الذين يهاجمون الدعوة أصحاب غايات لا يفرقون في سبيل الوصول إلى غاياتهم بين الحلال والحرام، ولأجل ذلك يسعون إلى مسخ الحقائق والبراهين، وهو ما سعت إليه قوى سياسية ودينية وجماعات مختلفة وأفراد، حيث لم تأل جهداً في مهاجمة الدعوة وذمها لأغراض مختلفة: منها السياسي، ومنها المادي، ومنها الديني، ومنها طلباً للمكانة والعلو بين الناس، إلى غير ذلك من الدوافع، ومنهم من بنى أمره على السماع من غير توثيق، وقد يكون من عامة ومجاهيل، ولذا جاء الكلام في غالبه مخالفاً للواقع ملئاً بالأكاذيب والافتراءات بما يثير العجب.

يقول الشيخ مسعود الندوي وهو من الذين درسوا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(١) عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم للدكتور صالح العبود (ص ٥٤٦).

وأطلعوا على جملة مما كتبه أبناؤها وأعداؤها: «كان من الممكن أن نلتمس الأعذار لقبول هذه التهم المفتراة في الماضي، وذلك لأن كتب أهل نجد ما كانت توجد إلا قليلاً، وأن علماء نجد أنفسهم ما كانوا يهتمون بنشر الدعوة خارج بلادهم إلا قليلاً، ولذلك كان من الممكن جداً لأي شخص أن يحمل آراء كاذبة عنهم بصدق نية وإخلاص، ولكن اليوم إذ انتشرت كتب الشيخ وكتب تلامذته وراجت، فلا يقبل عذر الجهل وعدم العلم»<sup>(١)</sup>.

وقد أثير حول دعوة الشيخ شبه كثيرة هي أضعف من أن يرد عليها، بعد أن تبينت حقيقة الدعوة وانتشرت كتبه ومؤلفاته لأنها كلها كذب وافتراءات تخالف الواقع من ذلك: اعتبارها ديانة جديدة، وهي مذهب خامس، وليس هي مجرد دعوة إصلاحية بل ذات أهداف مبيئة، والحقوا بأصحابها التهم العريضة من عدم محبتهم للنبي ﷺ والأولياء، وأنهم ينكرون الكرامات، كما وصفت دعوته بالترمت والتشدد والبدائية، ومن أهم وأخطر الوسائل التي حارب أعداء الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الإصلاحية هو تسميتها بالوهابية، والهدف من إطلاق هذه التسمية هو تنفير الناس عنها وإيهامهم بأنها دعوة مخالفة لمبادئ الإسلام أو هي نحلة جديدة مبتدعة خارجة عن دين الله، ولقد نجحوا في ذلك حتى أصبح لقب (الوهابية) شبحاً مخيفاً يطلقه الأوروبيون ومن كان على منهجهم على الحركات الإصلاحية التي قامت في العالم الإسلامي خلال القرنين الماضيين، والتي يخشون على أنفسهم منها<sup>(٢)</sup>، وأصبح لهذا الاسم الوهابية مدلوله الذهني لدى كثير من المسلمين في ذلك الوقت وفي وقتنا هذا، وغاب عن ذهنهم وجوب البحث والتحري عن حقيقة هذه الدعوة المباركة التي التزمت الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح عقيدة ومنهجاً، قولاً وفعلاً.

(١) محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفتري عليه، مسعود الندوي : ص(١٨٠) .

(٢) محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم، مسعود الندوي : ص(١٧٩-١٨٠).

## الفصل الثالث

### ( سبل الإصلاح والنهوض بالأمة )

- الدعوة إلى التوحيد والإجماع عليه.
- الإجماع و نبذ الفرقة والاختلاف.
- إقامة العدل والدعوة إلى الإسلام.
- الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.
- البعد عن البدع والخرافات.
- الحرص على العلم والتعليم.